

المركز القومي للترجمة

تاريخ

فاتح العالم

جهان گشای

تأليف: علاء الدين عطا ملك الجويني
تحقيق و تصحيح: محمد عبد الوهاب القزويني
ترجمة: السباعي محمد السباعي



المشروع القومي للترجمة

المجلد الأول

1164





يُعدُّ كتاب "تاريخ فاخ العالم" أو "تاريخ جهان گشای" - جنبًا إلى جنب "جامع التواريخ" و "تاريخ وصّاف" ومؤلفات أخرى- أحد المصادر المهمة التي تعكس مسيرة تطور الأدب الفارسي. حيث وجد النثر الفارسي فيها متنقّسًا يواصل من خلاله تطوره وازدهاره.

كان المؤلف (الجويني - ت : 681هـ) واحدًا من رجال الدولة المغولية. شاهد أحداثها وكتب كتابه هذا. بينما الأحداث المتلاحقة لا تزال تترى. فكان كتابه مرجعًا بالغ الأهمية لتلك الفترة. كما قدّم محقّق الكتاب (محمد ابن عبد الوهاب القزويني) مقدمة ضافية وضعت الكتاب في سياقه التاريخي والثقافي بالغ الأهمية الذي جلّى بطريقة لافتة للنظر في وضوح عبارات الترجمة وجمال أسلوبها ورهافته.



جهان گشای

تاريخ فاتح العالم
(المجلد الأول)

المركز القومي للترجمة
المشروع القومي للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١١٦٤
- تاريخ فاتح العالم (المجلد الأول)
- علاء الدين عطا ملك الجوينى
- محمد بن عبد الوهاب القزوينى
- السباعى محمد السباعى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب

تاريخ جهانگشای

تأليف: علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين بن محمد الجوينى
جلد أول

بسعى واهتمام وتصحيح

محمد بن عبد الوهاب قزوينى

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأويرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤.

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

تاريخ فاتح العالم

جهان گشای

(المجلد الأول)

تأليف : علاء الدين عطا ملك الجوينى

تحقيق وتصحيح : محمد بن عبد الوهاب القزوينى

ترجمة : السباعى محمد السباعى



۲۰۰۷

<p>بطاقة الفهرسة</p> <p>إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية</p> <p>إدارة الشئون الفنية</p>
<p>الجوينى، علاء الدين عطا ملك</p> <p>تاريخ فاتح العالم / علاء الدين عطا ، تحقيق وتصحيح :</p> <p>محمد بن عبد الوهاب القزوينى؛ ترجمة : محمد السباعى ،</p> <p>ط ١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٧</p> <p>٢٨٣ ص ، ٢٤ سم المشروع القومى للترجمة</p> <p>- ١</p> <p>(أ) السباعى، السباعى محمد (مترجم)</p> <p>(ب) القزوينى، محمد بن عبد الوهاب (تحقيق وتصحيح)</p> <p>(ج) العنوان</p>
<p>رقم الإيداع ١٦١١٣ / ٢٠٠٧</p> <p>الترقيم الدولى : 2 - 428 - 437 - 977 - I.S.B.N</p> <p>طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية</p>

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

فهرس المحتويات

7 مقدمة: المترجم
11 مقدمة: المصحح
47 المجلد الأول: من تاريخ جهان گشای
61 فصل كيفية أحوال المغول قبل عصر جنكيز خان
 ذكر القواعد التي وضعها جنكيز خان بعد الخروج والأوامر
64 التي سنها
 ذكر خروج جنكيز خان وبداية انتقال سلطة ملوك الدنيا
74 وممالكها إليه، وشرح ذلك على سبيل الإيجاز
78 ذكر أبناء جنكيز خان
81 ذكر الاستيلاء على بلاد الأويغور وخضوع أيدي قوت
83 ذكر بقية أحوال الأويغور
88 ذكر نسب أيدي قوت وبلاد الأويغور حسب زعمهم
94 ذكر أحوال كوجلك توق تغان
100 ذكر الإمام الشهيد علاء الدين محمد الخنتي
104 ذكر الاستيلاء على المالبغ وقالبغ وفوذلاذ وأحوال أمرائها ...
107 ذكر السبب في مهاجمة مالك السلطان
 ذكر توجه السلطان فاتح العالم إلى مالك السلطان واستخلاص
111 أترار
115 ذكر ذهاب ألوش أيدي إلى جند والاستيلاء على تلك الحدود ...
118 ذكر استخلاص فناكت وحجند وأحوال تيمور ملك
122 ذكر استخلاص ما وراء النهر على سبيل الإجمال
124 ذكر استخلاص بخارى
134 ذكر خروج تارابي

140 ذكر الاستيلاء على سمر قند
146 ذكر واقعة خوارزم
152 تحرك جنكيز خان إلى نخشب وترمز
153 ذكر عبور جنكيز خان طريق ترمذ والاستيلاء على بلخ
157 ذكر توجه جنكيز خان لحرب السلطان
161 ذكر عودة جنكيز خان
164 ذكر ذهاب تورباي نقشي في طلب السلطان جلال الدين
165 ذكر يمه وسبتاي عقب السلطان
169 ذكر استيلاء تولى على خراسان على سبيل الإجمال
172 ذكر أحوال مرو وكيفية واقعها
186 ذكر واقعة نيشابور
 ذكر جلوس سلطان العالم قا آن على عرش المملكة وتوليّه
195 مقاليد السلطة
205 ذكر تحرك سلطان العالم القا آن إلى بلاد الختاي وفتحها
209 الحديث عن (القوريلتاي) - الاجتماع الموسع - الثاني
213 ذكر نتائج أعمال الـ " قا آن "
243 ذكر منازل قا آن ومراحله
247 ذكر توراكيينا خاتون
251 ذكر فاطمة خاتون
254 ذكر جلوس كيوك خان في جهاز بالش الخاني
265 ذكر أحوال أوغول غايمش خاتون وأولادها
268 ذكر توشي وأحواله وجلوس باتو خلفا له
270 ذكر استخلاص البلغار وحدود آس والروس
271 ذكر خيل كلاروبا شيغرد

مقدمة المترجم

كان الغزو المغولي - ولا يزال - أكبر ضربة أصابت العالم الإسلامي، فمزقت أوصاله الواهنة، وكان العالم الإسلامي وما أصابه من تدهور تدريجي من أكبر العوامل التي ساعدت المغول على نجاحهم، وتحقيق أكثر مما كانوا يطمعون فيه ويهدفون إليه.

وحدّ جنكيز خان - القائد المغولي - المغول والتتار والترك بعد تفرقهم إلى قبائل وبطون وعشائر رحا طويلا من الزمان، ثم حاربوا الإمبراطورية الصينية، أقوى جيرانهم، وطهروا ما يجاورهم من مناطق من المخالفين لهم، المعارضين الانضمام إلى دولتهم، كما هاجموا الدولة الخوارزمية أكبر الدول الإسلامية وأقواها، بعد أن سحقّت جميع مراكز القوى المناوئة لها، فأشاعوا فيها الخراب والدمار، وتركوا أرضها قاعا صفصفا، ولم يتركوا فيها على الأرض من المسلمين ديارا، سوى من يحتاجون إليهم. ودفع هذا الحدث الجلل ابن الأثير إلى القول : " لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة، استعظاما لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم إليها رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذى يسهل عليه نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أُمى لم تلدنى، يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا"، ثم يقول : " وهذا البيان يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عمّت الأيام والليالى عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يُبَلِّ بمثلها لكان صادقا، فإن التاريخ لم يتضمن ما يقاربها أو يدانيها".

كتب ابن الأثير قوله هذا قبل حدوث النكبة النهائية بثلاثين عاما، حين سقطت بغداد على يد هولاكو ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م، فكانت النكبة أشد وأنكى،

والمصيبة أعم وأشمل، وتم القضاء على الحضارة الإسلامية التي ازدهرت وتلألأت أنوارها سبعة قرون أسهم فيها العرب والفرس والترك.

أثارت هذه النكبة اهتمام الباحثين في الشرق والغرب على السواء، وطرححت أسئلة كثيرة ظلت الألسن ترددها وتلهج بها:

كيف تكونت دولتهم بعد تفرقهم؟

هل ما حققوه من انتصارات راجع إلى قوتهم الذاتية؟

هل المغول قوم لا يُغلبون؟

لا تزال آثار هذه النكبة بادية السمات واضحة القسما على العالم الإسلامي، لم توحده وحدة ولم تجمعهم قوة، انعكست آثارها على جميع مظاهر الحياة السياسية والأدبية والاجتماعية.

تأثر الأدب الفارسي بهذه الأحداث، فقد سقطت الدولة الخوارزمية وسويت المراكز الأدبية بالأرض، وقُتل غالبية العلماء والأدباء، وهاجر من بقي منهم فأداروا ظهورهم إلى الفنون الأدبية التي سادت الأدب في المرحلة السابقة، واتجهوا إلى فنون أخرى تواكب الآلام التي قاسوها.

على الرغم من هذا فإن علما واحدا بلغ الأوج ووصل إلى مدارج الرقي، أعنى به علم التأريخ، قد ازدهر ازدهارا كبيرا في هذه الفترة فساعد على بقاء الصلة بين القديم والحديث وواصل مسيرة تطور الأدب الفارسي، فألفت كتب تاريخية كثيرة ساعد المغول على تأليفها هي:

- "تاريخ جهان گشاي" لعلاء الدين عطا ملك الجويني، ألف في حدود عام ٦٥٨هـ.

- "جامع التواريخ" الذي ألفه رشيد الدين فضل الله وزير غازان وأولجايتو، وألف في حدود عام ٧٤٠هـ.

- "تجزية الأمصار وتزجية الأعصار"، المعروف بتاريخ وصاف الذي

ألفه عبد الله بن فضل الله الشيرازي في حدود عام ٧٣٨هـ.

- "تاريخ كزبده" الذي ألفه حمد الله بن أبي بكر بن أحمد بن نصر المستوفى القزويني، وهو خلاصة لكتاب "جامع التواريخ"، وألف في حدود عام ٧٣٠هـ.

- "ظفرنامه" وهو كتاب منظوم يبلغ عدد أبياته ٧٥,٠٠٠ خمسة وسبعين ألف بيت على بحر المتقارب على طراز شاهنامه أبي القاسم الفردوسي (٢٥,٠٠٠ خمسة وعشرون ألف بيت في تاريخ العرب، و ٢٠,٠٠٠ عشرون ألف بيت في تاريخ إيران، و ٣٠,٠٠٠ ثلاثون ألف بيت في تاريخ المغول) وألف في عام ٧٣٥هـ.

- "روضة الألباب في تواريخ الأكابر والأنساب" المعروف بتاريخ بناكتي، لأبي سليمان داود بن أبي الفضل محمد بناكتي، وألف في حدود ٧١٧هـ.

- "نظام التواريخ" وهو كتاب مختصر في طبقات إيران المختلفة ألفه ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن علي البيضاوي صاحب التفسير المعروف بـ "تفسير البيضاوي" وألف في حدود عام ٦٧٤هـ.

- "مجمع الأنساب" لمحمد بن علي بن محمد بن حسين بن أبي بكر الشبانكاره، وألف إيان السلطان أبي سعيد عام ٧٣٣هـ.

وغير ذلك من الكتب.

لا شك أن أهم هذه الكتب على الإطلاق هي الكتب الثلاثة الأولى : جهان گشاي، جامع التواريخ، وتاريخ وصاف، فقد سجلت أحداث هذه الحادثة، ووجد النثر الفارسي فيها متنفسا يواصل فيها تطوره.

يتقدم الأول على الآخرين زمانا، وتوفرت لمؤلفه ظروف لم تتوافر لكثيرين غيره، فقد كان واحدا من رجالات الدولة المغولية، وشاهد أحداثها وكتب كتابه والأحداث لا تزال تترى، وسمع عما جرى قبل ذلك من الثقات

الذين التقى بهم فى رحلاته إلى موطنهم الأصلي، فأصبح مرجعاً من أهم المراجع التى تؤرخ لتلك الفترة، فاكتملت الكتب الأوربية وغيرها التى اعتمدت عليه واقتبست منه قيمة كبرى.

لهذا كان الإقدام على ترجمة هذا المصدر المهم أمراً مهماً، كما كان الإقدام على دراسته ونقده وتحليله فى مجال الدراسات الجامعية أمراً واجباً، وقد تمّ بعضها والحمد لله.

هذا مدخل رأيت أنه لازماً كجزء رئيسى للتقديم لهذا الكتاب الذى حققه وجمع نسخه العالم الإيرانى الكبير الأستاذ "محمد بن عبد الوهاب القزوينى" والذى ذكر أنه جمع سبع نسخ خطية منها، وأن النسخة (أ) هى أقدم تلك النسخ، وهى موجودة فى المكتبة الأهلية بباريس، وجعلها النسخة الأساسية فى طبع هذا الكتاب، والتى تقع فى ١٧٤ ورقة تشتمل على ٣٤٨ صفحة، وتعود كتابتها إلى الرابع من شهر ذى الحجة عام ٦٨٩ هـ، أى بعد وفاة المؤلف بثمانى سنوات فقط حيث توفى فى الرابع من ذى الحجة عام ٦٨١ هـ.

قدّم الأستاذ محمد بن عبد الوهاب القزوينى مقدمة إضافية للطبعة الأولى لهذا الكتاب بمجلداته الثلاثة، والتى طبعت فى مطبعة بريل فى ليدن بهولاندا عام ١٣٢٩ هـ الموافق ١٩١١ م.

اتخذت هذه المقدمة أساساً لتقديمى لهذا الكتاب، فاستوعبتها، وأضفت إليها، ومع هذا رأيت من الواجب أن يُنسب الفضل إلى أهله، وأن تُذكر المقدمة التى كتبها المحقق الإيرانى تحت عنوان "مقدمة المصحح"، فذكرتها بتصرف وإضافات.

والله من وراء القصد

السباعى محمد السباعى

مقدمة المصحح

أسرة الجوينيين

علاء الدين عطا ملك

أ- أسرته :

يختلف الكتاب والمؤرخون فى نسب هذه الأسرة، فينسبها بعضهم إلى إمام الحرمين الجويني^(١)، وينسبها آخرون إلى الفضل بن الربيع.

يقول ابن الفوطى : هو الصدر العظيم صاحب الديوان علاء الدين أبو المظفر عطا بن بهاء الدين محمد بن شمس الدين محمد بن بهاء الدين محمد بن على بن محمد بن محمد بن على بن محمد بن أحمد بن إسحق بن أيوب بن الفضل بن الربيع ابن يونس بن محمد بن عبد الله بن كيسان^(٢)، جده الأعلى كيسان الملقب بأبى فروة مولى الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه.

كان الربيع فى بداية أمره حاجبا للمنصور (١٣٦هـ) ثم وزيرا له فحاجبا للمهدى ووزيرا للهادى، وكان ابنه الفضل حاجبا للمنصور والمهدى والهادى والرشد ثم وزيرا للرشد^(٣).

(١) هدايت مجمع الفصحا ج١ - ٣١١ تهران ١٢٩٥هـ. ويعلق القزوينى على هذا الرأى بقوله: "وهذا خطأ ويرجع السبب فى هذا إلى اشتراكهما فى لقب الجوينى"، وذكر ابن خلكان نسب إمام الحرمين على النحو التالى : هو أبو المعالى عبد الملك بن الشيخ أبى محمد عبد الله بن أبى يعقوب يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه الجوينى الفقيه الشافعى الملقب ضياء الدين، ولد فى ١٨ من محرم سنة ٤١٩هـ وتوفى ١٧٨هـ. ابن خلكان - وفيات الأعيان ج٢ ص ٣٤١. وكذلك السبكى طبقات الشافعية - ج٣ ص ٢٤٩ إلى ٢٩٠، طبعة مصر.

(٢) ابن الفوطى - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة - حوادث سنة ٦٨١ ص ٤١٩، بغداد سنة ١٣٥١هـ.

(٣) نسب للربيع مشكوك فيه، وقد روى للفخرى أنه لقيط وأنه ولد زنا، وأحسن أحواله أن يكون صحيح الاتصال بأبى فروة مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه وفى ذلك أتم للمعار، فإن أبى فروة كان ساقطا وكان عبدا للحارث حفار للقبور بمكة، ثم إنه خرج على عثمان يوم الدار وكفاه بذلك عارا. لبسن الطقطقى الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٥٨ القاهرة سنة ١٣١٧هـ.

تحتل أسرة الجوينيين مكانا بارزا، فهي من أقدم وأشهر الأسر التي أنجبتها إيران وكانوا مضطلعين بالمناصب المهمة في حكومات سلاجقة إيران والخوارزمشاهيين والمغول، وكانت وظيفة صاحب الديوان^(١) غالبا ما تُسندُ إليها، ولهذا عرف معظم أفراد هذه الأسرة بهذا اللقب، وشغل بعضهم مناصب أكبر مثل شمس الدين محمد الجويني أخى المصنف، فقد كان الوزير الأعظم في عهد أباقا بن هولاكو ٦٦٣ إلى ٦٨٠ هـ، وإن يكن قد عرف في التاريخ بلقب صاحب الديوان، وبالنسبة إلى عطا ملك فقد كان حاكما عاما للعراق طوال ثلاث وعشرين سنة إلا أنه عرف بهذا اللقب كذلك.

ب- الرحيل إلى جوين :

بعد وفاة الرشيد ونشوب النزاع بين ولديه الأمين والمأمون، ناصر الفضل بن الربيع الأمين، فلما دخل الخليفة المأمون بغداد سنة ٢٠٠ هـ بعد انتصاره على أخيه، خرج بعض أفراد بيت الفضل بن الربيع من العراق واتجهوا إلى إيران خوفا من بطش المأمون بهم، وحط آل الفضل رحالهم في مدينة جوين^(٢) بإيران، ومن ثم عُرفوا بالجوينيين^(٣).

(١) وتعادل وزير المالية، ويذكر الجهشيارى أنه كان لملوك فارس ديوانان أحدهما ديوان الخراج والآخر ديوان النفقات، كما كانت ملوك فارس تقدم للكتاب وتعرف فضل صناعة الكتابة وتقول : هم نظام الأمور، هم الأسن الناطقة وخزان أموالهم وأملأهم علي رعيتههم وبلادهم. ويذكر ابن خلدون أن الديوان كلمة فارسية أصلها ديوان وقد أطلقت في الأصل على كتاب الأعمال الذين يقومون بأعمال القوانين والمحاسبات، ثم انتقلت إلى مكان جلوسهم لأداء تلك الأعمال، وهي وظيفة ضرورية للملك وهي القيام بأعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخروج وإحصاء المساكن باسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم، وقد تفرد هذه الوظيفة بناظر واحد أو غيره، والإمام عمر أول من دون السدواوين. الجهشيارى - السوزراء والكتاب ص ٤٤٣ القاهرة.

(٢) تقع جوين على طريق القوافل بين بسطام في منطقة قوش ونيسابور، وتعرف منطقة جوين كما يقول المقمسي باسم منطقة جويان، وهي منطقة خصبة تنتج الكثير من المواد الغذائية، كانت مدينتها الرئيسية (أزادوار أو آزاده ور) تقع منطقة إفران في الجزء الشمالي منها بينما يحفها من الناحية الغربية منطقة أرغيان حول جاجرام، تضم مائتي قرية حسبا يقول ياقوت الذي وصف مدينة أزادوار بأنها مدينة مكتظة بالسكان بها مساجد رائعة، تغطي حدائق قراها كل الوادي، تأتي إليها مياه الرى من المياه الجوفية.

Le strange, The Lands of the Eastern Caliphate, p.391.

(٣) نبيح الله صفا - تاريخ أدبيات در ايران ج-٣، ص ٣٥ القسم الأول. طهران ١٣٥٣ هـ.ش.

ج- بداية التحاقهم بالخوارزمشاهيين والمغول :

التحق بهاء الدين محمد بن علي، جد والد علاء الدين، ببلاط الخوارزمشاهيين حينما تحرك السلطان الخوارزمي تكش بن أيل أرسلان بن أنسر خوارزمشاه في عام ٥٨٨هـ قاصدا محاربة السلطان السلجوقي طغرل في مدينة الري، وكان هذا في أثناء مروره بمدينة آزادوار المدينة الرئيسية لمنطقة جوين، وقد أعجب السلطان الخوارزمي ببلاغته إعجابا كبيرا^(١).

وجد المؤلف هو شمس الدين محمد بن محمد بن علي، وكان من ملازمي السلطان محمد خوارزمشاه وهو مستوفي ديوانه وكان ملازما للسلطان الخوارزمي وقت هزيمته من المغول وفراره إلى بلخ ٦١٧هـ، ثم التحق بعد ذلك بابنه جلال الدين منكبرتي وعمل مستوفيا لديوانه كذلك^(٢).

د- والد المؤلف :

هو بهاء الدين محمد بن محمد صاحب الديوان، أول من انتسب إلى المغول من الجوينيين وكان ذلك في أثناء ولاية جنتييمور ٦٣٠هـ / ٦٣٢م على خراسان ومازندران من قبل أوكتاي قا آن.

في عام ٦٣٠هـ أرسل جنتييمور كلبلات Kul-bolat ، وهو أحد قواده، مع جيش إلى نيسابور لمحاربة قراجة وبغان سنقور اللذين كانا أميرين من قبل السلطان الخوارزمي جلال الدين، وكانا دائمى الإغارة على تلك المناطق، وتحريض الأهالي وقتل الموظفين المغول والموالين لهم. كان والد المؤلف في تلك الأثناء في نيسابور ففر منها مع جمع غفير من مشاهيرها وذهبوا إلى تاج الدين فريزنى الذى كان واليا على أمور قلعة طوس، فلما فرغ كلبلات من أمر قراجة اتجه إلى طوس وكان قد سمع بأمر هذه

(١) علاء الدين الجويني - جهان گشاي ج ٢ ص ٢٨.

(٢) خوند مير حبيب - السير ج ٣ شرح حال خواجه شمس الدين محمد أخى المصنف، النسوى سيرة السلطان جلال الدين، ص : ١٩٥.

الجماعة، فأرسل إلى فيريزنى رسولاً وطلب منها تسليمها إليه، فأحسن كلبلات استقبالهم، ثم حملهم إلى بلاط جنتيمور الذى أحسن بدوره لقاءهم^(١).

وبعد مدة قصيرة عهد بمنصب صاحب الديوان فى خراسان ومازندران إلى بهاء الدين محمد الجوينى، ثم عين فى عام ٦٣٣ هـ بأمر من أوكتاى قا آن فى منصب صاحب ديوان^(٢) الممالك.

وعين فى عام ٦٥١ هـ بأمر من لورغون، وكان بهاء الدين قد ناهز الستين من عمره آنذاك وأراد أن يستريح من عناء هذه الأعمال التى كابدها فترة طويلة، إلا أنه امتثل للأمر وتوفى هناك فى سنة ٦٥١ هـ^(٣).

هـ - المؤلف :

ولد علاء الدين عطا ملك فى ١٠ من ربيع الأول سنة ٦٢٣ هـ - ١٢٢٦م فى قصبة آزادوار على أرجح الأقوال، وقد ذكر الذهبى هذا التاريخ فى كتابه "تاريخ الإسلام"، وذكره ابن الفوطى^(٤). وأيدت أقوال عطا ملك هذا التاريخ، فقد ذكر أنه بدأ فى كتابة تاريخه فى أثناء وجوده بقراقورم بين (٦٥٠ هـ و ٦٥١ هـ - ١٢٥٢م و ١٢٥٣م) وأنه كان آنذاك فى السابعة والعشرين من عمره، وأشار فى موضع آخر من كتابه إلى أنه شغل بأعمال الكتابة والتحرير فى الديوان قبل أن يبلغ العشرين من عمره، وأصبح واحداً من خاصة كتاب الأمير أرغون^(٥).

(١) ويقول بويل Boyle فى مقنة الترجمة الإنجليزية لكتاب جهان گشاي أن بهاء الدين الجوينى أصبح منذ هذا التاريخ من موظفى المغول The history of the world conqueror.

(٢) الجوينى - جهان گشاي ج ٢ ص ٢٢٤-٢٢٩.

(٣) الجوينى - جهان گشاي ٢٥٦-٢٥٨.

(٤) ابن الفوطى - الحوادث الجامعة، حوادث سنة ٦٨، ص ٤١٩، إلا أن حمد الله المستوفى يذكر فى نزهة القلوب أن آزادوار مسقط رأس شمس الدين الجوينى فقط فى حين يذكر دولتشاه فى تذكرة الشعراء أن آزادوار مسقط رأس الأخوين : شمس الدين وعلاء الدين عطا ملك.

(٥) الجوينى - جهان گشاي، ج ١ ص ٦.

و- رحلاته إلى البلاط المغولي :

سافر أرغون إلى بلاط المغول خمس مرات أو أكثر لإجراء المحاسبات المالية، وكان علاء الدين ملازمًا له في أغلب هذه الأسفار، فقد كان كاتبه الخاص.

يبدو من جهان گشای أن الرحلة الأولى التي صاحب فيها علاء الدين أرغون كانت الرحلة الثانية لأرغون، وكانت ملازمته له بإشارة من أرغون، وقد حدثت في عامي ٦٤٤هـ - ٦٤٥هـ^(١)، وكان والد علاء الدين ملازمًا لأرغون في هذه الرحلة كذلك، إلا أن هذه الرحلة لم تتم بسبب سماعهم ب وفاة كيوك خان، وكان ذلك عند وصولهم إلى أطرار، فتوقفت البعثة هناك مدة ثم عادت إلى إيران.

صاحب علاء الدين أرغون في رحلته الثالثة إلى قراقورم مدافعا عن نفسه ضد اتهام حاسديه ومعارضيه، وقد مكث أرغون فترة طويلة في البلاط المغولي، وكانت هذه الرحلة في الفترة التي تلت وفاة كيوك خان وجلوس منكوقا آن، وقد استمرت هذه الفترة من ٦٤٥هـ حتى ٦٤٩هـ وكانت حكومة المغول آنذاك في يد أوغول غايمش زوجة كيوك خان، وقد تمت هذه الرحلة في عام ٦٤٧هـ^(٢)، وبعد عودة أرغون وعلاء الدين من معسكر أوغول غايمش التحق علاء الدين بخدمة بيسو بن چفتای بن جنکيز، وكان ذلك في عام ٦٤٩هـ - ١٢٥١م، ١٢٥٢م^(٣).

صاحب علاء الدين أرغون في رحلته الرابعة إلى بلاط منكوقا آن، وقد حدثت هذه الرحلة في جمادى الآخرة ٦٤٩هـ إلا أن أرغون وصل إلى مكان الاحتفال بعد انتهائه نتيجة لتراكم الجليد في الطريق، وكان جلوس منكوقا آن قد تم في ٩ من ربيع الآخر ٦٤٩هـ، وكان وصول أرغون والمرافقين

(١) الجويني ج ١ ص ٢٤٨.

(٢) الجويني ج ٢، ص ٢٤٩.

(٣) الجويني ج ١ ص ٢٣١.

له في العشرين من صفر سنة ٦٥٠ هـ - ١٢٥٢ م^(١)، وكان خروجهم من قراقورم في رجب ٦٥١ هـ - ١٢٥٣ م^(٢).

ومن هنا يتضح أن علاء الدين قد مكث في معسكر منكوقا آن في قراقورم في أثناء رحلته الأخيرة ما يقرب من عام وخمسة أشهر شاهد في أثناءها الآثار العتيقة وخرائب مدينة أرد وباليغ التي كانت واحدة من أعظم مدن مملكة الأويغور والتي بنيت قراقورم^(٣) بأمر من أوكتاي على أنقاضها، وقد وصفها علاء الدين في المجلد الثاني من كتابه وكذلك رشيد الدين في المجلد الثاني من كتابه "جامع التواريخ"^(٤).

ز - وظائفه :

انخرط علاء الدين بعد عودته من رحلته الأخيرة إلى قراقورم في ٦٥١ هـ - ١٢٥٣ م في سلك كتاب الأمير أرغون، وظل على هذا حتى أوائل عام ٦٥٤ هـ - ١٢٥٦ م حين وصل هولوكو إلى إيران، ثم عزم أرغون على السفر مرة أخرى إلى معسكر منكوقا آن بناء على أمره فعهد - قبل سفره - إلى ثلاثة أشخاص أحدهم علاء الدين إلى جانب اثنين آخرين هما ابنه كراي ممالك والأمير أحمد بينكحي بالعمل في بلاط هولوكو، وفوض إليهم الإشراف على أمور ممالك العراق وخراسان ومازندران^(٥)، وهذا يدل على علو المنزلة التي كان يتمتع بها علاء الدين عند أرغون، ومنذ هذا

(١) الجويني ج٢ ص ٢٥٢. وذكر الجويني في النص أن وصوله كان في منتصف صفر سنة ٦٤٩ هـ. ويعلق القزويني على ذلك بقوله : وهذا القول خطأ من جانب النساخ، والصواب أنه في العشرين من صفر سنة ٦٥٠ هـ، ويدل على صحة قوله بما ذكره الجويني نفسه من أن تحريره إلى المعسكر السلطاني الكبير قد بدأ في جمادى الآخر سنة ٦٤٩، فكيف يتسنى له أن يصل إلى قراقورم رغم بعد المسافة في العشرين من صفر من العام نفسه؟ واعتقد أن الخطأ واضح؛ فهل وصل أرغون إلى قراقورم قبل أن يبدأ رحلته؟

(٢) للجويني ج٢ ص ٢٥٦.

(٣) قراقورم اسم جبل في المنطقة المغولية، وأول عاصمة للمغول. رشيد الدين - جامع للتواريخ ج١ - برزين.

(٤) رشيد الدين - جامع للتواريخ ج١ برزين.

(٥) الجويني - جهان گشاي ج٢ ص ٢٥٩ وكذلك ج٣ ص ١٠١.

التاريخ أصبح علاء الدين واحدا من خاصة هولاکو وکتابه المقربين. ويوما بعد يوم علا شأنه وثبتت أقدامه حتى ابتلى فى أواخر أيامه بمجد الملك اليزدى فأخذ نجمه فى الأقول وساعت أحواله كما سيتضح فيما بعد.

وبعد وصول هولاکو إلى ایران بقليل کتب شخص يدعى جمال الدين خاص حاجب وكان من أعداء الأمير أرغون، وقد عهد إليه بالإشراف على الممالك القريبة ، کتب محضرا يتضمن أسماء أمراء ورؤساء ایران الذين كانوا يعملون تحت حکم الأمير أرغون وأحضره إلى هولاکو بخراسان وقال له : "إن لدى أقوالا تتعلق بكل واحد من هؤلاء وأود أن لا أفصح عنها فى حضرة منكوا قأ أن"، وكتب اسم علاء الدين بين هذه الأسماء، فلما وقع بصر هولاکو عليه قال له : "وهل عندك أقوال عنه؟ وإذا كانت لديك فاعرضها علىّ حتى نحقق فيها ونقول الحکم الصواب فيه"، عندئذ ندم جمال الدين على فعلته والتمس العفو وطلب المعذرة^(١).

يمكن استنباط أمرين من هذه الرواية: الأول هو الاهتمام الكبير الذى كان يحظى به علاء الدين عند هولاکو . والثانى هو الدسائس والمكائد التى كانت تدبّر لعلاء الدين من البداية.

يستفاد من جهان گشای أن علاء الدين كان مصاحباً لهولاکو فى حملته للقضاء على الإسماعيلية وقلاعهم، وفى أثناء طريقه إلى قلاعهم وصلوا إلى خبوشان^(٢)، وكانت هذه القضية منذ بداية فتوحات المغول حتى عام ٦٥٤هـ قد أضحت خراباً، هدمت جسورها وخربت قنواتها ولم يبق فيها شىء سوى جدار المسجد الجامع. عندئذ عرض علاء الدين أمر هذه القضية - بعد أن شاهد رغبته فى تعمیر ما خرب - على هولاکو، فأمر فى الحال بتعميرها وترميم قنواتها وأن يستدعى سكانها الذين تركوها بعد خرابها وأن لا يتحملوا

(١) الجوينى : ج٢ ص ٢٥٩.

(٢) خبوشان ، يقول عنها المغول : قوجان. القزوينى - حاشيته ص ١٠٥، وهى كوشان الحالية.

أية مصاريف في سبيل ذلك وأن تتحمل الخزانة كل ما ينفق^(١).

ويقول براون^(٢): خرج هولاکو من قراقورم في يوليو سنة ١٢٥٢م - ٦٥٢هـ مزودًا بتعليمات مشددة بأن يستأصل شأفة الحشاشين في الموت وأن يحطم الخلافة في بغداد، وكان سيره في البداية وئيدا بطيئا، وأمضى صيف سنة ١٢٥٤م - ٦٥٢هـ في تركستان ثم وصل إلى سمرقند في سبتمبر سنة ١٢٥٥م - ٦٥٣هـ وبقي بها أربعين يوما، وفي يناير سنة ١٢٥٦م - ٦٥١هـ وصل إلى كيش فلاقاه بها أرغون الذي كان يتولى حكم إيران من قبل منكوقا آن ١٢٥٣م - ٦٥١هـ وكان في صحبته كاتبه الكبير بهاء الدين محمد الجويني وابنه عطا ملك الجويني، وقد لحق الابن بهولاکو فأصبح كاتبه الخاص وصحبه في أشد معاركه، وحضر معه غاراته على حصن الموت معقل الحشاشين فتمكن بذلك من الرجوع إلى مصادر أصلية موثوق بها كان عليها اعتماده في تأليف كتابه "جهان گشای".

ولا بد أن هذا القول من جانب براون قد جانبه الصواب، وقد ذكر علاء الدين أن والده توفي سنة ٦٥١هـ، فكيف يتسنى لهولاکو أن يقابل أرغون في كيش ومعه بهاء الدين كاتبه الأكبر وابنه علاء الدين؟ ثم إن ما ذكره براون من أن علاء الدين تمكن من الرجوع إلى مصادر أصلية موثوق بها - بعد فتح قلاع الحشاشين - كان عليها اعتماده في تأليف كتابه، قول يلزمه التحديد والدقة، فالاستفادة التي استفادها الجويني من مكتبة حصن الموت قد تجلت في المجلد الثالث فقط من جهان گشای حين تحدث عن الإسماعيلية.

ويستفاد من جهان گشای أن ركن الدين شاه آخر حكام الطائفة الإسماعيلية حاول في أثناء محاصرة هولاکو لقلعة ميمون دژ - التي كانت أكبر قلاع الموت تحصنا - الاستفادة من مرور الوقت ليتساقط الجليد آملا في

(١) الجويني ج ٣ ص ١٠٥.

(٢) براون - تاريخ الألب في إيران - الترجمة العربية ص ٥٧٦، القاهرة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤م.

أن يساعده هذا على الانتصار أو إطالة مدة الحصار، ولكن الجو ظل على حاله ولم يحقق له مراده^(١) فقرر الاستسلام في منتصف نوفمبر سنة ١٢٥٦م - ٦٥٤هـ وطلب وثيقة أمان في سبيل ذلك، وقد كتبت تلك الوثيقة بواسطة الجوينى الذى لعب دوراً كبيراً فى الاتصالات التى جرت بين الطرفين^(٢)، ثم إن الجوينى نفسه هو الذى أعد البيان النهائى لفتح قلاع الإسماعيلية والقضاء عليهم نهائياً^(٣).

وبعد فتح ألموت والقضاء على الإسماعيلية ٦٥٤هـ - ١٢٥٦م رأى علاء الدين أن مكتبة ألموت الشهيرة قد أصبحت عرضة للتلف والضياع، فعرض على هولاكو إمكان تفادى هذا فرحب به وأمر أن يبحث محتوياتها ومحتويات القلعة التى تجمعت منذ أيام الحسن الصباح حتى ذلك التاريخ أى فى حدود مائة وسبعين عاماً^(٤)، وأن يفصل ما يراه مفيداً ولزماً، فنفذ علاء الدين الأمر واستخرج ما كان بها من نفائس المصاحف والكتب وآلات رصد النجوم، وحرق باقى الكتب التى تتعلق بأصول مذهبهم أو فروعه، ومن جملة الكتب التى أبقي عليها كتاب يتضمن أحوال الحسن الصباح ويُعرف باسم "سرگذشت سيدنا"^(٥)، وما ذكره الجوينى عن هذا الكتاب فى غاية الأهمية،

(١) الجوينى جـ ٣، ص ١٠٩.

(٢) Boyle : Introduction of the history of world cong xxv .

(٣) الجوينى جـ ٣ ص ١١٤.

(٤) استولى الحسن الصباح على ألموت فى يوم الأربعاء ٦ من رجب سنة ٤٨٣هـ، ٤ سبتمبر سنة ١٠٩٠م.

الجوينى جـ ٣ ص ١٩٤.

(٥) الجوينى جـ ٣ ص ١٨٦، يتضمن هذا الكتاب سيرة الحسن الصباح منذ ولادته التى نكر أنها حدثت فى مدينة

الرى بعد أن هاجر والده من اليمن إلى الكوفة إلى قم ثم إلى الرى واسمه الحسن بن على بن محمد بن جعفر بن الحسين بن محمد بن الصباح الحميرى ، فهو ينتمى إلى قبيلة حمير . يذكر الحسن الصباح أنه كان فى بداية أمره يعتقد بما يعتقد به أباه وأجداده من مذهب الشيعة الإثنا عشرية وأنه كانت تدور بينه وبين شخص يدعى أميره ضراب يؤمن بمذهب الباطنية مناظرات ومحاورات كانت تنتهى دائماً بهزيمة الحسن ظاهرياً، ولكنه آمن بمذهبهم سرا ثم يمضى فى سرد قصة اعتناقه مذهبهم وأخذه منصب الإمامة فيه. وقد أورد الجوينى لهذا الكتاب مختصراً فى المجلد الثالث من كتابه من ١٨٦ إلى ٢١٦ ، ونقل عنه رشيد الدين فى المجلد الثانى من كتابه "جامع للتواريخ" خلاصة أكثر تفصيلاً.

فهو يحتوى على معلومات قيمة عن هذا المذهب لا توجد فى أى كتاب قبله^(١).

يقول صاحب جامع التواريخ إن علاء الدين كان مصاحباً لهولاكو فى أثناء توجهه إلى بغداد لمحاربة الخليفة المستعصم فى عام ٦٥٥هـ - ١٢٥٧م فقال : سار هولاكو فى أوائل المحرم من سنة ٦٥٥هـ - ٥٨/١٢٥٧م بالجيوش فى القلب الذى يسميه المغول قول عن طريق كرمانشاه وحلوان، وكان فى ركابه كبار الأمراء : كوكا إيلكا وأرقتون وأرغون آقا، ومن الكتاب قراناي وسيف الدين البتكتجى المدبر لشئون ملكه، والخواجة نصير الدين الطوسى والصاحب السعيد علاء الدين عطا ملك الجوينى مع السلاطين والملوك وكتاب بلاد إيران كافة^(٢).

ح- ولايته على بغداد :

عهد هولاكو بعد عام من فتح بغداد أى فى ٦٥٧هـ - ١٢٥٩م إلى علاء الدين بحكومة بغداد، وقد نص الجوينى على ذلك صراحة^(٣).

وعلى هذا يكون ما أورده رشيد الدين من أن هولاكو قد فوض ملك بغداد لعلاء الدين عام ٦٦١هـ، وهى نفس السنة التى رفع فيها هولاكو شمس الدين محمد الجوينى بعد مقتل سيف الدين بيتكتجى إلى منصب صاحب

(١) اللزوينى - مقدمة جهان گشاي ج١ - كط - لحن.

(٢) رشيد الدين - جامع التواريخ ج٢ - المجلد الأول - الترجمة العربية ٢٨١-٢٨٢. بينما يذكر نصير الدين الطوسى أن حركة هولاكو كانت من جانب همدان فى شوال ٦٥٥هـ وأن سوغونجاك نوين وباجيو سارا فى المقدمة فى قيادة الميمنة عن طريق إريل، عن طريق جبال شهرزور وساركت لوقا نوين وأنكيا نوين فى قيادة المسيرة عن طريق كريت وبيات ولم يذكر الطوسى شيئاً عن ملازمة عطا ملك لهولاكو والسلطان على قلب الجيش عن طريق كرمان شاه وحلوان، نيل خولجة نصير الدين الطوسى على جهان گشاي ص ٢٨٢.

(٣) الجوينى - رسالة تسليية الإخوان ، نقلا عن مقدمة اللزوينى - انظر الملحق رقم (١).

الديوان في ممالكه^(١)، يكون هذا القول لا أساس له من الصحة لأنه من البديهي أن يكون الجويني أفضل من الآخرين في الإطلاع والإخبار بأموره الخاصة، ثم إننا نرى أن ابن الفوطي يذكر أنه تولى الوزارة في عام ٦٥٧هـ فيقول: وفي هذه السنة جعل شمس الدين محمد الجويني صاحب ديوان الممالك، وعلاء الدين عطا ملك أخاه العراق وجعل معه عماد الدين محمد القزويني^(٢).

وظل علاء الدين عطا ملك حاكمًا على العراق طول مدة حكم هولاءكو التي استمرت حتى وفاة هولاءكو في ١٩ من ربيع الآخر سنة ٦٦٣هـ - ١٢٦٥م^(٣) على الرغم من أن هولاءكو كان قد فوض في عام ٦٦١هـ أمور الحكم في ممالك العراق وخراسان ومازندران حتى نهر جيحون إلى الأمير أباقا نجله الأكبر والأفضل، وبعد تولى أباقا الحكم خلفا لأبيه في ٣ من رمضان عام ٦٦٣هـ - ١٢٦٥م ظل شمس الدين في منصبه الذي وليه في عهد هولاءكو وأعطى ممالك العراق وفارس للأمير سونجاق^(٤) - أحد الأمراء المغول الكبار - ونصب علاء الدين في حكم بغداد نيابة عن الأمير سونجاق، وفوض أمر أصفهان وغالبية ولايات العراق العجمي ليهاء الدين بن شمس الدين محمد الجويني^(٥).

وطوال مدة حكم أباقا التي استمرت ما يزيد عن سبعة عشر عاما من ٦٦٣ إلى ٦٨٠هـ أي ١٢٦٥ إلى ١٢٨٢م كان علاء الدين نائبا عن الأمير سونجاق في حكم بغداد، إلا أنه كان الحاكم الفعلي لبغداد لمدة عام آخر من حكم السلطان أحمد تگودار الذي خلف أباقا، الذي حدثت وفاته في عهده وفقا لأصح الأخبار، وسأتناول حادثة وفاته فيما بعد.

(١) رشيد الدين - جامع التواريخ ج-٢ ص ٣٤٩ والترجمة العربية ص : ٣٣٨.

(٢) ابن الفوطي - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة - حوادث سنة ٦٥٧هـ ص ٣٣٩.

(٣) المصدر السابق : ٣٣٨.

(٤) ذكر وصاف هذا الاسم على هذا النحو "موغونجاق"، تاريخ وصاف، ص ٥٥ ، طبعة طهران.

(٥) رشيد الدين - جامع التواريخ ٤١٦. كاترمير.

ط- علاء الدين.. وزيراً :

ظل علاء الدين طوال مدة حكمه مكرسا جهوده لتعمير البلاد، فقد خفف كثيرا من الضرائب عن الفلاحين، وأنفق الكثير من الأموال في إنشاء القرى وقنوات الري، وأجرى نهرا من الأنهار إلى النجف الأشرف وأنفق عليه مبالغ وافرة قدرت بمائة ألف دينار أو يزيد وأسست قرى بجانبه بلغت مائة وخمسين قرية فأضحت تلك الأراضي القاحلة مزارع ورياضا عامرة.

وبنى رباطا بمشهد الإمام على "كرم الله وجهه" في النجف الأشرف، وبني مدارس، ولم يمض وقت طويل على ولايته أمر بغداد حتى كانت بغداد والعراق العربي بعمامة قد تغيرت أحوالهما بعد الخراب والدمار الذي أصابهما من الغزو المغولي فزرع الناس آمنين وتضاعف دخل العراق إلى درجة قيل فيها إن بغداد إبان حكم عطا ملك قد أضحت أكثر عمارا مما كانت عليه أيام الخلفاء العباسيين^(١).

وقد وردت له تراجم كثيرة في أكثر الكتب العربية المؤلفة في القرنين الثامن والتاسع الهجريين^(٢)، وأوفى هذه التراجم ما ذكره الذهبي، فضلا عن أنها أقربها إلى حياته، فقد وقف المؤلف في تأليفه حتى عام ٧٠٠هـ وتوفي سنة ٧٤٨هـ.

وهناك اختلافات بينهما تتعلق بالسنة التي توفي فيها علاء الدين، وسأذكرها حين أتحدث عن وفاة المؤلف فيما بعد.

(١) يرجع إلى ما كتبه ابن الفوطي في كتابه الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، فقد أرخ فيه لأعمال علاء الدين عطا ملك سنة بعد أخرى، وهو خير مرجع يتعلق بأعمال الجويني وحياته. كذلك الذهبي في كتابه تاريخ الإسلام ج٢١. ترجمة علاء الدين عطا ملك.

(٢) الذهبي - تاريخ الإسلام ج٢١، ابن تغرى بردى - المنهل الصافي ج٤، ت، ٨٦٤ هـ ابن شاکر الکتبی - فوات الوفيات ج١٨٧ ٢ الصقاعی - تالی وفيات الأعیان. النويری - نهاية الأرب ج٢١.

ى- المكائد التى تعرض لها :

ابنلى علاء الدين منذ توليه أمر بغداد بمكائد عديدة ومصائب شتى، وقد نسجت خيوط المكائد بعد عام واحد من حكمه لبغداد، ففى عام ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م^(١) دبر له على بهادر شحنة بغداد وعماد الدين القزوينى وجماعة أخرى من صدور العراق مكيدة ثبتت عليه، ورفعوا أمره إلى السلطان الذى أمر بقتله ثم سئل التخفيف فأمر بحلق لحيته، فكان يجلس فى الديوان ويستر وجهه، ثم صدر أمر بالعفو عنه فى العام التالى، فقال الصاحب شمس الدين لعلى بهادر شحنة بغداد: "الشعر إذا حلق نبت، والرأس إذا حلق لم ينبت"، ودبر قتله^(٢).

وهناك مكائد أخرى لم تثبت عليه بلغ بعضها حد الاغتيال^(٣). ومن أكبر المكائد التى تعرض لها علاء الدين المكيدة التى دبرها مجد الملك اليزدى والتى لم ينج منها سوى فى الأيام الأخيرة من حياته، وأفضل من يصور ذلك علاء الدين عطا ملك نفسه فى رسالته التى تعرف باسم تسليّة الإخوان، والثانية متممة للأولى ولا عنوان لها. ويذكر القزوينى^(٤) الذى اطلع على الرسالتين أن الجوينى لم يذكر اسم مجد الملك فى أثناء حديثه بهاتين الرسالتين تحقيرا له وازدراء، ونظرا إلى أن هاتين الرسالتين أفضل ما يصور حال عطا ملك فى أثناء تلك المحنة، فقد أثبت ترجمة لخلاصتيهما كما ذكرها القزوينى فى رسالتي للحصول على درجة الدكتوراه^(٥).

وآخر وقائع الرسالة الثانية يتعلق بقتل مجد الملك وأعوانه، ويذكر صاحب جامع التواريخ^(٦) أن قتله قد حدث فى يوم الأربعاء الثامن من

(١) ابن الفوطى - الحوادث الجامعة - حوادث سنة ٦٥٨، ص ٣٤٣.

(٢) ابن الفوطى - حوادث سنة ٦٥٩ ص ٣٤٦.

(٣) ابن الفوطى - حوادث سنة ٦٢٢ وسنة ٦٦٨ ص ٣٥٠-٣٦٧.

(٤) للقزوينى - مقدمة جهان گشاي ج ١ - ك - ل.

(٥) انظر الملحق رقم (٢).

(٦) رشيد الدين - جامع التواريخ ج ٢.

جمادى الأولى سنة ٦٨١هـ الموافق ١٤ من أغسطس سنة ١٢٨٢م، ولما كانت وفاة علاء الدين قد حدثت وفقا لأصح الأقوال فى الرابع من شهر ذى الحجة من نفس العام - بعد أن ظل حاكما لبغداد أربعة وعشرين عاما، ما يقرب من ست سنوات فى عهد هولاكو من ٦٥٧ إلى ٦٦٣هـ، وسبعة عشر عاما طوال حكم أباقا من سنة ٦٣٣ إلى سنة ٦٨٠هـ، وما يقرب من عام واحد من حكم السلطان أحمد - فإنه يتضح أن علاء الدين قد انتهى من تأليف هذه الرسالة قبل وفاته بستة أشهر تقريبا، وهى آخر عمل له.

ك- وفاة علاء الدين الجوينى :

بعد جلوس نَگودار بن هولاكو على عرش السلطة نشبت بينه وبين ابن أخيه أرغون أباقا بن هولاكو خلافات شديدة حول أحقية كل منهما فى السلطة. ونظرا إلى أن شمس الدين الجوينى وأخاه علاء الدين كانا من أنصار تكودار، وهو المعروف فى التاريخ باسم السلطان أحمد، فقد دبّت العدواة بينهما وبين أرغون، ويضاف إلى هذا ما ذاع من شائعات حول إقدام شمس الدين الجوينى على دس السم لأباقا والد أرغون مما زاد الأمر سوءا^(١). وكان هذا إيذانا بأقول نجم أسرة الجوينيين، فيذكر رشيد الدين^(٢) أن أرغون توجه فى شهور سنة ٦٨١هـ قاصدا المشتى من خراسان إلى بغداد، فلما وصل إلى هناك طلب أفراد أسرة علاء الدين وأتباعه، وقبض عليهم واستولى على أمتعتهم وعنفهم، ثم أمر بنيش قبر نجم الدين الأصغر الذى كان نائبا عن علاء الدين فى حكم بغداد - وكان قد توفى حديثا - وألقوا بجثته على قارعة الطريق، فلما علم علاء الدين بما جرى - وكان آنذاك مختفيا هو وأخوه شمس الدين - اعتراه صدام شديد أودى فى النهاية بحياته حيث دفن بها فى مقبرة جرنداب^(٣).

(١) تاريخ وصاف ١١٩.

(٢) رشيد الدين - جامع التواريخ ج-٢.

(٣) وصاف ١٤٢-١٤٣.

ويؤيد هذا ما ذكره ابن الفوطى، فقد ذكر أن وفاته حدثت فى أران فى الرابع من ذى الحجة سنة ٦٨١ حيث وقع عن ظهر جواده^(١).

وقد عيّن السلطان أحمد - الذى كان قد تولى السلطة آنذاك - الخواجة هارون بن شمس الدين الجوينى ابن أخيه مكانه فى حكم بغداد^(٢).

ولعل ذكر أرغون وسفره إلى بغداد وطلبه لأقارب عطا ملك هو الذى حدا بالمؤرخين العرب إلى الاعتقاد بأن وفاته قد حدثت فى عهد أرغون، وهذا سهو واضح^(٣) إذ أجمعت المصادر القريبة من عهده على أن وفاته كانت فى أوائل حكم السلطان أحمد، أى قبل جلوس أرغون على العرش بسنة ونصف تقريبا، فقد تولى أرغون الحكم فى جمادى الأولى سنة ٦٨٣هـ.

فترى الصقاعى^(٤) يقرر أن علاء الدين وأخاه اختفيا بعد ولاية أرغون السلطة وطلبهما أرغون، ولكن علاء الدين توفى بعد شهر وهو مختف.

وطبقا لهذا القول تكون وفاة علاء الدين قد حدثت فى نهاية عام ٦٨٣هـ وأوائل سنة ٦٨٤هـ، ويقرر ابن شاکر الكتبى^(٥) أن علاء الدين توفى فى عام ٦٨١هـ بعد اختفائه بشهر، ويضيف أن وفاته قد حدثت فى عهد أرغون، ويذكر هذا رأى أيضا ابن تغرى بردى^(٦)، ويقرر النويرى أن وفاته قد حدثت فى عام ٦٨٠هـ فيقول :

”وفى سنة ثمانين وستمائة أيضا كانت وفاة علاء الدين الجوينى صاحب الديوان، وكان قد تمكن فى دولة التتار تمكنا عظيما بسبب أخيه شمس الدين، فقد كان المشار إليه^(٧). وقرر الذهبى فى تاريخ الإسلام أن

(١) ابن الفوطى - الحوادث الجامعة - حوادث سنة ٦٨١.

(٢) ابن الفوطى - حوادث سنة ٦٨٢.

(٣) القزوينى - مقدمة جهان كشاي قبط.

(٤) الصقاعى.

(٥) ابن شاکر - وفيات الوفیات ج ٢ ص ٤٥.

(٦) ابن تغرى بردى - المنهل الصاقى ج ٤ حرف ع.

(٧) النويرى - نهاية الأرب ج ٢٩.

علاء الدين توفي في عهد أرغون بن أباقا بعد اختفائه بشهر فيقول :

"وهناك مات أباقا ومنكوتمر، وكان قد انصلح أمر علاء الدين في أيام الملك أحمد، فلما ملك أرغون بن أباقا طلب الأخوين فاختفيا، وتوفي علاء الدين في الاختفاء بعد شهر"^(١).

ل- بقية أسرة علاء الدين الجويني

سبقت الإشارة إلى شمس الدين الجويني أخى المصنف، وقد كان منذ أواخر عهد هولاكو وكل حكم ابنه أباقا وتكودار المعروف بالسلطان أحمد أى ما يقرب من اثنين وعشرين عاما (٦٦١ إلى ٦٨٣هـ، أى ١١٦٣ إلى ١٢٨٤م)، كان الوزير الأعظم فى الدولة وصاحب اليد الطولى فى تدبير وإدارة جميع البلاد والممالك الواقعة غرب نهر جيحون، وقد بلغت ثروته حدا كبيرا لدرجة أنها كانت فى اليوم الواحد تومانا (عشرة آلاف دينار)^(٢). وقد ذكر وصاف^(٣) وصاحب تاريخ گزیده حكايات كثيرة عن كرمه وحبه للشعر ورعايته للشعراء ، وقد قتل فى الرابع من شعبان سنة ٦٨٣هـ - ١٦ من أكتوبر سنة ١٢٨٤م قرب آهر، (فى قراجه داغ) بأمر من أرغون بن أباقا، ولحق به بعد مدة وجيزة أبناؤه الأربعة يحيى وفرج الله ومسعود وأتابك^(٤)، ثم قتلوا حفيده على بن خواجه بهاء الدين بن شمس الدين سنة ٦٨٨هـ - ١٢٨٩م فى كاشان، ويذكر رشيد الدين أن مقبرته قد أضحت فيما بعد مزارا يطاق به^(٥).

وقد ابتلى محمود أخو على بمرض الخفقان من شدة الخوف ومات فى أواخر عهد كيخاتو. وقد أحضر منصور بن علاء الدين عطا ملك من الحلة حيث كان آنذاك وقتلوه على جسر بغداد.

(١) الذهبى - تاريخ الإسلام.

(٢) حمد الله المستوفى - تاريخ گزیده ج١ - ٥٨٤.

(٣) وصاف - تاريخ وصاف ١٤٠-١٤٣.

(٤) المصدر السابق ، ص ١٤٣.

(٥) رشيد الدين - جامع التواريخ ج٢ ٣٢٦، نقلا عن مقممة القزوينى لجهان گشائى.

ويذكر صاحب تاريخ وصاف أنه زار تبريز في عام ٦٩٢هـ - ١٢٩٣م وزار مقابر شمس الدين وأخيه علاء الدين وأولادهما السبعة وهى فى جرنداب تبريز ونقل فى كتابه بعض الأشعار التى وجدها على قبورهم والتى أنشدها أحد فضلاء العصر حينذاك، ومطلعها :

يا جرناداب من مقابر تبريز - ز سقاك الحيا المثلث الهامى^(١)

وكان شرف الدين هارون بن شمس الدين يعد واحدا من أفاضل عصره وكان مجلسه مجمعا للعلماء والفضلاء فى كل فرع، وقد تزوج رابعة بنت ولى العهد أبى العباس أحمد بن المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين^(٢) وهى المعروفة بالسيدة النبوية، وأنجب منها أولاده الذين سماهم بأسماء الخلفاء العباسيين، وقد قتل فى جمادى الآخرة سنة ٦٨٥هـ - ١٢٨٦م بأمر من أرغون بن أباق^(٣)، وقد توفيت زوجته فى نفس يوم وفاته ولم يعلم أحد منهما بالآخر.

وتوفى بهاء الدين محمد بن شمس الدين فى عام ٦٧٨هـ إبان حياة والده، وكان حاكما على أصفهان ومعظم ولايات العراق العجمى فى أثناء حكم أباقا، ويذكر وصاف أنه كان مشهورا بالصرامة وقلة العفو وكثرة سفك الدماء^(٤).

وتزوجت إحدى بنات علاء الدين عطا ملك فى ٧١هـ - ١٢٧٢م بالإمام الجليل الشيخ صدر الدين أبو المجاشع إبراهيم بن الشيخ سعد الدين محمد بن المؤيد حمويه الجوينى الشافعى سنة ٧٢٢هـ، وهو الذى أسلم على يديه غازان خان بن أرغون بن أباقا سنة ٦٩٤هـ، وقد أسلم تبعا له جميع

(١) وصاف ١٤٢-١٤٣.

(٢) قتل مع والده وأخيه على يد هولاكو فى ٤ من صفر سنة ٦٥٦ - ١٢٥٨. براون، الترجمة العربية لتاريخ

الأدباء فى إيران، ج٢ - ٥٨٦.

(٣) حمد الله المستوفى - تاريخ غزبة ج٢ ص ٤٨٥.

(٤) وصاف ص ٦٠-٦٥.

أمراء وجيش المغول الذين يبلغ عددهم مائة ألف رجل، ومنذ ذلك التاريخ أصبح الإسلام هو الدين الرسمي للمغول في إيران بعد عبادة الأوثان.

وقد توفي الشيخ صدر الدين في عام ٧٢٢هـ - ١٣٢٢ إلى ١٣٢٣م بعد أن عاش منعماً في حكم غازان^(١).

والواقع أن هذه الأسرة تشبه في كثير من الوجوه أسرة البرامكة، فقد نالت من الرفعة والمناصب المهمة ما نالته أسرة البرامكة، وقد انتهت نهايتها، وكانت أسرة الجوينيين فضلاً عن حبها للأدب والأدباء وانخراطها في سلكه راعية للعلماء والفضلاء مثلها مثل أسرة البرامكة في عهد الخلفاء العباسيين. وقد أغدقوا عليهم الكثير من الجوائز فألفوا بأسمائهم تأليفات قيمة وخذل القراء المشهورون مدائحهم في دفاتر الأيام، وسأكتفي بذكر بعضهم كما ذكرهم القزويني في مقدمته^(٢) :

من بين هؤلاء الخواجة نصير الدين الطوسي ت ٦٧٣هـ، فقد ألـ رسالة بالفارسية أسماها "أوصاف الأشراف"، وهي في سير الأولياء وأسلوب السالكين، وقد ألفها باسم شمس الدين محمد الجويني، ثم قام بترجمة كتاب الثمرة لبطليموس^(٣) إلى اللغة الفارسية، وهو كتاب في النجوم، وقدمه إلى الخواجة بهاء الدين محمد بن شمس الدين الجويني، وذلك مذكور في مقدمة هذين الكتابين.

وثاني هؤلاء هو صفى الدين عبد المؤمن الأموى، وكان واحداً من أشهر الخطاطين وكان من نوابغ عصره في الموسيقى، بل وكان معدوداً ضمن أحسن الخطاطين مثل ابن مقلة وياقوت وغيرهما، وقد أثنى عليه ابن

(١) ابن تفرى بردى - المنهل الصافي ج ١ تحت اسم إبراهيم بن محمد.

(٢) القزويني - مقدمة جهان گشاي ج ١ ص : د.

(٣) يذكر القزويني أن ترجمة هذا الكتاب تمت في التاسع من جمادى الأولى سنة سبعين وستائة، وتوجد نسخة من هذا الكتاب في المكتبة الأهلية ببغداد، وقد كتبت هذه النسخة في ربيع الأول سنة ٦٧١هـ أى بعد عام واحد من ترجمة الكتاب - المقدمة ، ص هـ.

تغرى بردى فى ترجمته له كثيرا، وله فى الموسيقى تأليفات كثيرة، وقد التحق بخدمة هولاء بعد فتح بغداد، وضاعف له هولاء ما كان يتقاضاه من العباسيين بعد استماعه لأنغامه، وقرر له عشرة آلاف دينار سنويا من عوائد بغداد، ثم أضحى بعد ذلك واحداً من خاصة وندماء علاء الدين عطا ملك وأخيه شمس الدين الجوينى، وقد نصبوه فى منصب الإشراف على ديوان الإنشاء فى بغداد، إلا أنه توفى فى السجن فى ٢٨ من صفر سنة ٦٩٣ هـ بعد القضاء على الجوينيين، وقد ألف رسالة فى الموسيقى تعرف باسم "الرسالة الشرفية"، باسم شرف الدين هارون بن الخواجه شمس الدين الجوينى^(١).

وثالث هؤلاء هو كمال الدين ميثم بن على ت ٦٧٩ هـ، وقد ألف كتابه المعروف "شرح نهج البلاغة" باسم علاء الدين عطا ملك الجوينى.

ورابع هؤلاء نظام الدين الأصفهاني صاحب كتاب شرف إيوان البيان فى شرف بيت أصحاب الديوان ، وقد ألف هذا الكتاب كما يتضح من اسمه فى مدح هذه الأسرة، وهو كتاب يشمل مجموعة من القصائد والأشعار فى شمس الدين محمد الجوينى وأخيه علاء الدين ووالدهما بهاء الدين محمد. ومن الشعراء الذين كانوا معاصرين للأخوين الخواجه همام التبريزى^(٢) الذى ضمن ديوانه مدائح كثيرة لهما، وقد ألف باسم الخواجه شرف الدين هارون بن شمس الدين الجوينى منظومة على نسق خسرو وشيرين للنظامى الكنجوى أسماها صحبت نامه.

ويأتى الشيخ سعدى الشيرازى على رأس قائمة الشعراء الذين مدحوا

(١) ابن تغرى بردى - المنهل الصافى ج٢ حرف ع. وصاف ص ٤٣، ابن شاعر فوات الوفيات ج٢ ص ١٨-١٩.

(٢) هو مولانا همام الدين بن علاء التبريزى، وكان من أدباء أنريجان وشعرائها المشهورين وكان ماهرا فى فن الغزل على الخصوص، وتتبع آثار سعدى واعترف له برقة عباراته، ويحتوى ديوان همام التبريزى قرابة ألف بيت من الشعر، وتوفى بتبريز سنة ٧١٣ هـ. تاريخ الأدب فى إيران - رضا زادة - الترجمة العربية، صفحة: ١٥٥-١٥٦.

الجوينيين، وله في مدائحهم قصائد غراء^(١). ومن جملة هذه القصائد قصيدته في مدح علاء الدين عطا ملك الجويني^(٢) ومطلعها :

إن كل إنسان لا تتحد نظرتة وقلبه تجاه الأشياء

لا يمكن أن يعطى صورة حقيقية لأى شىء

وقد أثنى عليه فى هذه القصيدة ثناء عاترا فقال^(٣) :

يجب أن لا نحمل قصصا أو نتحدث إلا عن صاحب الديوان العالم العادل علاء الدولة والدين صاحب المنصب والسلطة سحاب الرأفة ومزن الرحمة العميم. إن كفه كريمة وعطاءه عميم فلا غرو إذا ما اختفى ذكر حاتم وأمثاله أمام كرمه ولطفه.

وله قصيدة أخرى مطلعها^(٤) :

إذا أراد شخص إن يشاهد أطيب الجنات فليأت وليشاهد أفضل البقاع، فهي بمنزلة الربيع من الفصول، إن البلبل الذى يشدو على الورود والرياحين إنما يدعو مثله مثل السندى للصاحب علاء الدولة والدين وزير المشرق والمغرب، أمير مكة ويثرب. إنه حفيظ أمين لا نظير له فى أية بقعة من البقاع.

لقد استقر الأمن فى عهده وساد الهدوء، فلا عجب إذا لم تعد نرى سوى أصحاب السواعد النضرة والعضد الفتى.

(١) تاريخ الألب فى إيران - الترجمة العربية، ص ١٤١.

(٢) هرادمى كه نظر بابكى ندارود

(٣) بهيج خلق نيابد كه قصه پردراى

سيهر منصب وتمكين علاء دولت دوين

كف كريم وعطاء، عميم أونه عجب

بصورتى ندهد صورتى است لا يعقل

مگر يصاحب ديوان عالم عادل

سحاب رأفت وباران رحمت وابل

كه ذكر حاتم وأمثال أوكند باطل

رابيا مطالعه كن كوينهوبهارزمين را

(٤) أكر مطالعه خواهد كسى بهشت برين

ومنها فى مدحه :

هزارد ستان برگز سخرى جو سعدي

وزير مشرق ومغرب أمير مكه ويثرب

بعهد ملك وى اندر نمائند دست تناول

دعاى صاحب عادل علاء دولت ودين را

كه هيچ ملك ندارد چو حفيظ وامين را

مگر سواعد سيمين وبازوان سمين را

م - آثار عطا ملك

ترك علاء الدين عطا ملك بالإضافة إلى جهان گشای رسالتين أخريين، تُعرف الأولى باسم تسليية الإخوان^(١)، وهي رسالة تحوى تفاصيل كثيرة عن المصائب والمحن التى تعرض لها فى أخريات أيامه على يد مجد الملك اليزدى منذ بداية عام ٦٨٠هـ حتى خلاصه من السجن بأمر من أباقا خان فى الرابع من رمضان سنة ٦٨٠ هـ. وهذا يدل على أن هذه الرسالة قد كتبت بعد هذا التاريخ، وتوجد نسخة من هذه الرسالة فى المكتبة الأهلية بباريس^(٢).

(١) يذكر كترمير Quatremere فى كتابه Mines de l'orient كنوز الشرق، أن هذه الرسالة كتبت باللغة العربية، ويعلق القزوينى على ذلك بقوله : إن كترمير لم يواصل هذه الرسالة ولهذا حكم هذا الحكم الخاطئ، ذلك أن هذه الرسالة والرسالة الثانية قد كتبتا باللغة الفارسية المحلاة بالأشعار والأمثال العربية (انظر الملحق رقم ٣٢٢). ويذكر القزوينى أيضا أن شيفر قد قرأ هذا الاسم تثليث الإخوان "Les trente des freres" وهذا خطأ بدوره، ذلك أن شيفر لم يعلم أن هذه الرسالة هى نفس رسالة تسليية الإخوان الملحقة بأخر إحدى نسخ جهان گشای كان يمتلكها (وهى الآن فى المكتبة الأهلية بباريس) والتى قال عنها إنها من تأليف شمس الدين الجوينى وأسمائها تبصرة خازن، وقد كتبها لأولجاي خاتون "زوجة أباقا" شارحا فيها أحواله للتوسط لدى زوجها للعفو عنه.

(٢) هذه الرسالة ملحقة بالنسخة ج من نسخ جهان گشای وتشمل هذه النسخة على ٢٤٦ ورقة ينتهى متن جهان گشای عن الورقة ٢١٨ وتحوى الأوراق الباقية ثلاث رسائل، الأولى كتبها نصير الدين الطوسى تذيلا لجهان گشای عن فتح بغداد على يد هولاكو من الورقة ٢١٨ إلى ٢٢٠، والثانية رسالة تسليية الإخوان من ٢٢٠ إلى ٢٣١. والثالثة فى تاريخ الدولة السلجوقية وهى اختصار لكتاب راحة الصدور لابن الرواندى وهى من ٢٣١ إلى ٢٦١. القزوينى مقدمة جهان گشای.

ويقول القزوينى أيضا: والدليل على أن هذه الرسالة هى تسليية الإخوان... وأشار كثيرا إلى مضامينها أو إلى كثير من الأبيات الموجودة فيها، فيقول فى الرسالة الثانية الورقة ٣ جون ودر رسالة تسليية الإخوان: "إن أحوال تصاريف شمه اعلام رفته است واذ عتب ان نواخت ومرحمتى كه بتدىكى لبلخان فرموده بزيان أقلام كفته". ثم إن موضوع رسالة تسليية الإخوان هو نفس هذا الموضوع دون زيادة أو نقصان. ويقول فى الرسالة الثانية أيضا الورقة (١٢):

"أى دل بابياتى كه در تسليية الإخوان ایراد كرده برزانت وثبات خودرادر آفاق مشهورة كرده وآز جمله آن آبيات اين دوسه است :

والرسالة الثانية لا عنوان لها^(١)، وهي مقدمة للرسالة الأولى، فالأحداث فيها تسير بلا فاصلة، وقد استمرت وقائعها حتى اعتلاء السلطان أحمد العرش وقتل مجد الملك اليزدى، وتم تأليف هذه الرسالة قبيل وفاة المؤلف بستة أشهر تقريبا وهي آخر أثر من آثاره.

جیوش الحانثات عزمن امرا
تري منى فؤادا مستقرا
جعلت عزيمتى للصبر آزرا

ترانسی ثابتا جاشا اذا ما
إذا دکت جبال الصبر دکا
وإن شاهدت فی صبری فتورا

لكنون شاید كويندت ع، بیک حمله برکشتی از کارزار، ونامت ننگ کردو درمیان ابناء روزگار.
انتهی باختصار، أى أنه يجوز أن يقول لك إنك قد عدت من المعركة مرة واحدة وتلطخ اسمك بالعار بين أبناء الزمان.

ويقول القزويني : وفى الحقيقة إذا كانت النسخة التى بين أيدينا لتسليّة الإخوان، لا تحوى هذه الأبيات بعينها فإن مطلع هذه القصيدة مع بيتين آخرين قد ذكرت فيها، وما هو يخاطب أخاه شمس الدين (تسليّة الإخوان ٢٢٧) :

فلا تك فى ضيق أفديك صدرا
أرى لله فى ذا الأمر سيرا
فقد ما رسمته عمرا وبمرا

لئن نظر الزمان إلى شذرا
وكن بالله ذا ثقة فإبى
زمان إن رماتى لا أبالى

وقد ذكرت هذه للقصيدة كاملة فى وصاف ١٠١-١٠٢.
ومما يؤيد أن هذه الرسالة لعطا ملك أيضا ما نعلمه من التاريخ من أن عطا ملك هو الذى ابتلى بمجد الملك وليس أخاه شمس الدين.

ويقول أيضا فى الورقة ٣٥ : غرض أزين مقمّة آنست كه جون در رساله تسليّة الإخوان دعوى اعتزال وانز واكردم وغزيمت رغبت متوجه بجانب جلال وكبريا نموده ير خلاف آن نيت مباشرت امور دنيا نمودن وممارست مهام ديوانى كردن بحقيقت ويقين نقض سيحان است... الخ.

وهذا ييمان والمضمون الذى تعبر عنه تسليّة الإخوان فهو يقول فى رسالة تسليّة الإخوان بعد أن شرح خلاصه من الأسر، الورقة ٢٥ : اكونون جون مساعدت سعادت ومواقف توفيق باشد چنانكه در خاطر را سخ است ودر نيت ثابت:

پس ازین گوش ما وحلقه بار

بعد از دست ما ودا من دوست

هیهات هیهات بعد ازین ع من از کجا سخن سر مملکت زکجا؟ لنزور واعتزال را که اختیار رفته است ، شعار حال و دثار بال خویش خواهد کردانید و خود مدت عمر اگر تأخیر کشد توان دانست تا چند باشد.

(١) هذه الرسالة موجودة فى بداية النسخة زمن جهان كشای من الورقة (١) إلى (٤١)، وهذه النسخة ناقصة فهى لا تحوى المجلد الأول والثالث والأول من المجلد الثانى، وتبدأ بالمعبرة للتالية بس أى يار موافق ودوست متفق درین معانى کار شبیه دارى.

ن - جهان گشای

يقع الكتاب في طبعة سلسلة جب في ثلاثة مجلدات^(١)، ويرجع هذا الرأي الأدلة الآتية:

أولا : إضافة الفصل المختصر الذي كتبه خواجه نصير الدين الطوسي لفتح بغداد إلى نهاية الجزء الثالث الذي ينتهي بالقضاء على الإسماعيلية في الموت والحديث عن آخر حكامهم ركن الدين خورشاه، وجعله ذila لجهان

(١) اختلف الباحثون حول وضع ترتيب جهان گشای، فمنهم من يرى أن للكتاب يقع في أربعة مجلدات، ومن هؤلاء بلوشيه الذي اعتقد أن الرسالة الثانية من رسائل عطا ملك ما هي إلا جزء من أجزاء جهان گشای (ويذكر القزويني في مقدمة الجزء الأول أن بلوشيه ذكر هذا الرأي في فهرسه الخاص بالنسخ الفارسية الموجودة بالمكتبة الأهلية ببائيس من ٢٧٨ إلى ٢٨٧. وقال في صفحة ٢٧٩: ويشتمل المجلد الرابع من جهان گشای على الأحداث والوقائع التي حدثت في مملكة المغول بإيران حتى عام ٦٨١هـ). ويعلق القزويني على هذا الرأي بقوله : وهذا سيو واضح، ذلك أن المجلد الثالث من جهان گشای ينتهي بفتح قلاع الإسماعيلية والقضاء عليهم في عام ٦٥٥هـ. ومنذ هذا التاريخ حتى وفاة أباخان و جلوس السلطان أحمد على العرش في عام ٦٨١هـ ما يقرب من ستة وعشرين عاما لم تذكر هذه الرسالة شيئا من أحداثها، وكل ما هو موجود بها إنما يتصل بحياة عطا ملك وبالأحداث التي مرت به في أواخر أيامه ، النصف الأولى من سنة ٦٨١هـ. وما ذكره عطا ملك عن جلوس السلطان أحمد على العرش بعد وفاة أباخان والذي استغرق صفحتين أو ثلاثا من الرسالة لم يذكر لذاته وإنما لتوضيح بعض أحداث حياته. وإذا كانت هذه الرسالة هي الجزء الرابع من جهان گشای فما العلة التي يمكن تصورها لترك علاء الدين للأحداث والوقائع الأخرى التي حدثت بعد القضاء على الإسماعيلية والانتقال فجأة إلى الحديث عن أباخان خان وتولية السلطان أحمد مقاليد الحكم من بعده؟ وكيف يمكن له غرض الطرف عن أحداث تلك الفترة الطويلة؟

وإذا افترضنا أن هذه الرسالة جزء من أجزاء جهان گشای فإنها لا يمكن أن تكون المجلد الرابع، وإنما يمكن اعتبارها المجلد الخامس أو السادس للكتاب، ويكون الجزآن اللذان تضمنا أحداث تلك الفترة قد ضاعا ولم يعثر لهما على أثر، وأعتقد أن حدوثه أمر مستبعد.

وربما كان السبب الذي أدى ببلوشيه إلى هذا القول ما هو مذكور في نهاية هذه الرسالة، تمت كذا الكتاب المرسوم بتاريخ جهان گشای جويني (كذا) بعون الله وتوفيقه.

ويبدو أن النسخة التي نقلت عنها هذه الرسالة قد ذكرت بها بعد جهان گشای مباشرة. ويقول القزويني إن كاتب هذه النسخة كان على درجة كبيرة من الجهل والأمية، بل على ذلك أخطاؤه الكبيرة في كتابتها. ونتيجة لجهله هذا فقد تروم أن هذه الرسالة جزء من جهان گشای.

غشاي، وثابت تاريخيا أن الطوسي كان ملازماً لهولاكو والجويني في أثناء فتح قلاع الإسماعيلية وفتح بغداد، ويوجد هذا المختصر في ثلاث^(١) فقط من نسخ الكتاب الثلاث عشرة، وعلى الرغم من هذا فإذا كان عطا ملك قد دون الحوادث بعد القضاء على الإسماعيلية وأحوال ركن الدين "خورشاه" آخر حكامهم تكون إضافة هذا الذيل أو المختصر إلى نهاية المجلد الثالث أمراً لا محل له.

ثانياً : يقول صاحب تاريخ وصاف^(٢) : إن تاريخ جهان غشاي للجويني هو كأس الدنيا التي تظهر المعاني في وضوح وجلاء يشتمل على أحوال دولة المغول والسلاطين الآخرين، وملوك البلاد الأخرى الذين كانوا معاصرين لحكمهم منذ بداية خروج السلطان فاتح العالم حنكيز خان حتى وقت فتح بلاد أهل الإلحاد على يد الموابك الغفيرة لهولاكو خان.

ومن هذا نرى أن وصاف قد حدد تاريخ جهان غشاي منذ ظهور جنكيز خان حتى القضاء على الإسماعيلية.

ثالثاً : إن صاحب تاريخ وصاف يعتبر كتابه ذيلًا لتاريخ جهان غشاي^(٣)، ويوضح ذلك صراحة في مقدمته، ويبدأ كتابه بالحديث عن فتح بغداد ٦٥٦هـ وينتهي بأحداث سنة ٧٢٨ هـ، أي أنه يبدأ حيث انتهى المجلد الثالث من الكتاب، فإذا كان الجويني قد دون الأحداث التي حدثت بعد عام ٦٥٥ هـ لكان لزاماً على وصاف أن يبدأ حيث انتهى الجويني لا من عام ٦٥٦ هـ كما بدأ.

(١) - النسخة ج، ويرجع تاريخها إلى عام ٦٨٩ هـ.

ب- النسخة ل، ويرجع تاريخ كتابتها إلى ١٥ من شوال وتقع في ٢٣٦ ورقة.

ج- النسخة م، وهي نسخة جديدة بتاريخ ١٣٤٣ هـ. بخط مجتبى مینوی وتحتوي المجلد الثالث وقد كتبها عن نسخة جديدة بتاريخ ١٣٠٣ هـ، وهي بدورها منقولة عن نسخة أخرى يرجع تاريخها إلى ٦٩٨ هـ.

(٢) تاريخ وصاف ٤.

(٣) تاريخ وصاف ٦.

وقد لخص وصاف المجلدات الثلاثة وألحقها بنهاية الجزء الرابع من كتابه وأنهاه بها^(١).

ومنهم من يرى أن الكتاب يقع في مجلدين لا ثلاثة، ويعتبر المجلدين الأول والثاني الحاليين مجلدا واحدا، ومن هؤلاء كاترمير^(٢) في أثناء حديثه عن حياة عطا ملك ودوسون في كتابه تاريخ المغول^(٣)، وهورث Howorth^(٤) في مقدمة كتابه.

ولعل السبب في هذا يرجع إلى اطلاع كاترمير ودوسون على نسخة جهان گشای التي كانت موجودة آنذاك بالمكتبة الأهلية ببافيس والتي لا تفصل بين المجلدين الأول والثاني. وكتب في نهايتها: تمام شد مجلد أزجهان گشای جوينی والله الحمد.

ولهذا اعتبر المجلد الثالث ما هو إلا المجلد الثاني للكتاب.

وبالنسبة إلى هورث Howorth فقد ألف كتابه بعدهما بفترة، ومن الجائز أن يكون قد اطلع على كتاب أحدهما فتابعه في الرأي أو اطلع على نفس النسخة التي اطلعا عليها.

ولم ينته براون إلى رأي محدد وإن ذكر في كتابه "تاريخ الأدب في إيران" أن الكتاب يقع في ثلاثة مجلدات^(٥) وإن كان قد ناقش هذا الموضوع قبل ذلك وقام بدراسة مقارنة بين نسخ الكتاب المختلفة^(٦) ووجد أن بعضها يذكر الكتاب في مجلدين وأخرى في ثلاثة. وقد اطلعت على بعض النسخ

(١) وصاف من ص ٥٥٨ إلى ٥٩١ : تهران ١٣٣٨.

(٢) Mines de le Orient 222-234, 1809 .

(٣) الترجمة التركية موغول تاريخى مصطفى رحى ٤، إستانبول ١٣٤٠.

(٤) The History of the Mongols P. XXV-1, London 1927 .

(٥) براون - تاريخ الأدب في إيران ج٢ للترجمة العربية ، ص : ٦٠٠ .

(٦) J.R.A.S. Jen 1904 : Notes on the contents of Tarih-i-Gihan Cushei .

الموجودة فى المكتبات التركىة ووجدتها كما ذكر براون وكما شرحها
القزوينى فى مقدمته، فأغلب النسخ تقع فى ثلاثة مجلدات، عدا ثلاث نسخ^(١)،
وإن كانت النسخة قد جمعت بين المجلدين الأول والثانى وكتبت فى نهاية
المجلد الأول الحالى "تمام شد از تاريخ جهان گشای"، وكتب فى نهاية المجلد
الثانى الحالى : "تمام شد جلد أول بعون الملك الأجل".

وبالإضافة إلى النسخ التى جمعت بين المجلدين نجد شواهد أخرى تؤيد
الرأى القائل بأن الكتاب يقع فى مجلدين اثنين فقط ومن ذلك قول عطا ملك
نفسه فى بداية المجلد الثالث الحالى:

نظراً إلى أنه قد سُجِّلَتْ فى المجلد السابق أحوال جنكيز خان وسيطرته
على الأقاليم المختلفة، وجلس القا آن وكىوك خان والوقائع التى حدثت فى
عهدهما حسبما هو معروف وذكر فيه أحوال سلاطين خوارزم وغيرهم من
ملوك الأمصار على قدر ما هو معلوم منذ بداية أمره حتى انتهاء عصر كل
منهم، الآن نتحدث فى المجلد الآخر عن جلوس سلطان العالم منكوقا آن
والأمور والأحوال التى حدثت وتحدث فى عهده، وعن تحرك الأمير هولاکو
إلى البلاد الغربىة، وعن كىفیه أحوال كل واحد من ملوك العصر وحكام
الزمان الذين أعلنوا الطاعة أو أثروا العصيان منذ بداية ذلك حتى نهايته^(٢).

مما سبق يتضح أن المؤلف نفسه يعتبر المجلدين الأول والثانى
الحاليين مجلدا واحدا والمجلد الثالث الحالى هو المجلد الآخر للكتاب وأعتقد
أن فى هذا فصل الخطاب.

يضاف إلى هذا أن المؤلف لم يبدأ المجلد الثانى الحالى بمقدمة كما فعل
بالنسبة إلى المجلد الأول والمجلد الثالث.

(١) نسخ : د ه - و .

(٢) الجوينى ج ٣ ص ٢ .

ويتساءل القزويني^(١): كيف يمكن الجمع بين هذه القرائن المتناقضة؟ وما السبيل للتوفيق بينها؟

ويجيب: "ويعتبر لي أن المؤلف قد وضع الكتاب في مجلدين اثنين فقط، وأن النسخ فيما بعد ونظرًا إلى ضخامة المجلد الأول بالنسبة إلى المجلد الآخر ولتأريخه لطبقتين متباينتين من السلاطين: المغول والخوارزمشاهية، قد آثروا الفصل بين الاثنين فخصصوا المجلد الأول للحديث عن الخوارزمشاهية، وكتبوا الكتاب في مجلدات ثلاثة.

واعتقد أننا في غنى عن هذا التساؤل، فكلام الجويني واضح لا لبس فيه.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو :

لماذا غفل المؤلف عن الأحداث التي وقعت بعد عام ٦٥٥هـ؟ وهل دونها وفقدت؟

تؤكد الدلائل التي بين أيدينا أن الكتاب انتهى بذكر أحداث عام ٦٥٥هـ - ١٢٥٧م، وسبق توضيح ذلك، لكن الجويني يقرر في ديباجة المجلد الأول أن هدفه من هذا التأريخ تخليد المآثر العظيمة والمفاخر الحميدة للسلطان منكوقا أن، إلا أنه لم يكمل الحديث عن منكوقا أن، واكتفى بذكر الوقائع الأولى التي حدثت في عهده.

نتيجة لهذا لا يزال التساؤل قائماً، وقد حاول الباحثون الإجابة عليه فنذكر هورث Howorth^(٢) أن مهام منصبه الذي تولاها - وهو حكم بغداد - حالت بينه وبين إتمام هذا العمل، وأجاب القزويني نفس الإجابة.

(١) القزويني : مقدمة جهان گشای.

(٢) The History of the Mongols v.I XX

ولكنى أتساءل: لماذا لم يحدثنا الجوينى عن فتح بغداد وقد شاهد أحداث هذا الفتح؟

إنه لم يتولَّ أمر بغداد إلا بعد عام من هذه الواقعة، هل اكتفى بما كتبه نصير الدين الطوسى عنها وهو رفيقه فى أثناء الفتح، أم كتب وقد ما كتب؟ ليس بين أيدينا حتى الآن ما يجيب على ذلك .

وقد تناول الجوينى فى تاريخه الموضوعات الآتية موزَّعة حسب وضعها الحالى على ثلاثة "مجلدات":

المجلد الأول :

يبدأ المجلد الأول بمقدمة طويلة تبدأ بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يتحدث عن التحاقه بالخدمة السلطانية فى بلاط منكوقا آن سنة ٦٥٠هـ، واعتبار ذلك سعادة ما بعدها سعادة، فيفيض فى مدحه ويتحدث عن عدله ورجاحة عقله وكيف أشار عليه جمع من الأصدقاء الأوفياء وإخوان الصفاء بتأليف هذا الكتاب لتخليد مآثر هذا السلطان، ويتطرق من ذلك إلى الحديث عن العلم والعلماء فى هذا الزمان واضطراب الأحوال فيه، ثم يبين عدم مواصلته فى تحصيل العلوم مخالفاً بذلك نصيحة والده، ويعلل ذلك بالتحاقه بالخدمة وانشغاله بالأعمال الديوانية قبل أن يصل إلى العشرين من عمره.

ويوضح بعد ذلك بداية تأليف الكتاب، ويذكر أنه كان حينذاك فى السابعة والعشرين من عمره، وكيف أنه أتاحت له ظروف وأسباب مكتنته من تأليف هذا الكتاب الذى يضعه بين أيدي القراء والتاريخ طالباً منهم أن يكونوا معتدلين فى نظرتهن إليه لا يغالون فى مدحه ولا يتطرفون فى القدر فيه.

ثم يبين أهدافه من هذه الحكايات وأنها لتحقيق أمرين، الأول دينى والآخر دنيوى.

فيحاول أن يصور هذه الأحداث التي شملت جل العالم على أنها إرادة إلهية لا مفر منها، وأن ما أصاب العالم الإسلامي من جراء هذا الغزو لم يكن إلا جزاء وفاقا لما ارتكبه من آثام، وربما كان ما حدث خيرا، وأنه تحقيق للأحاديث النبوية التي أشارت إلى ذلك، مثل الحديث النبوي القائل : "إن الله ليؤيد هذا الدين بقوم لا خلاق لهم". ثم يذكر تفسير صاحب الكشاف للآية : "قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم"^(١). ثم يورد الحديث النبوي الذي ذكره الزمخشري في تفسيرها وهو القائل : سألت الله أن لا يبعث على أمتي عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطاني ذلك، فسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني، وأخبرني جبريل أن فناء أمتي بالسيف^(٢).

بعد هذه الديباجة يبدأ تاريخه بفصل عن أحوال المغول وعاداتهم قبل ظهور جنكيز خان وتوحيدهم بنهيه الدعاء لجنكيز خان وأرومته بعامّة ولمنكوقا آن بصفة خاصة، وهذا الفصل مختصر، كان من الواجب أن يفيض فيه، ولعل عدم اطلاعه على وثائق من تلك الفترة أو عدم التقائه بمن رأوا أحداثها رأى العين هو السبب في ذلك، والفصل رغم اختصاره يعطى فكرة لا بأس بها عن أحوال المغول الأولى، وربما كان السبب الذي دعاه إلى ذلك الاختصار حرصه على أن يكون تاريخه للفترة التي بدأت بظهور جنكيز خان على مسرح الأحداث، وهي الفترة التي يستطيع الوقوف على أخبارها ممن رأوها رأى العين.

ثم أفاض في الحديث عن القوانين التي وضعها جنكيز خان قبل خروجه للغزو، وهي التي تعرف بالياسا، ودور هذه القوانين في إدارة البلاد عسكريا ومدنيا لا يمكن إبعاده عما حققوه من انتصارات، ويعتبر ما أورده الجويني عن هذه القوانين أوفى ما ذكر عنها في المصادر التاريخية المختلفة.

(١) سورة الأنعام ، الآية ٦٥ .

(٢) الجويني، ج١، ص ١ إلى ١٦ .

وتحدث بعد ذلك عن حروب جنكيز خان فى المنطقة المغولية وانتصاره على أونك خان زعيم قبيلة الكرايت حاميه وحليفه منذ البداية، وما نتج عن ذلك من انصواء للقبائل الأخرى تحت رايته، ومحاربة المعارضين له.

وبعد ذلك أفرد فصلا خاصا للحديث عن الأويغور وحاكمهم الذى كان يلقب بإيدى قوت، و يذكر القزوينى أن هذا الفصل فى غاية الأهمية^(١)، وربما كان السبب فى تلك الأهمية أن الجوينى أول من ذكر تلك الأخبار عنهم.

ودلف من ذلك إلى الحديث عن فتوحات جنكيز خان الخارجية فى بلاد ما وراء النهر وإيران، مبينا أسلوب القتل والفتك والدمار الذى سلكه فى فتوحاته، إلا أنه لم يعال السر فى ذلك رغم تحليله للأحداث التى ذكرها فى كتابه، ورغم أن التحليل للأحداث ومسبباتها هو أهم ما يميز كتابته التاريخية. ثم يبين قضاءه على دولة الخوارزمشاهيين والوقائع التى خاضها فى سبيل ذلك حتى وفاته من عام ٦١٥هـ إلى ٦٢٤هـ، ثم تحدث عن تولى أوكتاى قا آن للسلطة ٦٢٦هـ إلى ٦٣٩هـ وتحدث بالتفصيل عن جوده وعطفه على الناس، ثم انتقل إلى الحديث عن تولى توراكيئا خاتون للحكم والأحداث التى حدثت فى عهدها، وقد استمر حكمها من سنة ٦٣٩ إلى ٦٤٣هـ ثم تولى الحكم من بعدها ابنها كيوك خان بن أوكتاى قا آن سنة ٦٤٣هـ إلى ٦٤٤هـ، ثم تحدث عن أحوال أوغول غايش خاتون زوجة كيوك خان وعن أولاده، ثم أعقب ذلك بفصلين غاية فى الاختصار عن تاريخ توشى (جوجى) وجفتاى ابنى جنكيز، واختتم بهما المجلد الأول فى سلسلة جب.

(١) القزوينى - مقدمة جهان گشای ص : قا.

المجلد الثانى :

يبدأ المجلد الثانى - دون مقدمة كما سبق القول - بالحديث عن نشأة السلاطين الخوارزمشاهيين وعن بداية تكوين دولتهم ابتداء من آتسز ثم أيل أرسلان ابنه ثم سلطانشاه بن أيل أرسلان فتكش ابنه ثم يتحدث عن جلوس السلطان محمد خوارزمشاه ومحاربته للغوريين وانتصاره عليهم واستيلائه على بلادهم، ثم ضعف أموره واحتلاله فى النهاية وخلافه مع الخليفة العباس الناصر لدين الله بن العباس أحمد، ثم يتحدث عن القره ختائين الذى حكموا فى بلاد ما وراء النهر وتركستان الشرقية أى من حدود نهر جيحون حتى كاشغر وختن وبلاساغون. وقد امتد حكمهم ما يقرب من خمسة وتسعين عاما منذ عام ٥١٢ حتى ٦٠٧هـ. وتحدث أيضا عنهم وكان حديثه مفصلا، ثم ذكر ملوك الطوائف الترك المعروفين باسم الإيلىك خانيه أو آل خاقان أو آل أفراسياب - حسب اختلاف تعبير المؤرخين - الذين حكموا فى بلاد ما وراء النهر وتركستان بعد انهيار الدول السامانية وقبل سيطرة المغول على تلك النواحي، وكان عدد من السلاطين الخوارزمشاهيين قد قبلوا دفع الجزية لهم سنويا، ويذكر القزوينى أن هذا الفصل فى غاية الأهمية^(١). ثم انتقل إلى الحديث عن السلطان جلال الدين وكان حديثه عنه أكثر تفصيلا فتناول بداية ولايته السلطة ثم محارباته المختلفة مع المغول وتعقب المغول له وانتهاء أمره.

ثم أورد فى نهاية هذا المجلد حديثا عن تاريخ الحكام والشحنه المغول من عهد أوكتاى قا آن حتى وصول هولاكو إلى إيران سنة ٦٢٦ إلى ٦٥٣هـ مثل جنتمو ونوسال وكركوز والأمير أرغون مع شرح تام لهم ولأحوالهم، واختتم هذا المجلد بالحديث عن أحوال شرف الدين الخوارزمى.

(١) القزوينى - مقدمة جهان گشاي ص : ق ب.

المجلد الثالث :

يبدأ هذا المجلد بمقدمة قصيرة ذكر فيها ما سطره في المجلد الأول من أحداث وما سيذكره في هذا المجلد الآخر وتقع في صفتين، بدأ بعدها الحديث عن ألغ نوين^(١) وسرقويتى بيكى^(٢)، وقد مهد بحديثه عنهما للانتقال إلى الحديث عن تولى منكوقا أن السلطة فتناول جلوسه على العرش سنة ٦٤٩هـ والأحداث الأولى التى وقعت فى بداية أيامه، ثم انتقل إلى الحديث عن تحرك هولالكو إلى البلاد الغربية سنة ٦٥٣ هـ وفتح قلاع الملاحدة، وخصص فصلا ذكر فيه النسخة الأولى لمعاهدة فتح آلموت وقرار تسليمها، ثم تحدث عن مذهب الباطنية والإسماعيلية، وعن الخلفاء الفاطميين بعامه والخلفاء الفاطميين بمصر، ثم تحدث حديثا مفصلا عن الحسن الصباح وتجديده لدعوة الملاحدة وتسميتها بالدعوة الجديدة، على حد تعبيره فى بعض النسخ الخطية التى رآها القزوينى، وانتقل بعده للحديث عن حكم كيا بزرك أميد وتعاقب الحكام حتى آخر حكامهم المعروف باسم ركن الدين خورشاه الذين تم القضاء عليهم فى عهده عام ٦٥٥هـ، وقد استفاد علاء الدين فى هذا المجلد كثيرا من الكتب التى وجدها فى مكتبة قلعة آلموت بعد التصريح له بذلك، وأسلوب هذه الفصول يختلف عن بقية أسلوب الكتاب^(٣).

(١) ألغ نوين : معناها الأمير الكبير ، وهو الابن الأكبر لتولى خان بن جنكيز ، وقد أوضح فيها عدم أحقيته السلطان وفقا للقوانين المغولية التى تمنحها للابن الأصغر من الزوجة الكبرى.

(٢) وهى زوجة تولى خان وأم أولاده الأربعة منكوقلاى وهولالكو وأريق بغا.

(٣) يذكر تقى بهار سبك شناس ج٣ ص ٩٣ وما بعدها أن أسلوب الفصول الخاصة بالقرامطة ومذهب الباطنية والفصل الخاص بالحسن الصباح وغيره ليس شبيها بأسلوب عطا ملك وأن بعض جمل هذه الفصول منقولة عن أصل كتاب سرگزشت شت سيندا. أما القسم الخاص بالقدح فيه والرد عليه فهو بأسلوب عطا ملك الجوينى.

س - تاريخ تأليف الكتاب :

يستفاد من دراسة تاريخ حياة عطا ملك أن الكتاب لم يؤلف في سنة أو سنوات منتظمة وذلك بسبب مشاغله وأسفاره العديدة التي لازم فيها الأمراء المغول والتي لم تكن تتركه مستقرا في مكان أو متفرغا لأداء هذه المهمة، فكان يختلس أوقات فراغه لتكوين بعض أحداث كتابه، وهذا ثابت في ديباجة المجلد الأول، وصرح بذلك في بعض صفحات الكتاب، يقول^(١) بعد أن أشار إلى نفسه: "جه مگر در أسفار بعيد يك ساعت اختلاسی ميکند وأن حكايات راسوادی می نویسد".

"... إلا أن يختلس في الأسفار البعيدة وفي وقت نزول القافلة واستراحتها ساعة من الوقت يدون فيها هذه الحكايات".

أو ربما كان هذا هو السبب في وجود بعض فجوات في الكتاب تركها إلى حين التأكد من أحداثها والرجوع إليها فلم تتح له الفرصة لتحقيق ذلك. ومن هنا ندرك أن الكتاب كتب على فترات متباعدة، ومما يؤيد ذلك أيضا أن المؤلف في ديباجة المجلد الأول والمجلد الثالث يصرح بأن منكو قا آن كان في أثناء كتابة هاتين المقدمتين لا يزال على قيد الحياة، وقد حدثت وفاته في عام ٦٥٦هـ^(٢) أو أوائل سنة ٦٥٧هـ^(٣) أي ١٢٥٨م أو ١٢٥٩م، ونراه يصرح أيضا بعد حديثه عن الاستيلاء على سمرقند وبخارى أو تخريبها فيقول^(٤) بأنه في هذا الوقت من شهور سنة ثمان وخمسين وستمائة قد استعادت بعض هذه البقاع عمارتها ونضارتها وأوشك بعضها على الاقتراب من ذلك. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نراه في المجلد الأول يمجّد والده في موضعين ويدعو له بالبقاء، وقد توفي والده في عام ٦٥١هـ

(١) مقدمة الصحيح من فذ - فة.

(٢) تاريخ وصاف، ص ١١ تهران ١٣٣٣.

(٣) حمد الله المستوفى - تاريخ گزیده ٥٧٩ - براون . وصرح رشيد الدين - جامع التواريخ ج ٢ بلوسنيه ٣٣٥. بأن وفاة منكو قا آن قد حدثت سنة ٦٥٥هـ أو أوائل سنة ٦٥٦هـ.

(٤) الجويني ج ١، ص : ٧٥.

كما صرح هو بذلك^(١)، فيقول في الموضع الأول: "لا زالت دوحة الفضل بمكانه ناضرة وعيون المكارم إليه ناضرة"^(٢)، ثم يقول: "مد الله في عمره مدا وجعل بينه وبين النوائب سدا"^(٣).

وهذا التاريخ هو أقل التواريخ المذكورة في الكتاب أو المشار إليها، وعلى هذا يكون الكتاب قد بدأت كتابته في عام ٦٥٠هـ أو بداية ٦٥١هـ.

وبمقارنة التواريخ المذكورة أو المشار إليها في الكتاب يمكن استنباط ما يلي:

أولاً: أن المؤلف قد بدأ كتابة تاريخه ٦٥٠هـ - ١٢٥٢م في أثناء وجوده في قراقورم في بلاط منكوقا آن، ذلك أن وصوله إلى البلاط كان في عام ٦٥٠هـ، وقد ذكر صراحة في مقدمة المجلد الأول^(٤)، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أشار فيها أصدقائه إلى تخليد المآثر العظيمة وتدوين تاريخ منكوقا آن.

ثانياً: ما أورده من أخبار عن وجود والده على قيد الحياة يحتم أن تكون كتابتها لا تتجاوز رجب أو شعبان سنة ٦٥١هـ، فقد توفي بهاء الدين في ذلك التاريخ^(٥).

يضاف إلى هذا أن المؤلف وفقاً لأصدق الآراء قد ولد في عام ٦٢٣هـ وأنه بلغ السابعة والعشرين من عمره حين بداية تأليف هذا الكتاب^(٦)، وعلى هذا تكون المقدمة قد بدأ في تأليفها في عام ٦٥٠هـ أو ٦٥١هـ، ويذكر بعد ذلك بقليل أنه قد بلغ الثلاثين من عمره:

(١) الجويني ج٢، ص ٢٠.

(٢) المصدر السابق ج١ ص ١٠٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٦ - ٢٠ - ٢١ من المقدمة.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٠.

(٥) المصدر السابق، ج١ ص ١٠٠.

(٦) المصدر السابق، ج١، ص ١٠٠.

واسفا لقد انقضى العمر فجأة وتجاوز هذا العمر العزيز الثلاثين

وهذا يؤكد أن المقدمة بدورها لم تُكتب في فترة واحدة.

هذا من ناحية بداية التأليف.

ع - تاريخ نهاية تأليفه :

آخر التواريخ المذكورة في الكتاب شهور سنة ٦٥٨هـ^(١)، وإن كان كاترمير يقول إن آخر تاريخ ذكر في جهان گشای هو عام ٦٦٥هـ، ولم أعتز في نص الكتاب على هذا التاريخ، ويبدو أن صاحب هذا الرأي قد بناء نتيجة اطلاعه على نسخة خطية أخرى للكتاب، وقد ناقش القزويني هذا الرأي وانتهى إلى أن التاريخ خطأ وتصحيحه هو عام ٦٣٣ هـ، ذلك أن الحادثة التي ذكر بها هذا التاريخ قد حدثت في عهد جنتمور في أثناء ولايته أمر خراسان ومازندران، وقد توفي جنتمور في عام ٦٣٣هـ^(٢)، وعلى هذا يكون من المستحيل حدوث هذه الواقعة عام ٦٦٣هـ^(٣).

ووفقا لهذا يكون تأليف الكتاب محصوراً بين عامي ٦٥٠-٦٥١هـ — حتى عام ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م ولم يعاود الكتابة بعد ذلك نظراً إلى مشاغله العديدة في منصبه الجديد كحاكم للعراق.

(١) الجويني ، ج١ ص ٧٥ .

(٢) الجويني ، ج٢ ص ٢٣٤ .

(٣) القزويني ، مقدمة ج١ ص .

المجلد الأول من تاريخ جهان كُشای

الشكر والثناء للمعبود واجب الوجود المسجود له، فوجوده واهب أنوار العقل والجود. الخالق الذى تتجلى آيات إثبات وحدانيته فى كل ذرة من ذرات الموجودات، البارئ الذى تشكر روائع بدائع صنائعه باختلاف اللغات والصفات، الرزاق الذى عن طريق الربوبية يستوى على مائدة كرمه الملحد والموحد، الخالق الذى ما ندركه من معلومات عن مبدعات فطرته ما هو إلا قصة واحدة من كمال قدرته، العظيم الذى يتغنى البلبل الشجى الأنعام والألحان بألف قصة مردداً وذاكراً لنعمته، الكريم الذى تعادل قطرة واحدة من بحار موهبته ماء نيسان المدرار، الغفار الذى أصبح نسيم لطفه مادة لبقاء كل محب، القهار الذى أضحى جلاذ عنقه سيف التتار البتار، الظاهر الذى تحتار عقول العقلاء فى عظمة كماله، الباطن الذى تقصر الأفهام والأوهام عن كنهه جلالة، الأحد الذى هو مطلوب مقتصدى أودية الهدى ومقتبسى بادية الهوى، الصمد الذى هو محبوب لعشاق الحقيقة، والفساق عابدى الصورة.

الكفر والإسلام كلاهما ماض فى طريقه يقولان وحده لا شريك له.

جعل الله خاتم الأنبياء محمدا المصطفى نورا لمقلة أهل البصيرة، وأنزل شأبيب مدده على زهرة حديقة الخليفة مدحا وثناء ينبعث من وليمته رائحة الإخلاص تشنف مشام مشتاقى القدس وينثر من رائحته عبيرا على ساكنى روضة الرضا ويؤثر روحه الطاهرة المكرمة بالصلوات الطيبات.

وكذلك على المصطفين من أمته المتبعين سنته من الصحابة وأهل البيت الذين هم نجوم فى سماء الهداية ورجوم لشياطين الغواية، الفائز يزدان بحلية الصفا وجمال الحقيقة ويمتد بامتداد الأيام والليالى.

وحينما حالفنى الحظ فى شهور سنة خمسين وستمئة وغمرتني السعادة نلت شرف تقبيل عتبة بلاط سلطان العالم نافذ الأمر فى كل زمان ومكان مصدر الأمن والأمان، سلطان السلاطين منكو قا أن جعله الله على أعداء دولته فاتحا منصورا وجعل الدين بلوائه مقصودا وامتدت ظلال حكمه على العالمين كافة، فانتعش الناس من جديد من جراء عدله وصاروا كنبت المرعى والأشجار الذى يبتسم لبكاء سحاب الربيع فهدأت حياتهم وانتعشت أحوالهم، وامتثلت للأمر الربانى حيث قال: "انظروا إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها"، وشرفت باصرة البصيرة بمطالعة تلك الآثار، وشنت سامعة الحقيقة بندا:

أيها العشاق لقد ظهر ذلك المعشوق من جديد

فهبوا وانثروا الروح فقد ظهر المعشوق

واختفت أخبار العدل الكسروى فى حذائه، وتضاعلت أمام أخباره، وانمحت آثار العقل الفريدونى إزاء ما ينعم به من عقل وحكمة، وعطرت نفحات شمال شمائل إنصافه أطراف العالم، وأنارت شمس عواطفه السلطانية جميع الخلائق والأجناس، وأضرمت ريح سيفه البتار النار فى صوامع غلال عدوه فأضحت ترابا، ورفع مطيعوه وملازمو حضرته سرير الخيمة فوق الثريا، وتذوق المخالفون والمعارضون له شرابا وبيلا خوفا من بأسه وعقابه، وسلمت يد عقابه وسطوته عين الفتنة. وعلى هذا النحو والهيئة حينما طالعت حضرته المهيبة العظيمة التى تجدر شفاه وتعفر جباه الملوك المشهورين، فقد أشار على جمع من الأصدقاء الأوفياء وإخوان الصفاء - الذين كانت وعثاء السفر إلى حضرته السلطانية بالنسبة إليهم من السهولة بمكان كسهولة السفر فى الحضر - بضرورة أن أولف تاريخا يخلد المآثر العظيمة والمفاخر الحميدة التى ينعم بها سلطان الزمان الشاب، صاحب الحظ السعيد، ماضى العزيمة، حسن الطالع، طاهر الخصال، وأن أجمع أخباره وآثاره التى تتسخ آيات القياسرة وتمحو روايات الأكاسرة، ولا يخفى على أرباب الفصاحة والفتانة وأصحاب الدراية والكفاية أن غضارة ونضارة وجه الآداب ورونق وطراوة أولى الأبواب إنما تتم بواسطة محترفى هذه الصنعة ورعاة هذه الحرفة.

ألا ليت شعري هل أرى الدهر واحدا قريناً له حسن الثناء قرين
فأشكو ويشكو ما بقلبي وقلبه كلا على شكوى أخيه أمين

وقد اندرست نتيجة لتغير الزمان وتأثير الفلك الدوار ودوران الفلك
الدون واختلاف العالم المضطرب مدارس الدرس، وانطمست معالم العلم،
وأضحى طلبته ألعية تتأرجح فى يد الحوادث القاسية وموطناً لنعال الزمان
الغدار والأوان المكار، وابتليت تلك الطائفة بصروف الفتن وشتى أنواع
المحن وصاروا طعاماً للسيوف البتارة وعرضة للبور والدمار ثم تواروا
تحت أديم هذه الأرض.

فالآن يجب أن نطلب ونبحث عن الفضل داخل طيات هذا الثرى، فقد
ضم سائر الفضلاء فى أحشائه وثناياه، وقد انتظم عقد دولة الفن ومدعوه فى
الأيام السابقة:

إذ العيش غض والشباب مساعد وفى حدثان الدهر عنك غفول

حيث كان كل هم أفاضل العلماء وعظماء بنى آدم مصروفا على إبقاء
الذكر الجميل وموقوفا على إحياء المراسم الجليلة، ويتضح لصاحب النظر
الثاقب الذى ينظر بعين فكره فى عواقب الأمور وخواتيمها أن بقاء السمعة
الطيبة سبب للحياة الخالدة، وذكر الفتى عمره الثانى^(١):

وإذا الفتى لاقى الحمام رأيت له لولا الثناء كأنه لم يولد^(٢)

فلا جرم أن صنف فصحاء الشعراء والكتاب بالعربية والفارسية نظماً
ونثراً فى شرح أحوال ملوك العصر وصناديد الدهر، وألقوا فى حقهم وشرح
أحوالهم مؤلفات عديدة، والآن وبعد أن كانت البلاد بعامّة وخراسان بخاصة
موطناً للسعادة وموضعاً للأمال والخيرات ومنبعاً للعلماء ومجمعاً للفضلاء

(١) جزء من بيت من أبيات قالها المتنبي فى قصيدة مطلعها:

نكر الفتى عمره الثانى وحاجته ما فاتته وفضول العيش أنشغال

(٢) هذا البيت ليزيد الحارثى من شعراء الحماسة (شرح الحماسة للخطيب التبريزى، طبة بولاق ١٢٩٦ ج ٤ ص ١٢٤).

ومربعاً لأهل الفن ومرتعا للعقلاء، ومشروع كفاة ومكرع وهاة، وللنبي حديث بهذا المعنى وألفاظه ورد: "العلم شجرة أصلها بمكة وثمرها بخراسان". بعد هذا كله قد أضحت البلاد بعامة وخراسان بخاصة خالية من زينة وجود المتدثرين بثياب العلوم والمتحليين بحلية الفنون والآداب، وتركوا من خلفهم جمعا يصدق عليهم حكم: "فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات" (١):

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر (٢)

ولوالدى صاحب الديوان بهاء الدين محمد بن محمد الجوينى - لا زالت دوحة الفضل بمكانة ناضرة وعيون المكارم إليه ناظرة - قصيدة فى هذا المعنى أتيت من مطلعها بهذين البيتين:

حنانيك رسم الحق والصدق قد عفا وإن أساس المكرمات على شفا
مُتينا بأعقاب قد اتخذوا عمى لأعقابهم مشطا وللمشط منشفا

يحسبون الكذب والتزوير وعظا وتذكيرا، ويسمون التحرمز والنميمة صرامة وشهامة .

ويعتده قوم كثير تجارة ويمنعنى عن ذاك دينى ومنصبى

يحسبون تعلم اللغة والخط الأويغورى قمة الفضل والمعرفة وأضحى كل واحد من أبناء السوق أميرا فى زى أهل الفسوق، وكل أجير سيِّداً وكل فرد وزيراً وكل تعس كاتباً وكل مستوفى مستوفياً وكل مسرف مشرقاً، وكل شيطان نائب ديوان، وكل فاسد شرير زينة لمجلس وصدرًا لمحفل، وكل تلميذ صاحب عز وجاه، وكل خادم سيد بيت، وكل مجرم إنساناً فاضلاً، وكل سافل إنساناً كريماً، وكل خسيس رئيساً، وكل غادر قادراً، وكل من لبس العمامة عالماً كبيراً، وكل جمال لما ينعم به من كثرة المال ذا جمال، وكل حمال صاحب نفوذ ومجال:

(١) سورة مريم الآية ٥٩.

(٢) هذا البيت للبيد بن ربيعة المامرى من شعراء المعلقات (الأغاني، ج ١٥، صفحة ١٤٠، بولاق ١٣٨٥).

وما تستوى أحساب قوم تورث
 قديما وأحساب نبين مع السبق
 وعرض ذوو القلوب الحرة أنفسهم للإهانات
 وصدورهم من الغم والحسرة للتأوهات
 وتحطم ظهر الفن القويم (صرح) في ذلك اليوم الذى أسند فيه هؤلاء
 الجهلة ظهورهم إلى وسادته:
 كم أردنا ذاك الزمان بمدح
 فشغلنا بدم هذا الزمان

يظنون الضرط والصفع من لطف طبع "طبع الله على قلوبهم"،
 ويحسبون المشاتمة والسفاهة من نتاج المخاطر الذى لا خطر له، وتظهر
 المروءة والفتوة وقت القحط والشدة، ويُمْتَحَن الأَخيار فى يوم الضلالة
 والجهالة، ويتمكن الأشرار والأذلاء، وينسج شرك المحنة فى عمل الكريم
 الفاضل، ويتحقق للنيم الجاهل مراده، ويصبح كل حر لا زاد له وكل كريم
 فاضل مردودًا، وكل نسيب لا نصيب له، وأهل الحسب والنسب لا قيمة لهم
 وكل داهية قرين داهية وكل محدث رهين حادثة، وكل عاقل أسير عاجلة،
 وكل كامل مبتلى بنازلة، وكل عزيز مضطر إلى متابعة كل ذليل، وكل عاقل
 مميز أسيرا لأخرق لا تميز له:

رأيت الدهر يرفع كل وغد
 ويخفض كل ذى شيم شريفة
 كمثل البحر يغرق كل در
 ولا ينفك تطفو فيه جيفة
 وكالميزان يخفض كل واف
 ويرفع كل ذى زنة خفيفة

ومن الممكن إدراك مقدار ما يبذله أرباب الفطنة وأصحاب الكياسة من
 مجهود فى سبيل ارتقاء المدارج العليا، والوصول إلى الغايات القصوى،
 وطبقا للحكم القائل: "الناس بزمانهم أشبه بمنهم بآبائهم"، فقد كان وقت الشباب
 مناسبا لإحكام قواعد الفضائل والآداب واستحكامها، وقد امتثلت لأقوال أبناء
 الزمان والأتراب والأقران الذين كانوا رفاقا لى فى الديوان.

واشتغلت بأعمال الكتابة والديوان قبل أن أصل إلى سن العشرين
 فأهملت تحصيل العلوم نتيجة لممارسة تلك الأشغال ومكابدة تلك الأعمال
 وغفلت عن نصيحة والدى - مد الله فى عمره مدا - وجعل بينه وبين النوائب
 سدا- التى هى زينة كل عاطل ودستور كل عاقل.

تَفَرَّ باجْتِنَاءِ ثَمَارِ الْمُنَى	بَنَى اجْتِهَادَ لِقْتِنَاءِ الْعُلُومِ
إِذَا جَدَ فِي سِيرِهِ فِرْزَنَا؟	أَلَمْ تَرِ فِي رَقْعَةٍ بَيِّدَقَا
مَنْ الْمَجْدُ شَمِّ الْمِبَاتَى لَنَا	فَأَجْدَادُنَا الْغَرَّ قَدْ أُسِّسُوا
سَتَنْهَارُ وَاللَّهِ تِلْكَ الْبِنَى	فَإِنْ لَمْ تَشْهَدْهَا بِمَجْهُودِنَا

الأخيار من الناس يُسَدُّون النصيح والإرشاد، بينما السعداء هم الذين يتقبلونه فقط.

والآن وقد نما العقل الذى هو عقال جنون الشباب وتقدم السن الذى هو لجام نزاقة الشبان ومرت السنون حتى وصلت إلى الحد الذى:

وتلفتت سبع إلى عشرين من حجبى وكف العقل من غلوائى

وأضحى الندم والألم على فوات أيام الدراسة والتحصيل لا فائدة فيه ولا أمل يُجْنَى من ورائه، وهكذا فإنه لا فائدة من الحسرة والتأسف على ما مضى من أعوام ضائعة:

وا أسفا لقد اتقضى العمر فجأة وتجاوز هذا العمر العزيز الثلاثين

والآن ما السرور؟ وإذا مد السرور يده فحينما ينتهى العرس والوليمة تكون مائة كأس برغيف.

ومع هذا فإنى نظرا إلى ما قمت به من رحلات وأسفار مرات عديدة إلى بلاد ما وراء النهر وتركستان إلى حدود ماجين (جنوب الصين) وأقصى بلاد الصين، وهى حدود إمبراطورية جنكيز خان وأحفاده، وشاهدت واسطة عقد مملكتهم وشاهدت بعض الأحوال رأى العين واستمعت إلى أكابر الناس وثقاتهم وشهود العدل منهم فيما يختص بالأحداث والأمور السابقة والتزاما بما أشار به الأصدقاء وهو حكم لا مفر منه، ونظرا إلى أنى لم أجد حيلة أعدل بها عما يريدون فقد امتثلت لأمرهم واعتبرت طلب الأعزاء أمرا مقضيا ف سجلت ما هو ثابت ومحقق وأسमित مجموعة هذه الحكايات باسم تاريخ جهان گشای جوينى.

خلت الديار فُسدتُ غيرَ مسوّدٍ ومن الشقاء تفرّدى بالسوّدِ
وإني أرجو من أرباب الفضل والأفضال، لا أبعد الله عن ساحة جلالهم
عين الكمال وعمر بوجودهم مباني المكارم والمعالي، أن يستروا تكرما منهم
ما يرون من ركافة في الألفاظ وقصور في العبارات بذيل العفو والصفح،
ذلك أنه قد انقضت عشر سنوات قمت خلالها بالتجول مغتربا في أنحاء البلاد
تاركا التحصيل والدراسة فتقامت الأوراق ونسج العنكبوت عليها خيوطه
ومُحيت نقوشه في صحيفة خاطر كالخط يرسم في بسيط الماء، وأن لا
يعترضوا أو يوجهوا إصبع النقد إلى الخطايا التي ليس لابن آدم صون منها،
ولكل جواد كبوة:

إذا أحسست في لفظي فتورا وخطي والبراعة والبيان
فلا ترتب لفهمي إن رقصي على مقدار إيقاع البيان

وإذا سلكت في الإفراط والتفريط طريق البسط والإسهاب فعليهم أن
يتذكروا وأن لا يغيب عن أذهانهم حكم الآية الشريفة "وإذا مروا باللغو مروا
كراما"^(١) ذلك أن الغرض من عرض هذه الحكايات وتقرير وكتابة هذه
الأحداث والوقائع أمران تتحقق بهما فائدة دينية ودنيوية:

أما الفائدة الدينية فإن صاحب الجوهر الطاهر حتى يكون منصفاً
مقتصداً يجب عليه أن لا ينظر إلى هذه المعاني بعين الحقد والحسد التي
تظهر العيوب والمساوي وتبدي المثالب والنواقص التي تنشأ عن دناءة الهمة
وخسة الأصل وأن لا ينظر إليها بعين الرضا والوفاء التي يرى القبيح بها
جميلاً ويحسب خشن الثياب بها خزا وديباجا:
وعين الرضا عن كل عيب كليله ولكن عين السخط تبدي المساويا

بل يجب أن يكون معتدلاً في نظره مراعي شروط الأمانة وواجب
الدين، وخير الأمور أوسطها:

(١) سورة الفرقان الآية : ٧٢.

على أننى راض بأن أحمل الهوى وأخلص منه لا على ولا ليا

وأن يتفكر فى هذه المغالاة ويتدبر فى معانى هذه المقامات التى يخطها يراعى الأعلام من الرجال وأن ينقشع عن بصيرته غطاء الشك والريبة ويزول عنها غشاء الظن والشبهة وأن يدرك تمام الإدراك أن كل ما يظهر فى هذا العالم من خير أو شر، نفع أو ضرر، إنما هو من تقدير الحكيم المختار ومرتبطة بإرادة القادر الجبار، وأن أفعاله لا تصدر إلا على أساس قانون الحكمة ومقتضيات الفضيلة والعدل، وأن ما يقع من وقائع وأحداث من تخريب للبلاد وتفريق للعباد ونكبة الأخيار وتسلط الأشرار، يحمل هذا كله فى طياته وثناياه حكما كثيرة، قال الله تعالى: "عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم"^(١)، ويقول الحكيم سنائى:

سواء أكنت آملا أو وجلا فإن الحكيم لم يخلق شيئا عبثا

إن كل ما جرى فى هذه الدنيا وما يفد إليها وما هو موجود فيها يجب أن يكون مقدرًا ومكتوبا.

وقد صدق بديع الزمان الهمذانى فى رسالته^(٢) التى يقول فيها: "لا ترادوا الله فى مراده ولا تكاثروه فى بلاده. إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، فهذه أسرار ليس لأى شخص اطلاع عليها أو وقوف على أسرارها أو القدرة على أن يغوص فى بحرها، وأية طائفة تستطيع أن تحلق فى أفقها؟ وأى فهم أو وهم قادر على عبور واديه؟ من أين أنا؟ ومن أين كلمة سر المملكة؟ وما يعلم الغيب إلا الله قل لا يعلم من فى السموات والأرض والغيب إلا الله"^(٣).

(١) البقرة: ٢١٦.

(٢) بديع الزمان الهمذانى - رسالته. فى رسالته المعنونة (فى هزيمة السامانيين بباب سرخس ص٧) وقد وردت على النحو التالى:

يا هؤلاء لا تكابروا الله فى بلاده، ولا ترادوا الله تعالى غير مراده إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده.

(٣) الآية ٦٥ النمل.

ليس لروح اطلاق على هذا السر، وبهذا الحجاب ليس هناك طريق لسبر أغواره.

وأما ما يمكن الوصول إليه عن طريق العقل والنقل، وليس بعيدا عن الفهم والوهم، فينحصر في قسمين: الأول ظهور معجزة النبوة، والثاني الكلام.

وأية معجزة يمكن أن تكون أقوى من ذلك؟ ويتحقق الحديث الشريف بعد مرور ستمائة ونيف عام "زويت إلى الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيلغ ملك أمتي ما زوى لى منها" ويتحقق ذلك بظهور جيش أجنبي، ولا عجب أن تفيض الأنوار من شعاع الشمس مثلما تخرج الرطوبة من الماء، والحرارة من النار، بل إن كل نور يشع وسط الظلام البهيم يكون بديها وغريبا.

إننا لم نمت حتى رأينا من المشعوذ المحتال الصبح الوضاء وسط دجى الليل الحالك، ومن أجل هذا تصبح راية الإسلام أكثر علوا وارتفاعا، وشمعة الدين أعظم توهجا واشتعالا، وتستظل بظل شمس الدين المحمدى ديار لم تعطر رائحة الإسلام مشامهم ولم تتذوق أصوات التكبير والأذان أسماعهم، ولم تطأ أرضهم سوى الأقدام النجسة من عبدة اللات والعزى، والآن فإن كثيرا من المؤمنين الموحدين قد ولوا وجوههم شطر تلك النواحي حتى وصلوا أقصى ديار المشرق، واستوطنوا بها وكثر عددهم حتى تجاوز حد ما وراء النهر وخراسان كصناع ورعاة ماشية وأغنام، وكانت طائفة كبيرة منهم قد طافت من أقصى بلاد المغرب والعراقين والشام وغيرها من بلاد الإسلام تجارة وسياحة فوصلوا إلى كل ناحية ومدينة واكتسبوا شهرة كبيرة ثم ألقوا عصا الترحال في تلك المنطقة، وقرروا الإقامة بها، وتزوجوا هناك وشيدوا الدور والقصور وأقاموا مساجد الإسلام في مواجهة بيوت الأصنام، وبنوا المدارس فارفعت عالية شامخة، واشتغل العلماء بالتعليم والإفادة، والطلاب بالاستفادة كما لو كانت إشارة الحديث القائل "اطلبوا العلم ولو فى الصين" خاصة بأبناء هذا الزمان وبالطائفة الموجودة فى هذا العهد البعيد، وبالنسبة إلى أولاد المشركين فقد وقع بعضهم أسرى فى يد المسلمين، وأسلموا ونعموا بعر الإسلام.

وهناك جماعة أخرى، أثرت أشعة أنوار الهدى فى قلبها الحجرى الذى ينطبق عليه قول الله عز وجل: " فهى كالحجارة أو أشد قسوة" (١) وتشققت من أشعة الشمس، وخرج منها الماء الزلال، فشرفت عندئذ باعتناق هذا الدين وبسبب يُمن بركات أهل الإيمان وكثرة عدد المسلمين الموحدين فى كل طرف يجول الطرف فى أنحائه يرى الإنسان مسجدا قائما، ونورا ساطعا يشع سناه وسط ليل حالك الظلام.

وتزعم جماعة من أهل الخلوة من عبدة الأوثان الذين يسمونهم بلغته "تولين" (٢) أنهم كانت لهم قبل إقامة المسلمين فى تلك الأنحاء، وارتفاع الأصوات بالتكبير وأداء الصلاة أقامها الله وأدامها- مع هذه الأصنام محادثات ومناجاة " وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم" (٣). ولسوء مقدم، المسلمين عليهم قد عفيت الشياطين منهم ولا يحادثونهم، ختم الله على أفواههم، وهذا يقتضى الإذعان حقا للقول " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا" (٤)، وفى كل مكان تتجلى فيه أنوار الولاء تضمحل ظلمات الكفر والفسوق وتتلاشى مثلما ينقشع الضباب ببزوغ الشمس وارتفاعها:

حينما يأخذ صبح الولاء للحق فى الانبلاج يعدو الشيطان هاربا وجلا من جميع الآفاق ويصل الإنسان إلى درجة ترى العين الحبيب فيها دون تعب أو مشقة.

وقد نالت تلك الجماعة درجة الشهادة وتلك أفضل الدرجات وأكملها بعد مرتبة النبوة عند الحق جل جلاله، وقد خففت أعمالهم ومحبت ذنوبهم ووضعت عنهم أثقال أوزارهم التى اقترفوها -أيام الأمن والفراغ- بالسيف القاطع والسيف محاء الذنوب.

(١) البقرة: ٧٤.

(٢) توبكين أو تولين وفى بعض النسخ الخطية تولين تعنى الراهب البوذى.

(٣) الأنعام: ١٢١.

(٤) الإسراء: ٨١.

"ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يُرزقون" (١).

وإن دماً أجرىته بك فآخراً وإن فؤاداً رُعته لك حامداً

وما تبقى من ذلك فهم أولو الأبصار الذين انتعظوا واعتبروا مما حدث.

أما الفائدة الدنيوية، فتتمثل في أن كل شخص - رغم اختلاف نظرته - تطالعه من هذه المقامات والروايات أمثلة لقوة الجيش المغولى وشوكته، وموافقة القضاء والقدر لهم في ما أرادوا، ويعلم أن هذه الحكايات والمقامات منزهة من شوائب الخداع مبرأة من ريبة الكذب والنفاق. وأى مجال للزور والبهتان، وهذه الحكايات أوضح وأبين من أن يشك فيها أى إنسان؟ وسيعلمون:

أن هذا القول سيظل خالداً حتى يوم القيامة بين العظماء لا يعتريه وهن أو تغيير وسيمتثلون للأمر الربانى القائل "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة" (٢).

وتنص الياسا والعرف المغولى على أن كل شخص منقاد لهم ويذعن لأمرهم يصبح آمناً من عقابهم، غير خائف من بأسهم، يضاف إلى هذا أنهم لا يتعرضون للأذى والملل الأخرى، وكيف يتعرضون لها؟ وأى وجه لذلك؟ بل إنهم يؤيدون ويقوون.

وبرهان هذه الدعوى قوله عليه السلام: "إن الله ليؤيد هذا الدين بقوم لا خلاق لهم".

وقد أعفوا أحابار أخيار كل ملة من سائر التكاليف والضرائب والمكوس وأعفوا كذلك أوقافهم وسبلهم وحراثهم وزراعهم، ولم يكن لأى شخص القدرة على القدح فيهم وبخاصة أئمة الدين المحمدى، والآن فى عهد منكو قا آن بخاصة، حيث شرف كثير من الأمراء من أولاد وأحفاد جنكيز خان وأرومته بشرف الإسلام، وجمعوا بين عز الدين وسعادة الدنيا، وقد

(١) آل عمران: ١٦٩.

(٢) البقرة: ١٩٥.

تزين كثير من أتباعهم وأشياعهم ورسلمهم وخدمهم بحلية عز الدين، وهم كثرة لا يمكن عددهم أو إحصاؤهم. ومما سبق وفقا لما يمليه العقل تتضح ضرورة التمسك بالحكم الرباني: "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها"^(١)، والإذعان لهم والانقياد لحكمهم وترك العناد والعصيان على النحو الذي أوضحه صاحب الشريعة حيث قال:

اتركوا الترك ما تركوكم فإنهم أصحاب بأس شديد، وأن يحصنوا أنفسهم وأموالهم في حصن العصمة وملجأ الأمان "والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم"^(٢).

ولما كان بطر النعمة، ونخوة الثروة وخيلاء الرفاهية تمنع العباد - في كل قرن وعهد - عن القيام بأوامر الباري جلّت قدرته وعلت كلمته، وعن الالتزام بها، بل وتحثهم على الإقدام على ارتكاب المعاصي والآثام: "كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى"، فقد قدم لكل تنبيهها وتذكيرا ما يناسب كفرهم ويلاتم طغيانهم، وأخذهم بما يوافق جرمهم وإثمهم، حتى يكونوا عظة وعبرة لأولى الأبصار، مثلما حدث الطوفان في عهد نوح عليه السلام، وما أصاب قوم عاد من عذاب في عهد ثمود، وما أصاب كل أمة من أنواع العذاب من مسخ وتسلط للأشرار والأضرار والقحط وغير ذلك مما هو ثابت ومذكور في القصص.

فلما جاء دور أمة خاتم الرسالات عليه أفضل الصلوات الزاكيات تضرع إلى الله عز وجل أن ترفع عن أمته شتى صروف العذاب وصنوف البلاء التي أصاب بها كل أمة جزاء وفاقا لما ارتكبت من آصار وأوزار، وقد أضيف هذا التشريف والتكريم إلى الفضائل الأخرى التي تميزت بها أمته فرفع عنها كل شيء وقبل منه كل شيء عدا عذاب السيف فلم تصادف دعوته عنها قبولا واستجابة. وجزى الله العلامة "الزمخشري" عما أورده في الكشف في تفسير للآية الكريمة من سورة الأنعام: "قل هو القادر على أن

(١) الأنفال: ٦١.

(٢) البقرة: ٢١٣.

يبعث عليكم عذابا من فوقكم" (١) إلى آخر الآية، نقلا عن رسول الله حيث يقول: سألت الله أن لا يبعث على أمتي عذابا من فوقهم ومن تحت أرجلهم فأعطاني ذلك، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني، وأخبرني جبريل أن فناء أمتي بالسيف.

ومن الناحية العقلية فإن هذا يقتضى ويوجب أنه إذا كان التهديد بالسيف وهو الوعيد العاجل قد وقف، واكتفى للناس بالأجال الموعودة لهم فى العالم الآخر فتسبب هذا فى أن تختل الأمور وتضطرب الأحوال، وسيطرت العامة من الناس الذين ارتبطت أقدامهم بما يزغ السلطان (٢)، وانطلقت أيديهم حرة تفعل ما تشاء، وبقيت الخاصة من الناس عاجزة ذليلة فى زوايا البلاء والعناء، وبطلت بعض منافع الآية: "وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس" (٣)، ذلك أنه دون هذه الأداة تبقى أبواب العدل والإنصاف التى فتحت بواسطة الآية الكريمة "وأنزلنا معهم الكتاب والميزان" (٤) موصدة، واختلت مصالح العباد واضطرب نظامها دفعة واحدة، ومن هذا يتضح ويتبدد ظلمة الشك والريبة، وإن كل ما قدر فى أزل الأزال فيه الخير كل الخير لعباد الحق جل شأنه وعم سلطانه، فلما انقضت ستمائة عام ونيف العام على مبعثه للعالمين كافة، فقد أدت كثرة العيال واتساع بساط الآمال إلى الطغيان وارتكاب الآثام. "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" (٥)، وقد ذكر فى محكم كلامه المجيد "وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون" (٦)، وقد أبعدتهم وسوسة الشيطان عن طريق الصواب وجادة الرشاد.

(١) الأنعام ٦٥ . وردت فى نسخة جهان كشاي قل هو القاهر، وهذا خطأ.

(٢) إشارة إلى الحديث من يزغ السلطان أكثر ممن يزغ القرآن، القزويني - الحاشية - ص ١٢.

(٣) الحديد: ٢٥.

(٤) الآية الكريمة: "وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط" الحديد ٢٥.

(٥) الرعد ١١.

(٦) تصحيح الآية - ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون الأنعام ١٣١.

حل الكفر وحلت وسوسة الشيطان الدين وتلاعبت به، وأقبل العشق وأصبح العقل مفتونا بالأحبة. أيها الغافل عن أمر العاقبة ثب إلى رشدك واعدل، وهل يمكن لإنسان أن يقضى عمرا بضياح أنكر من هذا "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم".

وجرم جرّة سفهاء قوم فحلّ بغير جارمه العذاب

ما فائدة الشكوى من الدهر وعتباه؟ لا فائدة فكل ما يصيبنا إنما هو نتاج أعمالنا. ولقد كانت إرادة الحق تقدرت أسماؤه أن تستيقظ تلك الجماعة من نوم الغفلة، الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، وأن يفيقوا من سكر الجهالة حتى يكون هذا تحذيرا ونذيرا لأولادهم وأعقابهم، ويتحقق في أوج ذلك أيضا إعجاز الدين المحدث، وقد جرى ذكر بعض ذلك فيما سبق، وقد أعد الحق شخصا وجعل من طبيعته وعاء ومستودعا بالخصال المحمودة والصفات المقبولة مثلما يستخدم المداوى الحاذق السبل المحمودة لدفع الأمراض المذمومة ثم يرى ضرورة إصلاحها مرة ثانية حتى لا ينحرف مزاجه عن أصله كلية ولا يتغير فيدفع بالمواد التي تناسب طبيعته، والحكيم الأكبر خبير بطباع عباده ومزاجهم وبصير بها ويستطيع استعمال الأدوية الملائمة للوقت المناسب للطبيعة، إن الله تعالى لخبير بصير.

فصل

فى كىففة أحوال المغول قبل عصر جنكيز خان

حينما تتخذ عنقاء السعادة والإقبال عى شخص مأوى لها ويلزم نداء الإلبار عتبة شخص آخر فعلى الرغم مما يكون بينهما من درجات جد متفاوتة، إذ أن أحدهما يكون فى أوج السعادة والآخر يكون فى حضيض المذلة والمهانة، فإن قلة العدة وضعف الحالة لا يمكن أن يحولا بين صاحب الحظ السعيد وإدراك مقصوده.

إن كل من يكون مهياً للسعادة إذا لم يبحث عنها فتشت هى عنه

كما أن كثرة العدة وفرط الأهبة لا يفيدان صاحب الحظ السيئ فى دفع ما هو كائن "الجد ما لم يعنه الجد غدار" ولن يستطيع تدبير الإنسان دفع ما كتب عليه، وإذا أقبل أقبل وإذا أدبر أدبر، وإذا ما تحققت نعمة بالحيلة والجاه والمال لم ينتقل الملك والسلطان من أسرة الملوك السابقين إلى آخرين، وإذا ما حل الدور عليهم لزوال دولتهم وانهيار سلطانتهم فلا يمكن للحيلة أو مضاء العزيمة أو سديد الآراء التى ينعمون بها أن تنقذهم أو تمد يد العون لهم، ولن تكون غلبة الجند وازدياد القوة ناصرا ومعينا، وأى دليل أوضح حجة وأكثر بينة من هذا؟ ماذا كان شأن طائفة المغول وأحوالهم قبل أن يقرعوا طبل سعادة جنكيز خان وأرومته؟ وعلى أية حال كانت تجرى أمورهم، والآن فإن مياه الإقبال تجرى فى أنهار مرادهم بينما تسيطر جيوش الغم والمحن على منازل المعارضين والمخالفين الذين كانوا ملوكا جبارين وسلطين مشهورين، فكيف تتكرر الزمان لهم؟ وكيف أصبح ألعوبة فى أيدى تلك

الطائفة؟ وفرت الدنيا من تلك الجماعة وأصبح الأسير أميرا، والأمير أسيرا
وكان ذلك على الله يسيرا.

على رأس عبد تاج عزّ يزينه وفى رجل حر قيد ذلّ يشينه

وموضع إقامة التتار ومنشئهم ومولدهم بواد غير ذى زرع، تزيد
مساحته طولا وعرضا عن مسيرة سبعة أو ثمانية أشهر، تحده من الناحية
الشرقية بلاد الخطا، ومن الناحية الغربية بلاد الأويغور، ومن الشمال بلاد
الفيغيز وسلنكاى، ومن الجنوب تتكت والتبت.

ولم يكن للمغول قبل خروج جنكيز خان رئيس أو حاكم، وكانت كل
قبيلة أو اثنتين تعيشان منفصلتين لا تتفقان، النزاع والخصام قائم ومستمر
بينهم، وكان بعضهم يعتبر السرقة والزور والفسق والفجور من الشجاعة
والبطولة، اعتاد خان الختاي أن يطلب ويحصل منهم على ما يريد، كانت
ملابسهم من جلود الكلاب والفئران وطعامهم من لحومها ولحوم الميئة
الأخرى، وشرابهم من ألبان البهائم، ونقلهم من ثمار شجرة تشبه الصنوبر
ويسمونها قسوق، ولا تثبت هناك شجرة مثمرة سواها، وتوجد فى بعض
الجبال، ولا ينمو شى آخر فى تلك الأنحاء نتيجة لما يغلفها من برد شديد،
وكانت السمة المميزة للأمير الكبير أن يكون ركابه من الحديد، ومن الممكن
استنتاج سائر وسائل الزينة الأخرى على هذا القياس.

والخلاصة أنهم كانوا يعيشون فى شظف من العيش، ويمضون حياتهم
فى إخفاق ووبال، حتى إذا ما ارتفعت راية دولة جنكيز، وانتقلوا من مضايق
الشدة إلى بحبوحة النعمة ومن السجون إلى جنة النعيم، واتخذوا لباسهم من
الإستبرق والحريير وأطعمة وفواكه ولحم طير مما يشتهون، وفاكهة مما
يتخبرون وأشربة مختومة، ختامها مسك ومن هذا صدق قول القائل بأن الدنيا
فى الحقيقة هى جنة تلك الجماعة، يجلبون إليهم البضائع من أقصى بلاد
المغرب ويفتحون فى منازلهم ما أغلقوه فى أقصى بلاد المشرق ويملاون
بدورهم أكباسهم من خزائنهم، وأصبحت حللهم اليومية مرصعة بالجواهر،

مطرزة بالذهب، وقد رخصت الجواهر وسائر أنواع الأقمشة فى الأسواق التى أقيمت فى مساكنهم والتى إذا ما أعادوها إلى معدنها ومنجمها لباعوها بضعفى ثمنها، والشخص الذى يحضر ثيابا إلى تلك البقاع مثله كمن يحضر كمونا هدية إلى كرمان أو يحضر الماء إلى عمان، وجعلوا لكل واحد منهم مزارع وحقولا، وعينوا زُرّاعا فى كل موضع فكثر المأكولات وازدادت المشروبات ففاضت وأضحى جارية كنهر جيحون.

وتحت ظلال العظمة والسعادة المتزايدة يوما بعد آخر وتحت ظلال الهيبة السلطانية لجنكيز خان وأرومته تبدلت أحوال المغول وانتقلوا من ضيق العيش وشظفه إلى رغد العيش وحلوه.

وأما بالنسبة إلى الطوائف الأخرى فقد انتظم أمرهم واستقام الزمان لهم. وتعامل معهم كل شخص لم يكن يستطيع -قبل ذلك- أن يضع لنفسه فرشاً من القطن السيئ وتاجر معهم فى المرة الواحدة بخمسين ألفاً وثلاثين ألف بالمش من الفضة أو الذهب، والبالش خمسمائة مثقال من الذهب أو الفضة، وقيمة البالش الفضى تعادل خمسة وسبعين ديناراً ركنياً^(١) وعيارها أربعة أضعافه.

نتضرع إلى الحق تعالى أن يمنح أرومته وبخاصة منكوقا أن -هو السلطان الأكثر عقلا وعدلا- سنوات لا نهاية لها من التوفيق والسداد وأن تشمل رحمته وشفقته الخلائق كافة.

(١) ينسب إلى أحد الحكام ويدعى ركن الدين.

ذكر القواعد التي وضعها جنكيز خان بعد الخروج والأوامر التي سنّها

لما كان الحق تعالى قد ميز جنكيز خان على أقرانه بالعقل والحكمة، وخصه دون ملوك الدنيا باليقظة والسلطان، حتى إنه كان يعرف ويخترع تلقاء نفسه ما كان مذكوراً من عادات جبابرة الأكاسرة وما كان مسطوراً من رسوم وأساليب الفراعنة والقيصرية دونما حاجة إلى اقتفاء آثارهم أو نقصى أخبارهم، وأما ما يتعلق بتدبير شئون البلاد التي فتحها وكسر شوكة الأعداء، ورفع درجة الموالين له، فقد كان كل هذا من وحى ضميره وتأليف خاطره حتى إنه لو كان قدر للإسكندر مع ولعه باستخراج الطلسمات وحل المشكلات - أن يكون موجوداً في عصره لتعلم من ذكائه وحيلته.

ومن حل الطلسمات فتح الحصون، ولم يجد طلسماً أفضل من الانقياد له والإذعان لأمره ولا يمكن أن يكون هناك دليل أكثر وضوحاً وأعظم بينة من هذا، فعلى الرغم مما كان عليه خصومه من القوة والعدة وما تهيأ لأعدائه من الكثرة والشوكة حتى كان كل واحد منهم فغفور وقته وكسرى زمانه، فقد خرج إليهم بنفس واحدة، مع قلة عدد ويد خالية من العدد، فانظر كيف أنل جبابرة الآفاق في المشرق والمغرب وقهرهم، وأما من كان يتصدى لقتاله ونزاله، فإنه وفقاً لحكم الياسا الذي لا إبرام فيه، يقوم بالقضاء عليه وعلى أتباعه وأشياعه وأولاده وجنده كلية ويدمر بلاده ونواحيه.

وهناك حديث منقول عن الأخبار الربانية يقول: "أولئك أهم فرسانى بهم أنتقم ممن عصانى" وليس هناك شك أو شبهة في أن هذا الحديث كان إشارة إلى هذه الجماعة جماعة جنكيز خان وقومه.

وكانت الدنيا تموج فى تلك الأثناء بالخلق، وكان ملوك النواحي والأصقاع وأشرافها قد بلغت بهم خيلاء الكبرياء وبطر النعمة والثروة أقصى حد حتى تجاوزوا ما اختص الحق به نفسه حيث قال: "العظمة إزارى والكبرياء ردائى"^(١)، وقد منحه الحق بحكم سابق وعده قوة البطش وغلبة التسلط، "إن بطش ربك لشديد"^(٢).

ولما كانت أغلب الأقطار ومعظم الأمصار قد أعماها بطر الثروة وما جنته من عز ورفعة فقد عمدت إلى حربه وأعلنت العصيان، ورفضت الاستسلام لحكمه وبخاصة بلاد الإسلام فى حدود التركستان إلى أقصى بلاد الشام، وحيثما وجد سلطان أو أمين مدينة أو صاحب ناحية أثر التمرد والعصيان قضى عليه مع أهله وبطانته القريب منهم والبعيد، حتى إنه لم يكن يتبقى من مائة ألف شخص مائة شخص على الأكثر بلا مبالغة، ومصدق هذه الدعوى هو شرح أحوال هذه المدن التى أثبتت وفق ما يناسبها من الوقت والمكان.

ووفقا لرأى جنكيز خان ومقتضى مراده فقد وضع لكل أمر قانونا ولكل مصلحة دستورا واستنَّ لكل ذنب حداً وعقاباً، ونظراً إلى أن أقوام التتار لم يكن لهم خط فقد أمر بأن يقوم الأويغور بتعليم أطفال المغول الكتابة، وأن تكتب هذه القوانين والأحكام فى طوامير وأن تسمى كتاب "الياسا الأكبر"، وأن تحتفظ فى خزانة أبناء الملوك.

وكانوا يحضرون هذه الطوامير كلما جلس حاكم جديد على العرش، أو يقومون بتعبئة جيش جرار، أو يجتمع الأمراء للنظر فى مصالح الملك وتبدير شئون البلاد يحضرون تلك الطوامير -السجلات- ويبنون أمورهم وقراراتهم وفق نصوصها، ويسلكون نفس السبيل حين تعبئة الجيوش

(١) حديث قسئ.

(٢) سورة البروج، الآية ١٢.

والإغارة على البلاد والمدن وتخريبها.

وقد قضى جنكيز فى بداية عهده حين انضوت قبائل المغول تحت سلطانه على العادات السيئة والرسوم الذميمة التى كانت سائدة بين تلك الطوائف ومتعارفا عليها بينها، وأحل محلها من العادات الحسنة والصفات الحميدة ما هو مقبول عقلا، وكثير من هذه الأحكام يوافق الشريعة.

لم يكن جنكيز خان فى إنذاراته التى يبعث بها إلى النواحي والأطراف المختلفة التى يدعوهم فيها إلى الانقياد له والإذعان لحكمه، لم يكن مثل الجبابرة الذين يهددون ويتوعدون معتمدين على كثرتهم وهيبتهم وكثرة عتادهم، بل كان كل ما يكتبه فى الإنذار أنهم إذا لم ينقادوا لحكمه ويستسلموا له فإن ما نعمله هو ما يعمل الله الأزلى، من يتدبر هذا المعنى يره من أقوال المتوكلين، قال الله تعالى "ومن يتوكل على الله فهو حسبه" فلا جرم أن يتحقق له كل ما يضره ويتمناه ويصل إلى كل ما يريده.

ونظراً إلى أن جنكيز خان لم يكن متقلدا لأى دين أو تابعا لأى مذهب، فقد كان بعيدا عن التعصب، وعن تفضيل أمة على أمة وترجيحها بعضها عن بعض، بل إنه بجّل وكرم علماء وزهاد كل طائفة وحباهم بالمزيد من الإعزاز، وكان يعتبر هذا وسيلة للتقرب إلى الحق جل وعلا، وكما نظر إلى المسلمين نظرة توقير وتقدير أعز النصارى واليونانيين، واختار كل واحد من أولاده وأحفاده من المذاهب ما يوافق ميله وهواه، فمنهم من دخل فى الإسلام، ومنهم من اعتنق النصرانية، ومنهم من اختار عبادة الأوثان، وبقي قوم منهم على عادة آبائه وأجداده القديمة لا يحيد عنها ولا يميل إلى غيرها، وكانت هذه الطائفة الأخيرة أقلهم عددا، ومع تقلدهم لهذه المذاهب فقد بعدوا أكثر وأكثر عن التعصب، لا يعدلون عما أقرته قوانين جنكيز خان التى تنتظر إلى جميع الطوائف على حد سواء ولا تفرق بين واحدة وأخرى.

ومن العادات الحميدة التى سنتها الياسا القضاء على الألقاب الكثيرة ومظاهر التكلف التى كانت سائدة بين الملوك والعظماء، فهم يخصون كل

من يجلس منهم على العرش بلقب خان أو قاآن، ولا يزيّدون على ذلك، وأما الأولاد والإخوة فيدعونهم بأسمائهم التي يعرفون بها منذ ولادتهم ويلتزمون بذلك في حضورهم وغيابهم على حد سواء، ويكتبون أسماءهم في المنشورات مجردة كذلك، لا يفرقون بين السلطان والعامي، يكتبون لب القول وهدفه، ويتحررون من زوائد الألقاب وحشو العبارات.

وقد اهتموا بشئون الصيد وأخذوها مأخذ الجد، ووفقا لقول القائل بأن "صيد الوحوش يناسب أمير الجيوش" أصبح واجبا على أرباب السلاح وأصحاب الكفاح أن يتعلموا كيف يصل الصيادون إلى الصيد وعلى أي أسلوب يصيدون وكيف يصطفون وكيف يطوفون بالصيد حسب قلة الرجال أوكثرتهم...

وحيثما كانوا ينتفون الخروج إلى الصيد كانوا يرسلون رجالا للاستطلاع وتحديد أنواعها ومعرفة عددها من حيث القلة والكثرة.

وعلى الجند أن يحرصوا على ممارسة الصيد في وقت فراغهم وعدم وجود أعمال يقومون بها، وعلى القادة أن يحثوا الجند على ممارسته، ولم يكن الهدف من ذلك هو ممارسة الصيد لذاته بل ليتمرنوا ويتعودوا على القتال ورمى السهام وتحمل الصعاب والمشاق.

وحيث يعزم الخان على الخروج لصيد كبير - الذي يحدث عادة في بداية فصل الشتاء - تصدر الأوامر للجند المرابط على مضارب الخان وما يجاور المعسكر للاستعداد للصيد، وينطلق وفق إشارته من كل عشرة أشخاص عدة رجال لتعيين مواضع الصيد وما يلزمه من آلات ومعدات وأشياء أخرى، ويعينون القلب والميمنة والميسرة ويفوضون الأمر إلى الأمراء الكبار، ويخرجون معهم زوجاتهم وما يلزمهم من المأكولات والمشروبات.

ويضربون حلقة الصيد شهرا أو شهرين أو ثلاثة، ويسوقون الصيد بداخلها فى تودة وهودة ويحرصون على أن لا يخرج من تلك الحلقة، فإذا عدت واحدة من الصيد هاربة فجأة جدوا فى البحث والاستقصاء عن سبب ذلك وعلمته، ويعاقب أمراء الألف والمائة والعشرة على ذلك بضربهم بالعصا، بل وكثيرا ما يقتلون، وكذلك يفعلون إذا لاحظوا اضطرابا أو اعوجاجا فى الصف الذى يطلقون عليه اسم "تركه" (حلقة) لاحظوا بعض رجاله أو تأخرهم عما هو مرسوم لهم، فكانوا يبالغون فى تأديبهم وعقابهم، ولا يهتمون ذلك . ويستمر القوم على هذا المنوال شهرين أو ثلاثة ليلا ونهارا يسوقون الصيد أمامهم كقطعان الخراف ويرسلون الرسل إلى الخان مخبرين ومبلغين بما تم من أمر الصيد قليله وكثيره، وبما يعتريه من زيادة ونقصان، وإلى أين انتهى ومن أين أفلت... حتى إذا ما ضاقت الحلقة واقترب بعضها من بعض بمقدار فرسخين أو ثلاثة يصلون بينها بالحبال وينشرون عليها اللباد ويصطف الجند حولها كتفا إلى كتف وقد توسطتها صنوف الوحوش ترمجر وتصرخ وأنواع السباع فى زفير وصياح ويظنون أن وعد الحق القائل "وإذا الوحوش حُشرت" قد تحققت ترى الأسود قد ألفت وتصادقت مع حمر الوحش واستأنست الضباع مع الثعالب وصادقت الذئاب الأرانب، حتى إذا ما ضاقت الحلقة أكثر واستحكمت حلقاتها ولم يعد للأوباد مجال للجري تسرح فيه وتمرح، انطلق الخان فى البداية يطاردها وسط الحلقة مع بعض نفر من خاصته، فيأخذون فى رميها بالسهام صائدين، فإذا ما اعتراهم ملل صعدوا إلى ربوة عالية وسط الحلقة يشاهدون منها أبناء الخان إذا ما نزلوا إلى الصيد ودخلوا الحلقة، ويدخل من بعدهم -على الترتيب- صغار النبلاء أبناء الخان والأمراء والعامة من الناس، ويمضى الحال على هذا المنوال أياما عدة، حتى إذا لم يبق من الصيد شيء سوى واحد واثنين قد جرحا أو أصيبا وقد اعتراهما ضعف وهزال، عندئذ يتقدم الشيوخ والصغار إلى الخان ضارعين إليه ويشفعون عنده للإبقاء على ما بقى من الحيوانات ثم يسوقونها بعد ذلك إلى موضع أكثر قربا من الماء والعلف ثم يجمعون كل ما صادوه، فإذا تعذر حصر جميع الحيوانات وعدّها اقتصروا على السباع وحمر الوحش

منها.

حكى أحد الأصدقاء أنهم فى عهد القا آن قد اصطادوا على هذا النحو فى فصل من فصول الشتاء، وأن القا آن قد جلس على ربوة عالية لمشاهدة ذلك، بينما انتهت الحيوانات من كل نوع صوب مقامه وقد وقفن بأسفل الربوة وأخذن فى الصياح والصراخ كطلاب العدل والإنصاف، فأصدر القا آن أمراً بإطلاق سراح كل الحيوانات وكفوا عن أذاها والتعرض لها، وطلب القا آن أن يقيموا حائطا من الخشب والطين بين بلاد الخثاى ومقامه الشتوى وأن يعدوا لها الأبواب اللازمة حتى يدخل إليها كثير من الصيد من مسافات بعيدة، ويصيدها على النحو الذى سبق ذكره.

وأقام جغتاي كذلك فى منطقة قناس والماليغ مكانا للصيد على هذا النحو وكان الحرب والقتل وإحصاء القتلى والإبقاء على هذا المنوال أيضا، ووفقا لهذا المثل حذو النعل بالنعل فإن كل ما يبقى فى أطراف هذه المساحة يكون عددا ضئيلا من الجرحى والضعفاء، وبالنظر إلى ترتيب الجيش، منذ عهد آدم حتى الآن، حيث انضوى أكثر الأقاليم تحت سلطة وتصرف جنكيز خان وأرومته، لم يطالع فى تاريخ ولم يسطر فى كتاب أن أحدا من الملوك الذين كانوا مالكين لرقاب الأمم مسيطرين عليها قد تيسر له جند كجيش التتار، فقد كانوا صابرين فى وقت الشدة والرفاهية. شاكرين فى السراء والضراء، منفذين للأوامر، مطيعين لأمر الجيوش لا يتوقعون مكافأة أو إقطاعا ولا ينتظرون دخلا أو مجدا، وتلك أفضل العادات والسبل فى ترتيب الجيش وإعداده.

فإن الأسود إذا لم تكن جائعة لا تصيد ولا تسعى إلى قنص أية فريسة، وهناك مثل أعجمى يقول : "لا يأتى صيد من كلب شعبان"، وقالوا: "أجّع كلبك يتبعك"، وأى جيش فى العالم يستطيع أن يكون كجيش المغول؟ فهم وقت العمل وفى أثناء الهجوم والقنص سباع ضارية، وفى أثناء السلام والفراغ كالأغنام تدر اللبن وتنتج الصوف ومنافع كثيرة أخرى.

وهم مرتاحو النفوس فارغو البال مستريحو الضمائر مع تقلب الأمور وحلو الأحوال ومرها.

جنود الجيش مثال الرعية يتحملون كل صنوف المؤن، ولا يتضجرون من أداء ما يُفرض عليهم من ضرائب وأموال وحاجات وصادر ووارد وترتيب للجياد والحمير للبريد وما يلزمها من علف، ورعية مقاتلة إذا ما جد الجد يكونون جميعا شبيبة وشبابا شريفا أو وضيعا مبارزين يجيدون الطعن بالسيوف، ورماة سهام مهرة وقاذفى أسنة يتقدمون بأداء كل عمل تتطلبه الظروف والأحوال، فإذا ما بدرت لهم فكرة قتال عدو أو تائر، فإنهم يعدون ويرتبون كل ما هو لازم ومفيد لمصلحة العمل من مختلف الأسلحة والآلات حتى البندق والمخراز والحبال والمراكب والحيوانات من حمير وجمال.

وعلى كل شخص أن يقدم ما يجب عليه وفقا لتقسيم العشرات والمئات ويعرضون الآلات فى يوم العرض، فإذا وجد نقص فإن المقصرين يعاقبون على ذلك أشد العقاب ويوجه إليهم اللوم ويعنفون كثيرا، ومع أنهم يكونون مشتركين فى المعركة أحيانا فإنهم يستقدمون كل ما يفيد من أنواع الضرائب والمكوس بينما تظل خدماتهم ومؤنهم التى تؤديها نساؤهم وأفرادهم الذين يتخلفون ويبقون فى بيوتهم كما هى لدرجة أنه إذا حدث أمر ما وألزم شخص ما على القيام به ولم يكن الرجل حاضرا فإن على زوجته أن تخرج بنفسها وتؤدي هذه المصلحة. وأعدوا مكانا لعرض الجند وإحصائهم.

وألغوا دفتر العرض، وعزلوا أصحابه ونوابه، وقسموا الخلائق إلى مجموعات تضم كل مجموعة عشرة، وعينوا واحدا من كل عشرة أميرا على التسعة الباقين، واختاروا واحدا من بين كل عشرة أمراء وأسموه أميرة المائة، وأخضعوا المائة كلها لأمره. وتمضى هذه النسبة حتى الألف، فإذا ما وصلت إلى عشرة آلاف، نصبوا عليهم أميرا يدعوونه بأمير التومان.

ووفقا لهذه الترتيبات وعلى هذا النسق والقياس فإن كل مصلحة تطرأ وتحتاج إلى فرد أو شيء ما فإنهم يحيلونها إلى أمير التومان الذى يحيلها بدوره إلى أمراء الألوف، وتتدرج فى الترتيب حتى تصل إلى أمير العشرة، وهناك مساواة حقيقية بينهم. فإذا ما ألحق شخص ضررا بآخر لا يفرقون بينهما ولا يقيمون اعتبارات للثروة والمكانة التى يتمتع بها، فإذا ما احتاجوا إلى جند فجأة فإن الأمر يصدر بضرورة وجود بضعة آلاف فى وقت محدد وساعة معينة فى ذلك اليوم أو تلك الليلة فى موضع معين، "لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون"^(١)، ولا يتقدمون ولا يتأخرون طرفة عين، يذعنون لأوامر الخان، وينقادون له لدرجة أنه إذا ارتكب أمير المائة ألف خطأ بسيطاً وكان بينه وبين الخان مسافة كبيرة فإن الخان يرسل إليه فارسا يعاقبه حسب الأوامر الصادرة إليه، فإذا كان الأمر قد صدر بقطع رأسه قطعها وحملها معه، وإذا طلب ذهباً حصله وأخذته منه.

ليس كالملوك الآخرين الذين يجب عليهم أن يتحدثوا بحذر شديد مع مملوكيهم الذين اشتروهم بذهبهم وأموالهم والذين كلما رأى الواحد منهم لنفسه عشرة جياذ فى حظيرة لا يقول شيئاً، فإذا ما خولوه سلطة الإشراف على جيش ما وحصل له من جراء ذلك ثروة وسلطة كبيرة فإنهم لا يستطيعون إقصاءه عن منصبه، وهؤلاء غالباً ما يعلنون التمرد والعصيان، وإذا ما عقد هؤلاء الملوك العزم على مواجهة عدو ما أو هاجمهم عدو من الأعداء احتاجوا الكثير من الشهور والأعوام حتى يرتبوا جيشهم وينظموا جنودهم، وينفقون الكثير من الأموال مرتبات للجند واقطاعاتهم، وحينما يستوفون الرسوم والجرايات فإن عدد الجنود يزيد عن المئات والألوف، فإذا ما نشبت معركة تلاشت صفوفهم ولم يبرز أحد منهم إلى ميدان القتال والمبارزة مثلما يقدم الراعى حساباً عن عمله فيقول المحاسب: كم عدد الخراف التى بقيت؟ فيسأل الراعى: أين؟ فأجاب: فى الدفتر. فقال الراعى: من أجل هذا أقول إنه ليس فى القطيع خراف. وهذا تمثيل صادق لجيشهم، وكل أمير فى سبيل زيادة حصته من مرتبات جنوده يقول إنى أملك عدداً كبيراً من الجنود. وفى يوم العرض يقلد كل واحد منهم الآخر مزوراً حتى يصل إلى الإحصاء الدقيق.

(١) الأعراف الآية: ٣٤.

ومن القوانين الأخرى التى سنتها الياسا تحريم انتقال أى فرد من الألف أو المائة أو العشرة من مكانه الذى أحصى فيه إلى مكان آخر، ولا يستطيع أن يتخذ ملجأ آخر، ولا يمكن لأى شخص إرشاده أو إيواؤه، وإذا خالف هذا الحكم أى شخص فإنهم يقتلونه أمام الناس، وأما من آواه فإنهم يعاقبونه وينكلون به، ولهذا السبب فإن أى شخص لا يستطيع أن يرشد أو يؤوى أى مخلوق آخر، فإذا كان هناك أمير مثلا فإنه لا يستطيع أن يؤوى شخصا آخر حتى ولو كان من العامة، ولا يستطيع أن يتجنب عقاب الياسا، ولهذا فإن أى شخص لا يقدر أن يتستر على أميره أو قائده ولا يستطيع آخر أن يقويه أو يخدعه.

والأمر الآخر من قوانين الياسا أنهم يجمعون كل فتاة حسناء تكون فى الجيش ويوصلونها من العشرة على المائة، وعلى كل شخص أن يجرى اختيارا آخر حتى أمير التومان الذى يجرى اختيارا بدوره بينهم ويرسل الفتيات المختارات إلى الخان أو الأمراء حيث يجرون عليهن اختيارا آخر، فاللاتى يرونها مناسبات وتقر بهن أعينهم يطبقون عليهن الآية الكريمة "إمساك بمعروف" وعلى الباقيات "تسريح بإحسان"^(١).

وأمر آخر هو أنه حينما اتسعت ساحة دولتهم، وترامت أطراف ممالكهم، وحدثت حوادث مهمة، أصبح من الضرورى معرفة أحوال أعدائهم وأخبارهم، وأصبح من اللازم نقل البضائع والأموال من الغرب إلى الشرق ومن أقصى المشرق إلى بلاد المغرب.

ومن أجل هذا فقد أقاموا فى طول البلاد وعرضها نزلا للبريد (يامها) وأعدوا الترتيبات اللازمة لكل نزل وعينوا له ما يلزمه من الرجال والحيوانات والأكولات والمشروبات وسائر الآلات الأخرى ووزعوها على التومانات وعينوا لكل تومانيين نزلا واحدا.

(١) سورة البقرة الآية: ٢٢٩.

وأصبحوا يوزعون الأموال وفقا لعدد النفوس، ولم تكن مرابط الجياد بعيدة عن ممر السفراء، حتى لا تتحمل الرعية والجيش المشاق والمتاعب، وفرضوا على الرسل والسفراء أحكاما صارمة للمحافظة على الحيوانات وغيرها مما يطول ذكره، ويقومون بتفقد دور البريد عاما بعد عام ويأخذون من الرعية تعويضا عما نقص منها.

وحينما تمت السيطرة لهم على سائر البلاد والعباد قاموا وفقا لما هو متبع عندهم بوضع نظام لإحصاء السكان وحصرهم وصنفوهم إلى عشرات ومئات وآلاف، وحملوهم نفقات الجيش ودور البريد والخراج والعلف غير ما حصلونه منهم من أموال بالإضافة إلى ذلك حتى أثقلوا كاهلهم بالضرائب.

ولهم عادة أخرى يجرون عليها تقضى بأنه إذا توفي موظف أو واحد من الرعية فإن ما يخلفه لا يهتمون به ولا يتعرض له أى مخلوق سواء أكان كثيرا أم قليلا، وإن كان رجل يورث كلاله أو امرأة يعطون تلميذه أو غلامه ما تركه، وخلاصة القول أن مال الميت لا يمكن أن يوضع ببيت المال أو خزانة الدولة، ولا يتفاعلون بذلك.

وقد أرسلنى هولاكو إلى بغداد وكانت ضرائب التراكات تنقل كاهل الأهليين فى جميع أنحاء الولاية، فألغيت هذا النظام وأسقطت هذه الضرائب التى كانت مفروضة منذ زمن بعيد على بلاد تستر وبياب، ومثل هذه القوانين كثيرة، وإثبات كل واحد منها أمر يطول شرحه، لهذا نكتفى بهذا القدر.

ذكر خروج جنكيز خان وبداية انتقال سلطة ملوك الدنيا وممالكها إليه وشرح ذلك على سبيل الإيجاز

قبائل وشعوب المغول كثيرة، إلا أن قبيلة قيات تفضل القبائل الأخرى المشهورة الآن من حيث الأصالة والعظمة، وقد كان آباء جنكيز خان وأجداده سادة لهذه القبيلة ورؤساء عليها، وهم ينتسبون إليها، وكان جنكيز خان يسمى في بداية حياته باسم تمرجين^(*)، وظل كذلك حتى استولى على ممالك الربع المسكون، وفقا لسابق التقدير، وحكم كن فيكون.

وفي ذلك الوقت كان أونك خان سيدا لقبائل ساقيز^(١) وكريت التي كانت أكثر قوة وشوكة من القبائل الأخرى تفوقها عدة وعتادا وعددا، ولم تكن قبائل المغول آنذاك يسود بينها الوئام والاتفاق ولا تطيع الواحدة منها الأخرى، وحينما ترك جنكيز خان مرحلة الطفولة وانخرط في سلك الرجولة صار في الاقتحام أسدا ضاريا وفي الاصطدام سيفا بتارا ذا بأس شديد في قهر الخصوم، وفي عقابه للأعداء والخصوم مذاق السم القاتل، ولصرامته وهيبته فعل الدهر في كسر شوكة أصحاب الدول والتيجان، وكان كثير التردد على أونك خان في كل وقت لدنو الديار وقرب الجوار، وكان بينهما ود ومحبة، فلما رأى أونك خان صواب رأيه وسديد فكره ولاحظ شجاعته وعظمته وهيبته أعجب بصرامته وشهامته، وبالع في إكرامه وإعزازه وزاد في رفع منزلته وإعلاء مقامه يوما بعد آخر، حتى فوض إليه أمور البلاد وشئونها، ونتيجة لنظامه وسياسته استقامت أمور جيوش أونك خان ومعيته،

(*) تموجين وتمرجي.

(١) يقول بلوشيه إن ساقيز هي قبيلة النايमान ومعيته، فكلمة ساقيز في اللغة التركية تعني العدد ثمانية ونايمان باللغة المغولية بهذا المعنى.

فتألم أبناء أونك خان وإخوته وبخاصة المقربون منه، وامتألت نفوسهم حقدا وحسدا على ما نعم به جنكيز من منزلة وقربة ونفوذ فأخذوا فى طرح شباك المكر والخداع كلما ساحت الفرصة لذلك وأخذوا يغزلون حبال الغدر والوقيعة لتقبيح صورته وسمعته، وأخذوا يعدون ويرتبون فى مكامن خلواتهم قصصا وأحاديث عن استيلائه واستعلائه ويكررون الأحاديث عن ميل الناس إليه واقترابهم منه والتفافهم حوله، يكررون لأونك خان ذلك المعنى كناصحين وأهل خير، حتى شك أونك خان فى أمره، ويتش من إصلاح الأمر على يديه ودب الخوف والاضطراب فى قلبه من بأسه وسطوته وقوته وتمكنه منه، ولما كانت مواجهته ومنازعته ومخاصمته له نهارا جهارا أمرا متعذرا، فكر فى دفعه بالمكر والخديعة، وأن يمنع بالحيلة والغدر السر الذى وهبه الحق تعالى لتقويته، فاتفقوا فيما بينهم على أن يغيروا عليه وعلى رجاله ليلا، وأن يهاجموهم وقت السحر بينما العيون مكتحلة بالنوم الهادئ الجميل، والخلائق غافلون وقد أسلموا للراحة والهدوء، وأن يخلصوا أنفسهم بهذا من مخاوفهم التى تتراءى لهم، وأعدوا أنفسهم لهذا العمل واستعدوا له لتنفيذ تلك العزيمة.

ونظرا إلى أن الحظ كان حليفه والسعادة رداءه فقد هرب طفلان من أونك خان أحدهما يدعى كلك والآخر باده وأخبرا جنكيز خان بخبث عقيدة أونك خان وأتباعه ورجس مكيدتهم، فهب جنكيز خان على الفور وأجلى أهله وقومه ونقلوا خيامهم من أماكنها، فلما عدوا على موضع خيامهم فى وقت السحر ألفوها خالية خاوية. وعلى الرغم من اختلاف الروايات فى هذا المقام، هل عادوا من بعد ذلك، أم انطلقوا فى أثرهم باحثين عنهم، فإن مما يمكن استنباطه من هذه الحكايات أن أونك خان قد جد فى طلبه مع عدد كبير من قومه، وكان مع جنكيز خان نفر قليل من الأتباع، والتقى الفريقان عند عين ماء يقال لها "بالجونة" وبذل فى الحرب جهودا جبارة، وفى أونك خان ورهطه، وفى النهاية تمكن جنكيز خان مع نفره القليل من الانتصار على الكثير، وغنم منه مغانم كثيرة، وقد حدث هذا فى شهر سنة تسع وتسعين

وخمسمائة. وسجلت أسماء جميع من اشتركوا وصاحبوه فى هذه المعركة من
وضيع أو شريف، أمير أو غلام، فرّاش أو سائس، سواء كان من الترك أو
التازيك أو الهنود، ومنح هذين الغلامين لقب ترخان، وكان هذا اللقب يعفى
حامله من جميع المؤن والواجبات وأن تسلم إليهم كل غنيمة يغنمها الجيش
الذى هم فيه، وأن يدخلوا إلى الحضرة السلطانية كلما أرادوا ودون استئذان
ومنحهم قوات ورجالا وكثيرا من الحيوانات والحياد ووسائل الزينة التى
تفوق الحصر والعد، وأن لا يؤاخذوا على الذنوب التى يقترفانها مهما كثرت
وأن يراعى اتباع ذلك فى نسلهما وأعقابهما حتى الجيل التاسع لهما، ويوجد
الآن من نسل هذين الشخصين كثير من الأقوام، حيث يلقون الكثير من
الاحترام والتقدير فى سائر الممالك والأقطار، ويحظون بالمزيد من الإعزاز
والوفاء لدى السلاطين، وأما الأقوام الأخرى فقد نال كل فرد منهم مهما كان
مرتبه عالية ونال الفراشون والحمالون حظوة ومقاما كبيرا، فقد صار بعضهم
ملوك العصر والزمان ووصل بعضهم إلى المناصب الكبرى، وطبقت
شهرتهم الآفاق.

وحيثما قوى جيش جنكيز خان واشتد عوده وحتى يحول بين أونك
خان وإعادة بناء جيشه واستعادته لقوته فقد أرسل جيشا فى عقبه وحاربه فى
معركتين انتصر فى كليتيهما، وهزم أونك خان وأسر أهله وقومه حتى النساء
والبنات، وقتل هو أيضا فى النهاية.

وحيثما ارتفع شأن جنكيز خان واستعلت كواكب سعادته، أرسل
السفراء إلى القبائل الأخرى وأدخل فى زمرة أمرائه وحشمه كل شخص
أعلن الانقياد له والإذعان لأمره من القبائل الأخرى مثل الأويرات
والقنقورات وشلمهم بعنايته ورعايته، وأما من طغى وتكبر وأثر التمرد
والعصيان فقد دمره بسياط البلاء وسيوف الدمار والفناء، حتى اتحدت القبائل
جميعها تحت حكمه وأذعنت لسلطانه وأمره. أرسى قواعد وأسسًا جديدة
وبسط بساط العدل والإنصاف، وقضى على ما كان بينها من عادات ذميمة
وصفات قبيحة من سرقة وزنا، وقد ذكر بعض هذا فيما سبق.

وخرج فى تلك الأثناء شخص كان كما سمعت من بعض ثقات المغول قد قضى أياما عدة عاريا بين الصحراء والجبال فى البرد الشديد الذى يغلف تلك الأنحاء ثم عاد وقال: "تحدث إلى ربي قال: 'لقد منحني وجه الأرض قاطبة إلى تمرجين وأولاده وقد أسميته جنكيز خان، فأخبره بهذا حتى يبسط بساط العدل"، ويطلقون على هذا الشخص اسم 'بَت تنكري'".

ولم يعدل جنكيز عن أى شيء مما قاله هذا الرجل، فقوى أمر هذا الرجل واجتمع حوله من الحشم الكثير ودارت فى رأسه سوداء الملك والسلطان.

وذات يوم خلال إحدى الولايم قامت بينه وبين أحد أبناء جنكيز مشادة كلامية فطرحه الابن فى نفس المجلس أرضا طرحة لم ينهض بعدها.

وخلاصة القول أنه أرسل الرسل إلى بلاد الختاي بعد أن طهرت تلك المناطق من الطغاة، وبعد أن صار جميع أفراد القبائل جنودا له، ثم مضى بنفسه أيضا وقتل التون خان ملك الختاي واستولى على مملكته، كما فتح ممالك أخرى بالتدريج كما سيأتى ذكر كل واحدة منها على حدة.

ذكر أبناء جنكيز خان

كان لجنكيز خان من نسائه وجواريه الكثير من الأولاد ذكورا وإناثا^(١)، وكانت يسونجين بيكى^(٢) كبرى وفضلى الزوجات، ووفقا لعادة المغول فإن منزلة أبناء أب من الآباء تختلف باختلاف منزلة الأمهات، فإذا كانت الأم أكبر منزلة ازداد أبنائها منزلة ومقاما، وكان لجنكيز خان من هذه الزوجة أربعة أبناء اضطلعوا بعظائم الأمور وجلال الأعمال وكانوا لعرش المملكة عمدا أربعة ولإيوان السلطنة أركاناً أربعة.

اختص جنكيز خان كل واحد منهم بعمل من الأعمال، فعهد إلى توشى وهو أكبرهم بشئون الصيد والطرود الذى كان عندهم أمرا كبيرا ومحبيبا، واختار جفتاي^(٣) الذى كان أصغر منه لتنفيذ أحكام الياسا والالتزام بها ومعاقبة مخالفيها، واصطفى أوكتاي^(٤) لما يتصف به من رجاحة عقل وحسن رأى وتدبير لإدارة الملك، ورجح لتولى أمر ترتيب الجيوش وتجهيز الجنود، فلما فرغ من أمر أونك خان وخضعت القبائل المغولية لأمره بعضها طواعيه واختيارا وبعضها إذلالا وإجبارا - وأضحوا جميعا تحت أمره ورهن مشيئته، قسم قبائل وأقوام المغول والنايمان وسائر الجيوش على أبنائه المذكورين، وعين لكل فرد من أبنائه الصغار الآخرين وإخوته وأقاربه نصيبا من الجند، ثم شرع بعد ذلك فى تشييد بناء الوفاق وإرساء دعائم الألفة

(١) تذكر دائرة معارف فارس ج ١ أن عدد زوجاته يزيد عن خمسمائة امرأة. ١٣٤٥ هـ - تهران.

(٢) ورد اسم هذه السيدة فى جامع التواريخ ج ١ ص ٥٦٣ "برزين" باسم بورته فوجين، ويقول بلوشيه Blochet إن يسونجين تعنى باللغة المغولية المرأة الحسنة، ويبدو أن يسونجين كان لقباً لها واسمها هو "بورته فوجين"، ويذكر بويل Boyle ص ٤٠ أن اسمها الحقيقى هو بورته Borte، ومن الجائز أن يكون الجوينى قد خلط بين اسمها واسم زوجة هولكو والدة خليفته أباقا فقد كان اسمها هو يسونجين.

(٣) يذكر فى التاريخ المسمى للمغول باسم Ca'adai.

(٤) يذكر فى التاريخ المسمى للمغول باسم Ogodaï.

بين الأبناء والإخوة، فغرس بذور الوفاق والوئام في صدور الأبناء والإخوة والأقارب، ونقش في قلوبهم صورة التعاضد والمساعدة وأحكم ذلك البناء وأرسى تلك القاعدة بضرب الأمثلة، وذات يوم جمع أبناءه واسئل سهما من غمده وكسره ثم استبدل بالواحد اثنين وكسرها كذلك ثم أخذ يزيد واحدا بعد الآخر حتى كثر عددها وعجز الأبطال الأقوياء عن كسرها، ثم توجه إلى أبنائه وقال: هذا مثلكم، فالسهم وحده ضعيف فإذا ما تضاعف عدده برفاقه كانوا لبعضهم عوناً وسندا يعجز الأبطال عن كسره والنيل منهم ويقرون بالعجز والضعف حياله فما دامت مظاهر التأييد ظاهرة بينكم أيها الإخوة اشئت ساعد^(١) كل واحد منكم بمساعدة الآخرين، ولن يستطيع أصحاب الشوكة والقوة النيل منكم أو الانتصار عليكم، وإذا لم يكن بينكم رئيس يطيعه الآخرون من الإخوة والأولاد والأعوان ويتبعون رأيه وينفذون أمره يكون مثلكم مثل الحية التي تعددت رعوسها، واشئت البرد ذات ليلة فأرادت الولوج في جحر يقيها البرد ويدفع عنها غائلته، فإذا ما دخل رأس نازعه الآخر، حتى تهلك جميعها، وأما الحية ذات الرأس الواحد والأذنان الكثيرة فقد دخلت الجحر وهيات لذنبيها وجميع أعضائها وأجزائها مكاناً ونجت جميعها من البرد وشدته.

وألقى عليهم من أمثلة هذه النظائر وأشباهها الكثير حتى استقرت تلك النصائح والأقوال في ضمائرهم وقد التزموا ذلك فيما بعد، فمع أن الحكم والسلطان كان في الظاهر لواحد منهم يتقلد الخانية ويتسم بها فإنهم في الحقيقة كانوا جميعاً من أولاد وأحفاد وأعمام مشتركين في الملك والأموال، والدليل على ذلك أن ملك العالم منكو قا أن قد قسم في الاجتماع العام الثاني الكبير (القوريلتاي) الممالك ومنح جميع الأنساب من بنين وبنات وإخوان وأخوات نصيباً منها، وحينما اتسعت عرصة المملكة في عهد جنكيز خان عين لكل فرد موضع إقامته الذي يقيم فيه والذي يسمونه يورت، أي الموطن، فعين أخاه أوتكين نويان^(٢) وجماعة أخرى من أحفاده في مناطق

(١) في المتن "مساعدة" وفي النسخة (د) ساعد، وقد ترجمتها وفق النسخة (د).

(٢) يقول رشيد الدين، ج ٢ برزين ص ٩٧ في أثناء حديثه عن أبناء يموكاي بها دور والد جنكيز "بسر جهارم: تموكه أوتجلين تموكه نام است وأوتجكين يعني خدولند آتش وبورت، وبسر كوجكين أوتجكين كونيذ".

بلاد الختاي، وأعطى ابنه الأكبر توشى المنطقة الممتدة من حدود قبالينغ^(١) وخوارزم حتى أقصى بلاد السقين^(٢) والبلغار وهى أقصى منطقة ذهبت إليها حوافر جيات التتار، واختار لجفتاي المنطقة الممتدة فى حدود بلاد الأويغور حتى سمرقند وبخارى، وكان مقامه فى قناس بجوار المالينغ^(٣)، وكانت عاصمة أوكتاي -الذى كان وليا للعهد- تقع فى موطنه فى عهد والده من حدود إيميل^(٤) وقوتاق.

فلما ارتقى عرش السلطة انتقل إلى الموضع الأصلي الذى كان بين الختاي وبلاد الأويغور وأعطى ذلك المكان لابنه كيوك وذكر منزله مثبت على حده فيما بعد، وكان تولى أيضا متصلا به ومجاورا له، وفى الحقيقة كان ذلك الموضع وسط المملكة وكان منها مثل المركز من الدائرة.

وما سبق ذكره ما هو إلا قليل من كثير، فأولاد جنكيز خان وأحفاده يزيدون عن عشرة آلاف لكل منهم مقامه وموطنه وجنوده وعدته الخاصة به، وليس ضبط ذلك بالأمر اليسير وكتابته ليست بالإمكان كذلك والهدف من ذكر ذلك إظهار اتحادهم ووافقهم بخلاف ما يروى عن الملوك الآخرين الذين يعتدى فيهم الأخ على أخيه، ويفكر الابن فى التخلص من أبيه والجلوس مكانه، فلا جرم أن غلبوا على أمرهم وذاقوا وبال أفعالهم وانتكست دولة كل واحد منهم ونكبت بهم. قال الله تعالى: "ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم"، انظر كيف انتصر أبناء جنكيز خان على العالم كله لما ساد بينهم من اتفاق وونام، وكيف أبادوا الأعداء وانتصروا على العالم كله، والمقصود من إثبات تلك الحكايات وكتابة التاريخ أن يستفيد العاقل من تجارب الآخرين دون معاناة لها ومكابدة لمخاطرها وأن يتجنب سلوكه بمطالعة مثل هذه المقالات.

(١) قبالينغ: اسم مدينة فى تركستان الشرقية بجوار كاشغر وختن وكانت خاضعة لملوك الترك المعروفين باسم الخانية. حواشى للتزوينى ص ٣١.

(٢) كانت مدينة على نهر القولجا.

(٣) المالينغ: اسم مدينة كانت قرب مدينة كولجة الحاقية الواقعة على نهر إيلي الذى يصب فى بحيرة بالكاش الواقعة فى ولاية تيان شان فى غرب الصين.

(٤) إيميل اسم نهر يقع غرب المنطقة المغولية، ويصب فى بحيرة الأكلو ويسمونه الآن إميل وإيميل.

ذكر الاستيلاء على بلاد الأويغور وخضوع أيدي قوت

كان أتراك الأويغور يسمون أميرهم "أيدي قوت"^(١) ومعناه سيد الدولة، وكان أميرهم هو "بارجوق"^(٢)، وفي ذلك للربيع استولى قراختاي على بلاد ما وراء النهر وتركستان فدخل بارجوق أيضا في طاعته وقبل دفع الجزية له وأرسل إليه شحنة له كان اسمه شاوكم^(٣)، فلما استقر شاوكم في الحكم سلك سبيل الظلم والاستهزاء بأيدي قوت وأمرائه حتى نفر الأمراء والرعية، فلما استولى جنكيز خان على بلاد الختاي وذاع صيته وشاع أمر انتصاره أمر أيدي قوت بعض رجاله فقتلوا شاوكم ووضعوه في أحد المنازل في قرية تسمى "قراخواجة" وهدموا المنزل فوقه، فأرسل قتالمشي قتا وعمر أوغول وتارباي إلى بلاد السلطان فاتح العالم جنكيز خان معلنا الانشقاق والعصيان على القراختاي ومذعنا ومستسلما لجنكيز خان، فأكرم وفادة الرسل وأمر بإعزازهم وإكرامهم، ونوه برغبته في ضرورة حضور أيدي قوت إليه بنفسه، فسارع إليه امتثالا لأمره، وحينما وصل إلى هناك شاهد ما وعد به من وعود، وعاد محملا بالهدايا والهبات.

وحينما تحرك الجيش قاصدا كوجاك تلقى أيدي قوت أمرا بضرورة مجيئه هو وعدد من أبطاله من نواحي الأيوغور فسار إليه مع ثلاثمائة من رجاله تنفيذا للأمر الصادر إليه، وقدم إليه مساعدات كثيرة.

(١) في حين يذكر أبو الغازي بهادر أن معنى أيدي قوت هو الروح المرسل، ويتفق رشيد الدين في جـ ١ ص ١٥٩ من جامع التواريخ مع الجويني، بل إن رشيد الدين في حنيته عن الأويغور يتبع الجويني في فقرات كثيرة كلمة بكلمة.

(٢) ينكره رشيد الدين باسم باورجق، جـ ١ برزين ١٥٩.

(٣) ينكره رشيد الدين جـ ١ صفحة ١٥٩ شانكم.

وحينما عاد الجيش من تلك الغزوة، لازم أيدي قوت قومه وأهله بتصريح من جنكيز خان حتى إذا ما عزم جنكيز خان على التوجه بنفسه إلى بلاد السلطان محمد "أمر بأن يمتطى أيدي قوت جوادا ويلازم جيشه ويسير معه، وفي الوقت الذي توجه فيه الأميران جغتاي وأوكتاي لمحاصرة أترار والاستيلاء عليها كان في صحبتهم كذلك، وبعد الاستيلاء على أترار سار ترباي ويستور وغداق متوجهين إلى وخش وما يجاورها، فأوفده جنكيز خان لمصاحبته أيضا.

وحينما وصلت الرايات السلطانية إلى المخيم القديم، وتوجه جنكيز إلى تنكوت، فقد توجه هو أيضا من بيش باليغ مع جيشه تنفيذًا للأمر الصادر إليه، ونتيجة لهذه الخدمات والأعمال الجليلة فقد خصه جنكيز بمزيد من العطف وكثير من الاحترام، وخطب له واحدة من بناته.

إلا أن ابنته توقفت في الطريق بسبب وفاة جنكيز، وعاد هو إلى بيش باليغ، حتى إذا ما تربع القا أن على عرش السلطة أنعم عليه - تنفيذًا لأمر والده - بالتون بيكي التي أدركتها الوفاة قبل وصولها إليه بفترة وجيزة، وبعد مدة قصيرة خطب له القا أن ألاجي بيكي، إلا أن أيدي قوت توفي قبل تسليمه إياها فقدم ابنه كسمين إلى الحضرة السلطانية وحل محل أبيه ولقب بأيدي قوت وتزوج بالأجين بيكي، وبعد مدة وجيزة رحل أيدي قوت كسمين عن دار الدنيا وقام مقامه بأمر من توراكيينا خاتون أخوه ساليدي ولقب بلقب أيدي قوت، وقد استقرت له الأمور وتمكن في الحكم وكان محترما، والله الموفق.

ذكر بقية أحوال الأويغور

مع أنه كان من الواجب أن يثبت هذا التقرير بعد التحدث عن جلوس منكو قا آن فإن سياق القول جعل إثبات هذه الحكاية في هذا الموضع لائقاً ومناسباً.

حينما تولى ملك العالم منكو قا آن مقاليد الحكم وأسندت السلطة إليه، اضطربت الأمور نتيجة للغدر الذي كانت جماعة قد فكرت فيه، فأرسلت هذه الجماعة إلى أيدي قوت رسولا يدعى بلا بيتكجي مكان إغوريا بوزيا، وتبوأ في السلطة مكاناً مهماً والجنسية علة الضم تمكن من إغرائه بالكثير من الوعود والأمانى العديدة لتنفيذ طلباتهم التي كان من بينها أن يقوم الأويغور بقتل جميع المسلمين الذين يقطنون بيش باليغ وما يجاورها، وأن يسلبوا أموالهم ويأسروا أولادهم وأن يعدوا خمسين ألف فرد حتى يكونوا عوناً ومدداً إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، واشترك معهم في هذا التدبير من أمراء الأويغور بليكافتي وتوكميش بوقا وساقون وإيدكاج وانفقوا على أن يخرج الأويغور عليهم في مكانهم إلى ساحة المسجد الجامع في يوم الجمعة حين الانتهاء من الصلاة ويكذبوا عليهم حياتهم ويمزقوا جيش الإسلام شر ممزق:

فهم يطفنون المجد والله موقد وهم ينقصون الفضل والله واهب

ولإتمام هذا الاتفاق وتنفيذ هذه النية أقام أيدي قوت خيمة في الصحراء محتجاً بأنه في طريقه إلى بلاد غايمش وخواجة وناقو، واجتمعت أفواج من الأويغور حوله.

وكان هناك غلام يدعى تكميش وهو من أفراد بيلكافتي قد استرق السمع ذات ليلة وسمع مكرهم واطلع على تدبيرهم وأخفاه في نفسه، حتى حدث بعد أسبوع أن تعارك مع أحد المسلمين في قارعة السوق فقال له:

"افعل كل ما تستطيع فسينتهى عمرك بعد ثلاثة أيام"، وكان الأمير سيف الدين - الذى كان ينعم بمقام كبير وهيبة عظمى وقد أضحى من كبار رجال الحضرة - موجودا فى ببش بالبلغ آنذاك، فأخبره المسلمون بهذا القول فاستدعى تكميش وبحث معه واستفسر منه عن سر ما قال فى أثناء نزاعه فأعطاه تكميش تقريرا وافيا عن كل ظروف الحال وتفكير المعارضين وأسلوبهم، وخلال هذين اليومين وصل نبأ جلوس سلطان العالم^(١) واتضحت أحوال المخالفين وتخلّى أيدى قوت عن تلك الفكرة مضطرا وولى وجهه قاصدا الحضرة فأرسل الأمير سيف الدين رسولا لاستدعاء أيدى قوت من الطريق، فلما عاد ومعه مرافقوه ووصل إلى الأمير سيف الدين ووجهوا بتكميش وقبولوا به فلم يترجع عن أقواله وأيد روايته بذكر الوقت والساعة والمكان فى أثناء المشاورة والتدبير فأصابتهم الحيرة وغشيتهم الدهشة واضطربت عقولهم وتلاشت آراؤهم، ولم يكن هناك مجال آخر سوى الإنكار فأنكروا ذلك ونفضوا أيديهم من هذا الأمر، وبعد قليل وقال وصياح وجدال من ناحية أيدى قوت ورفاقه برئت ساحتهم وصحح تكميش أقواله وغيرها وأقروا ذلك كتابة.

وأخذوا من الأويغوريين الآخرين الذين كانوا معه إقرارا وتعهدا نص على أنه إذا ثبت أنه كان لأحد منهم علم بهذا ويخفيه وإذا ظهرت فتنة أو خديعة بعد هذا يكون من المجرمين ويكون دمه وماله مباحا، فنهض تكميش وقال: إن هذا الأمر لا يمكن البت فيه إلا فى ببش بالبلغ ولهذا فإنى ذاهب إلى الحضرة السلطانية حتى يتم بحث ذلك واستقصاؤه ومناقشته فى المحكمة الكبرى "بأرغوى ترك".

فأرسل الأمير سيف الدين تكميش فى المقدمة مع رسول لإنهاء هذا الأمر وأمره بالتوقف قليلا وانتظار أيدى قوت وأتباعه فمكث قليلا ولم يصل أيدى قوت فأحضر تكميش بيلاتكجى إلى المحكمة، فلما أنكر عروؤه وفق

(١) يقصد منكوقا أن بن تولى بن جنكيز خان.

عادتهم من ثيابه وتركوه كما ولدته أمه وأوسعوه ضربا بالمطارق التى يدقون بها الطبول حتى اعترف فى النهاية بحقيقة الأمر واتفاقهم على مخالفة سلطان العالم منكوا قاً آن ومعارضته على النحو الذى ذكره تكميش فأخلوا سبيله وتركوه، وسيروا تكميش مع رسول آخر يدعى مكنقولات لإحضار أيدى قوت الذى ولى هارباً حين سماعه نبأ الرسل متخذاً طريقاً آخر غير طريقهم، وبعد أن صال تكميش وجال فى بيش باليغ وقدم له كل فرد من الأويغوريين الرشوة خوفاً على حياته بل وقدموا له الكثير من الخدمات مضى فى أثر أيدى قوت إلى الحضرة السلطانية، وأخذ منكسار نوبن فى بحث الأمور واستقصاء الأحوال، إلا أنهم أخرجوا العقاب لإصرار أيدى قوت على الإنكار، ثم ربطوا يديه حتى سقط على وجهه بسبب عجزه، وأحكم الموكل لوحاً خشبياً فوق جبهته ثم انتزعه عنه، وكان جزاء الموكل على هذا العمل أن ضرب سبعة عشر سوطاً على موضع إزاره.

وظل أيدى قوت على إصراره وإنكاره فواجهوه بتكميش بوقا الذى قال له لن تكون هناك فائدة أو مخرج من هذا سوى الصدق فلم يعترف بأقوالهم التى جرت بينهم وظل على إنكاره. وأحضروا بلابيتكى أيضاً الذى اعترف فى مواجهة أيدى قوت بجميع الأقوال والأحاديث التى جرت بينهم من بدايتها حتى نهايتها فقال أيدى قوت متعجباً أشد العجب، هل أنت بلاء؟ ولما كان اسمه بلا قال: نعم. واعترف أيدى قوت أيضاً، فكفوا قيوده وأجلسوه بعيداً، وأقر بلابيتكى بعد أن سلكوا معه كل طرق الاستجواب والاستفسار واعترف بجرمه، ثم استجوبوا الاثنين أو الثلاثة الباقين كلا على حده فأقروا بما تخفيه صدورهم بعد أن ذاقوا وتجرعوا كنوس العذاب وبعد أن ساموهم صنوف الإيذاء من خشب التتار وعصيم الخشنة، ثم أحضروا هذه الجماعة كلها بعضهم فى مواجهة بعض دون قيود أو سلاسل وسألوهم عن أقوالهم السابقة التى أقروا ووافقوا عليها مخالفين ومعارضين، قالوا أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون"، فلما أقروا واعترفوا بالإجماع على ذلك وعرضوا أمرهم على رأى سلطان العالم السديد

أمر بأن يعود أيدي قوت ورفاقه في مصاحبة السفراء إلى بيش باليغ، وأن يجمعوا الناس جميعا من موحدين وبوذيين في الصحراء في يوم الجمعة الذي تم الاتفاق على مهاجمة المؤمنين فيه وأن يبلغوهم بأمر السلطان مالك الرقاب، فقطع أو كنج أخو أيدي قوت رقبة أخيه بيده وشطروا صديقيه الآخرين بيلكافني وإيدكاج نصفين وطهروا تلك الناحية من أثر مكيدتهم ورجس عقيدة هؤلاء الكفرة الفجرة فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين"، وهكذا عز المؤمنون، وذل عبدة الأصنام بفضل البارئ تعالى.

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

وكان بلايتكجي من زمرة أمراء أوغول غايش وكان قد سجن قبل ظهور هذا السر وتلك الخديعة، وفي أثناء محاكمة وبحث أمر هذه الجماعة وتنفيذ الأحكام فيها، كان قد ينس من الحياة وأحضره مع قوم آخرين إلى الصحراء وعروهم من ثيابهم حتى ينفذوا فيهم أحكامهم، إلا أن بيكي^(١) نتيجة للمرض الذي ألم بها واشتدت وطأته عليها قد عفت عنه، وطلبت ذلك من الجماعة الموكلة بالتنفيذ حتى يكون ذلك سببا لطول عمرها، ونجا من تحت السيوف.

ألا ربما ضاق الفضاء بأهله ويمكن من بين الأسنة مخرج

وقد نجا ولم يرق دمه في هذه الحالة أيضا بسبب العفو الذي صدر قبل ذلك، إلا أنهم قبضوا على نسائه وأولاده وحاشيته وما يخصه من صامت وناطق ووزعوه على الناس.

وكان من عادة المغول أن المذنب الذي يستحق القتل إذا نجا بنفسه وروحه أرسلوه إلى ميدان المعركة، ويقولون إنه إذا كان يستحق القتل فإنه سيقتل في أثناء الحرب، أو يرسلونه إلى العصاة والمتمردين برسالة وهم غير واثقين من عودته أو إعادة تلك الجماعة له، أو يرسلونه إلى المناطق الحارة التي يتعفن هواؤها ويفسد جوها، ولهذا أرسلوا بلايتكجي برسالة إلى مصر والشام بسبب حرارة الجو هناك.

(١) يقصد سوقوتى بيكي والدة منكور قا أن.

وحيث إن ساقون لم يشترك في هذه المكيدة وتلك التدابير مشاركة فعالة ولما كان ينعم به من صلة بباثو فقد نجا بضربه على موضع إزاره مائة ضربة وعشرا، وأما تكميش الذي أنبأ عن أفعالهم ومكيدتهم فقد ظفر بالعطف والرعاية ورزقه الحق تعالى شرف اعتناق الدين الإسلامى، وبعد أن سكن غبار الفتنة نهض أو كنج ومضى إلى الحضرة فأحلّه محل أخيه ولقبه بلقب أيدى قوت، وقد حدث ذلك فى شهور سنة ستمائة وخمسين.

ذكر نسب أيدي قوت وبلاد الأويغور حسب زعمهم

بعد كتابة تاريخهم وأحوالهم فإنني أسجل بعضاً من معتقداتهم ومذهبهم الذي سطر في كتابتهم، لا تصديقاً وإقراراً بما روه بل إعجاباً ودهشة مما ذكر. يزعم الأويغور أن بداية نشأتهم وتوالدهم وتتاسلهم كان بجوار نهر أرقون الذي ينبع من جبل يقال له قراقورم والمدينة التي أسر القا أن ببنائها في هذا العهد يطلقون عليها اسم هذا الجبل.

وينبع من هذا الجبل ثلاثون نهراً يسكن بجوار كل نهر قوم آخرون، وكان الأويغور في أرقون فريقين، فلما تكاثر عددهم وازداد جمعهم نصبت الأقوام الأخرى من بينهم أميراً عليهم أقرؤا له بالطاعة واستمروا على هذا النحو مدة خمسمائة عام حتى ظهر بوقو خان. وتتناقل الأقواء الآن أنه إفراسيابي، وأن هناك آثار بئر وحجرًا كبيرًا بجوار سفح جبل قراقورم ويقولون إنه كان بئر بيزن^(١)، وتوجد كذلك آثار مدينة وقصر على شاطئ هذا النهر، وكانت تسمى باسم أردوبالغ ويسمونها الآن ما ووبالغ، وقد شاهدنا خارج آثار القصر وبمحاذاة الباب حجراً مسطوراً نقراً، وقد أزالوا هذه الحجارة في عهد دولة القا آن، ووجدوا بئراً وعثروا فيها على حجر كبير منقور، فصدر أمر بأن يحضر كل شخص يستطيع معرفة هذه الخطوط وحل رموزها، فلم يوفق أى شخص إلى قراءته.

فأحضروا من الختاي قوما يقال لهم (...) ^(٢)، وكان خط تلك الجماعة هو الذي نقر على ذلك الحجر وهذا ما كان مكتوباً عليه:

(١) اسم أحد الأبطال للذين سجلهم إفراسياب Boyle p. 54.

(٢) بياض في المتن. (المحقق)

كان هناك فى الزمن القديم فى ذلك العهد من بين أنهار قراقورم نهران يسمون الأول توغلا والثانى سلنكا وكانا يتصلان معا فى موضع يقولون له قملانجو، وكانت هناك شجرتان متقاربتان بين هذين النهرين يسمون الأولى "قسوق" وهى شجرة على شكل شجرة الصنوبر أوراقها فى فصل الشتاء كأوراق أشجار السرو وثمارها على شكل وطعم جلقرزة، ثمر الصنوبر. ويسمون الأخرى توز، وقد ظهر بين هاتين الشجرتين جبل كبير، وقد هبط وسط هذا الجبل ضوء من السماء وأخذ الجبل ينمو يوما بعد يوم وأصابته الدهشة أقوام الأويغور لمشاهدة هذه الحالة العجيبة فتقربوا منها بأدب وتواضع فاستمعوا عندئذ لأصوات رخيمة حلوة تشدو وتغنى بأعذب الألحان، وكان الضوء يشع فى كل ليلة مسافة ثلاثين قدما حول الجبل حتى بلغ الأمر منتهاه مثلما يحين وضع الحمل للحاملات، فتح أحد الأبواب وكان بداخلها خمسة بيوت، مثل الصمعة منفصل بعضها عن بعض ويجلس فى كل واحد منها طفل صغير قد علفت فى مة بل فى كل واحد منهم أنبوبة تعطى اللبن على قدر ما يريد، وقد علق بأعلى الخيام شبكة من الفضة، فأقبل أمراء القبائل لمشاهدة هذا المنظر العجيب فجتوا على ركبهم تأدبا وإكراما، فلما هبت الريح على تلك الأجسام قويت أجسادهم، وبدأت الحركة تسبب فى أوصال هؤلاء الصغار فأخرجوهم من ذلك المكان، وأسلموهم إلى مرضعات بينما الناس يؤدون لهم مراسم الخدمة والإعزاز، فلما تعدوا طور الرضاع وبدأوا مرحلة النطق والكلام سألوا عن والديهم، فأشار الناس عليهم فأوضحوا لهم أمر هاتين الشجرتين فمضوا إلى هناك وقاموا بتأدية الكثير من الخدمات والواجبات التى يلتزم بأدائها الأولاد للوالدين وأظهروا الكثير من الإعزاز والإكرام للأرض التى أنبتت هاتين الشجرتين فنطقت الشجرتان: "أيها الأعزاء الصغار يجب أن تتحلوا بمكارم الأخلاق وعظيم الخصال وأن تسيروا على الأسلوب الذى عودتم ورؤيتهم عليه، رعاية لحقوق الوالدين أطل الله وخلا إلى الأبد ذكراكم". فأقبلت جميع الأقوام التى تقطن تلك الحدود لمشاهدة هؤلاء الصغار وحبوهم بالكثير من مظاهر الإعزاز والاحترام

اللائقة بالأمراء، حتى إذا ما حل وقت العودة أطلقوا على كل واحد منهم اسماً، فأطلقوا على الابن الأكبر سنقر تكين وعلى الثانى قوتر تكين وعلى الثالث توكاك تكين وعلى الرابع أور تكين وعلى الخامس يوقو تكين، واتفقوا فيما بينهم بعد مشاهدة هذه الحالات العظيمة على أن ينصبوا عليهم أميراً من بين هؤلاء فهم رسل البارئ عز شأنه، فاتفقوا واتحدت كلمتهم جميعاً على تعيين يوقو الذى كان يتميز على إخوته بجمال الوجه ومثانة الرأى والروية حاكماً وملكاً عليهم، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يجيد معرفة جميع لغات وخطوط القبائل كلها فأجمعت عليه القبائل وأقامت احتفالاً نصبته فيه خانا وسلطاناً عليهم فنشر بساط العدل وطوى صحائف الظلم وكثر حشمه وخدمه وخيله وخيوله فأرسل الحق تعالى إليه ثلاثة من الغربان تعرف جميع اللغات حتى تذهب متجسدة إلى كل مكان تكون له مصلحة فيه وتعود إليه مخبرة بأحواله وأمره، وبعد فترة من الزمان وبينما كان قائماً ذات ليلة فى بيته هبطت إليه من نافذة صغيرة بسقف البيت صورة فتاة أيقظته، إلا أنه أنام نفسه من شدة خوفه، وتكرر له فى الليلة التالية ما حدث فى الأولى، حتى إذا ما حلت الليلة الثالثة مضى مع الفتاة منفذاً ما أشار به عليه وزيره حتى وصلا إلى جبل يسمونه أفتاع وظلا يتحادثان حتى أنبلج الضياء وعمت تباشير الصباح وظلاً يأتیان هذا المكان كل ليلة ويتجاذبان أطراف الحديث واستمر الحال على هذا المنوال طوال سبعة أعوام وسنة أشهر واثنين وعشرين يوماً، حتى إذا ما حلت الليلة الأخيرة ودعته قائلة: إن البلاد من الشرق إلى الغرب ستكون تحت أمرك ورهن سلطانك، فخذ الأمر بجد واجتهاد واراع الناس ومصالحهم. فجمع الجنود واختار منهم ثلاثمائة ألف مقاتل من الأبطال الأشداء وأرسلهم بقيادة سنقور تكين إلى المغول وقرقيز وأرسل مائة ألف فرد ومثلهم عدة بقيادة قوتر تكين إلى التتوكوت وأرسل مثلهم مع توكاك تكين إلى التبت وتوجه بنفسه مع ثلاثمائة ألف فرد إلى بلاد الختاي، وعين أخاه الآخر فى الحكم محله... وعاد كل شخص من المكان الذى ذهب إليه موقفاً منصوراً جالبا معه من النعيم ما لا يعد ولا يحصى،

وأحضروا معهم إلى أرقون من كل موضع ذهبوا إليه الكثير من الرجال حيث شيدوا مدينة أرد وباليغن، وأضحى المشرق كله تحت سيطرتهم وحكمهم، وبعد ذلك رأى يوقو خان فى المنام شخصا ذا ثياب وعصا بيضاء وقد أعطاه حجرا كريما صنوبرى الشكل وقال له: إذا استطعت المحافظة على ذلك الحجر فإن أركان العالم الأربعة ستظل تحت ظل علمك وسترفرف عليها رايتك. وقد رأى وزيره ما يشبه تلك الرؤيا كذلك.

فبدأوا فى تجهيز الجيش صباح اليوم التالى، واتجه نحو الأقاليم الغربية، فلما وصل إلى حدود تركستان رأى واديا ذا ماء وعلف كثير فأقام فيه وشيد مدينة بلا ساقون التى يسمونها اليوم قر باليغ، وسيّر الجيوش من هناك إلى كل مكان، وتمكن فى خلال اثنى عشر عاما من فتح جميع الأقاليم، ولم يتركوا أى مكان بعيدا عن سيطرتهم معلنا التمرد والعصيان، حتى إذا ما وصلوا إلى مكان شاهدوا فيه آدميين ذوى أعضاء حيوانية أدركوا أنه لا عمران بعد ذلك، عادوا ثانية محضرين معهم ملوك الأطراف الذين قدموهم إلى يوقو خان فى مقر إقامته حيث أكرم وفادة كل واحد منهم وعزره بما يناسب مقامه وأحواله عدا ملك الهند لما كان عليه من سماجة فى طبعه وقبح فى منظره فلم يسمح له بالحضور إليه والتشرف بلقائه، وأرسل كل واحد منهم إلى مملكته بعد أن فرض عليهم الجزية.

عندئذ وحينما لم تعد هناك أية عقبات فى الطريق، قرر العودة وعاد إلى مقامه القديم، ونظرا إلى انتشار عبادة الأوثان بينهم فقد كان الأويغوريون فى ذلك الوقت يعرفون "علم السحر" ويسمون فقهاء ذلك العلم وتلك الحرفة باسم "قامان"^(١)، ولم يكن المغول فى ذلك العهد على دراية بالعلم والمعرفة ويتحدثون بالأباطيل ويدعون أن الشياطين مسخرة لهم ورهن مشيئتهم وتخبرهم بكل الأحوال، وقد سألنا بعض الأشخاص عن ذلك ويقولون: لقد سمعنا أن الشياطين تأتيتهم من فتحة بسقف الخيمة وتحدث إليهم، ومن الجائز

(١) قد يكون "شامان" والشامانية ديانة كانت منتشرة بينهم، فـ "شامان" هو رجل الدين عندهم.

أن تأتلف هذه الأرواح الشريرة مع بعضهم وتجامعهم، وكانت قواهم تبلغ ذروتها عندما يطفنون نار شهوتهم الجنسية الطبيعية التي يباشرونها من الدبر.

والخلاصة أنهم يطلقون على هذه الجماعة التي سبق ذكرها اسم "قام"، ونظرا إلى جهل المغول وعدم وجود علم ومعرفة لديهم فقد كانوا يتبعون أقوال القامان منذ زمن بعيد، والآن فإن الأمراء يعتمدون على أقوالهم ودعواتهم، ولا يقرون ويوافقون على بداية أى عمل أو مصلحة إذا لم يوافق المنجمون على ذلك، ويعالجون المرض بنفس هذا الأسلوب أيضا، وكانت عبادة الأوثان هي السائدة في بلاد الختاي آنذاك، وقد أرسل بوقو خان رسولا إلى خان الختاي طالبا منه إرسال كهنة هذا المذهب "توينان"، فلما أقبلوا أجرى بين أئمة المذهبيين مناظرة واجه فيها كل منهم الآخر حتى يختار المذهب الذى ينتصر أصحابه على الآخر.

فأخذ التوينان في قراءة كتابهم المقدس "نوم"، ونوم هو معقول كلامهم يشتمل على باطل الحكايات والروايات، وبه مواعظ طيبة توافق شرائع وأديان جميع الأنبياء من احتراز من الأذى والظلم وأمثال هذا ومجازاة السيئة بالحسنة ونهى عن إيذاء الحيوانات وغير ذلك، وعقائدهم ومذاهبهم مختلفة ولكن يغلب عليهم مذهب يشبه مذهب الحلول، ويقولون إن هؤلاء الخلق كانوا موجودين منذ بضعة آلاف من السنين وكل شخص فعل الخير وشغل بالعبادة نالت أرواحه جزاء لأفعاله درجة من الدرجات الآتية: درجة الملك ودرجة الإمارة ودرجة الرعية ودرجة الفقير، وأما الجماعة التى ارتكبت الفسق والفجور وأعمال القتل والنهب وإيذاء الخلق فقد حلت أرواحهم فى الحشرات والسباع والبهائم وهم يعذبون لذلك، ولكن أقبل الجهلة عليهم فإنهم يقولون ولا يفعلون، فلما قرأوا بعض آيات "النوم" أخرس القامان وكممت أقواهم ولهذا السبب اختار الأويغور عبادة الأصنام دينا لهم وتبعتهم أكثر الأقوام فى ذلك، وليس هناك قوم أكثر تعصبا لدينهم وبغضا للإسلام من

عبدة الأوثان هؤلاء الذين يقطنون المشرق، وأمضى يوقو خان حياته فى سعادة وحبور حتى فارق الحياة.

وما أثبت من هذه الأكاذيب قليل من كثير وواحد من مائة، وهدفى من ذلك هو إثبات جهل وحمافة تلك الطائفة. حكى لى أحد الأصدقاء أنه قرأ فى كتاب ما أن شخصا قد أحدث حفرة فيما بين الشجرتين وأجلس صغاره فيها وأشعل المصابيح فى وسطها ودعا الأشخاص لمشاهدة هذا المنظر العجيب، وقام هو بعبادته وتبجيله وأمر الآخرين بذلك وخدعهم بهذه الطريقة حتى شق الأرض ثانية وأخرج الصغار.

وبعد وفاة يوقو خان قام أحد أبنائه مقامه، وكانت قبائل الأويغور وأقوامهم تتحرك من مساكنهم عندما كانوا يسمعون صوت كوج كوج أى الرحيل الرحيل الذى انبعث من سهيل الخيول ورغاء الجمال وشهيق وزئير السباع وعواء الكلاب وخوار البقر وثغاء الأغنام وصفير الطيور وبكاء الصغار، وظلوا يسمعون هذا الصوت -كوج كوج- الرحيل الرحيل فى كل مكان نزلوا فيه حتى وصلوا إلى الوادى الذى شيدوا فيه مدينة بيش باليق^(١) حيث انخفض الصوت، فاستقر بهم المقام فى ذلك المكان وشيدوا المدن الخمسة التى أطلقوا عليها بيش باليغ، وبالتدريج اتسع عرضها ونما طولها وامتدت عرصتها، ومنذ ذلك التاريخ وأولادهم هم الأمراء عليهم ويسمون أميرهم "أيدى قوت" وتلك الشجرة التى تعرف باسم الشجرة الملعونة قائمة على جدار أحد منازلهم.

(١) أو بيش باليغ حسب بعض نسخ مخطوطات الكتاب.

ذكر أحوال كوچك وتوق تغان

حين هزم جنكيز خان أونك خان^(١) هرب ابنه (ابن الأخير) مع جماعة كثيرة وسلك طريق بيش باليغ ودلف من هناك إلى حدود ولاية كوجا حيث بقى فى تلك الجبال دون زاد وطعام، وتفرقت عنه الأقوام التى لازمته عند مجيئه، ويقول البعض إن جمعا من جيش كور خان قبض عليه وسلمه إلى كور خان، وفى رواية أخرى أنه ذهب إليه بنفسه، والخلاصة أنه ظل فى بلاد كور خان بعض الوقت حتى إذا ما دب النزاع والصراع بين السلطان وكورخان وأعلن الأمراء الآخرون الذين كانوا فى الطرف الشرقى العصيان ولجأوا إلى جنكيز متوسلين إليه وطالبين حمايته ووجدوا فى عنايته أمانا لهم من شر كور خان، قال كوچك لكور خان: إن أقوامى كثيرة وهم متفرقون بين إيميل وقيايغ وبيش باليغ وكل شخص يتحرش بهم ويضايقهم، فلو أذن لى جمعتهم وأيدت كور خان بهؤلاء القوم وعضدته بهم، ولن أحيّد عن طريقه التى يريدّها ولن ألوى رقبتي إعراضا عن أمره ما دام ذلك ممكنا.

وقد أسقط كور خان بهذا الأسلوب المبهم وتلك الخديعة فى بئر الغرور، وبعد أن كافأه كور خان بكثير من التحف والهدايا وأنعم عليه بلقب كوچك خان انسل عنه انسلال السهم من القوس، فلما انتشر خبر خروج كوچك بين أفراد جيش القراختاي أسرع إليه كل شخص كان قد ارتبط به قبل ذلك، ووصل إلى منطقة إيميل وقيايغ، وانضم إليه كذلك توق تغان الذى كان أميرا من أمراء المكريت وكان قد هرب قبل انتشار أخبار انتصارات جنكيز، واجتمعت عليه فرسانه الذين كانوا قد تفرقوا بكل مكان، فهجم على

(١) يقصد كرجاك بن تايانك خان ملك التايان، وليست هناك صلة بينه وبين أونك خان ملك الكرايت سوى أن جنكيز خان حارب الاثنين وقتلها (حاشية القرويني مع متن جهان كشاي ص ٤٦).

كثير من الأماكن وأغار عليها وانطلق من هذه إلى تلك حتى كثر جمعه وزاد عدد جنده وحشمه وقويت شوكتة، عندئذ توجه إلى كور خان، وأغار على بلاده ونواحيه واستولى عليها. يهجم حيناً ويرتد آخر، فلما سمع أنباء استيلاء السلطان وهجومه أرسل إليه المدد من السفراء تترى طالبا منه مهاجمة كور خان من الناحية الغربية على أن يهاجمه كوجلك من الناحية الشرقية وبهذا يحصران كور خان بينهما ويزيحانه من وسطهما، واتفقا على أنه إذا أحرز السلطان قصب السبق في قهره سلمت إليه جميع أراضي مملكة كور خان حتى المالغ وكاشغر، وإذا سبق كوجلك في السيطرة على كور خان واستولى على القراختاي يكون نصيبه حتى حدود نهر فناكت، واتفقوا فيما بينهم على تنفيذ هذا القرار.

وسار جيش من الطرفين نحو قراختاي وأحرز كوجلك السبق وهزمت جيوش كور خان المتباعدة وأغار على خزائنه التي كانت في أوزكند ومضى من هناك إلى بلاساقون، وكان كور خان معسكرا هناك فتعاركا على شاطئ جنينوخ وهزم كوجلك وأسرت غالبية جيشه. وعاد كوجلك واشتغل بترتيب الجيش وخيامه، وحينما سمع بأن كور خان قد عاد لتوه من حربته مع السلطان وقد اقترب الكثير من الأعمال السيئة مع الرعية وبالغ في ذلك وبدد جيشه وألزمهم مساكنهم، انطلق إليه انطلاق البرق من السحاب وانقض عليه فجأة واستولى على مملكته فاستسلم له الجيش والملك وتزوج إحدى بناتهم، وكانت المسيحية هي الديانة السائدة بين غالبية قبيلة النايमान آنذاك، إلا أن هذه الفتاة قد ألزمته بعبادة الأوثان مثلها، فتحول تاركا النصرانية.

بصورة الوثن استعبدتني وبها فتنتي وقديما هجت لي فتنا

لا غرو إن أحرقت نار الهوى كبدى فالنار حق على من يعبد الوثنا

فلما استقرت له الأمور في ممالك القراختاي، ثبتت أقدامه تحارب مع أوزار خان سلطان المالغ كثيرا، وتمكن في النهاية من القبض عليه في مكان صيده فجأة وقتله، وكان أرباب كاشغر وختن قد أعلنوا العصيان والتمرد

وكان كور خان قد سجن ابن ملك كاشغر، فأخرجه من سجنه وحله من وثاقه وأعادته إلى كاشغر مرة ثانية. إلا أن أمراء تلك الناحية قد تأمروا ضده وقتلوه وسط البوابات قبل أن تطأ أقدامه باب المدينة، وكان كوجلك يرسل جيشه في أثناء الحصاد حتى يلتهموا ويدمروا ويحرقوا المحصول، فلما انقطع عنهم ريع ودخل هذه المحصولات ثلاثة أعوام أو أربعة ارتفعت الأسعار وعم الغلاء وأصبح الأهالي عاجزين ضعفاء لما أصابهم من قحط. فانقادوا لحكمه وأذعنوا لأمره، ومضى إلى هناك مع جيش وأنزل في كل بيت به زوج أو رب بيت واحدا من جنوده، وهكذا احتموا مع الأهالي في مكان واحد وتحت سقف بيت واحد، وبدأ الجور والظلم وظهرت العدوى وحل الفساد، وقدموا للمشركين عبدة الأوثان كل ما أرادوه وقدروا عليه، ولم يكن لأى أحد القدرة على الممانعة في ذلك، ومضى من هناك إلى ختن واستولى عليها ثم ألزم الأهالي في تلك النواحي بالانتقال من الدين المحمدى وخيرهم بين أمرين: إما أن يتخذوا النصرانية أو عبادة الأوثان دينا لهم، وإما ارتداء زى الختانيين. ولما كان التحول واعتناق دين آخر ليس ممكنا فقد اضطروا إلى الإذعان لأمره وإلى ارتداء زى أهل الخطا إذعانا لأمره؛ قال الله تعالى: "فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم". وانقطع أذان المؤمنين وتوحيد الموحدين المؤمنين وأغلقت المدارس واندرست آثارها. وذات يوم ساق الأئمة الكبار في ختن إلى الصحراء وبدأ في مجادلهم والبحث معهم فى أمور الأديان وجرى بينه وبين الشيخ والإمام علاء الدين محمد الختنى كثير من المحاوره، وبعد أن ساموه سوء العذاب وعوقب أشد العقاب علقوه على باب المدرسة، كما سيرد ذكره فى إثر ذلك. وذبلت زهرة المسلمين وتلاشت نضارة أمورهم بل وانتهوا كلية ومحووا تماما وعم الظلم وانفساد الذى لا حد له عباد الله أجمعين، وارتفعت أصوات المؤمنين بالدعاء قائلا:

أيا ربَّ فرعونُ لما طغى	وتاه وأبطره ما ملك
لطفت وأنت اللطيف الخبير	وأقحمته اليمَّ حتى هلك

فما بال هذا الذى لا أرا ه يسلك إلا الذى قد سلك
مصونا على دائرات الدهور يدور بما يشتهيهِ الفلك
ألسنت على أخذه قادرا فخذهُ وقد خلص الملك لك^(١)

وكان سهم الدعاء قد أصاب هدف الإجابة والقبول، حينما عزم جنكيز على مهاجمة ممالك السطان، أرسل جمعا من قواده وأمرائه للقضاء على فساد كوجلك واستئصال شأفة فتنته، وكان كوجلك فى كاشغر آنذاك، ويحكى أرباب كاشغر أنهم لم يكادوا يصلون إلى هناك وتبدأ المعركة بينهم حتى هرب مؤثرا الهزيمة والفرار، وكلما وصل فوج من أفواج المغول المتعاقبة إلى المدينة لم يطلبوا منا شيئا آخر سواه، وأجازوا الأذان والتكبير وأداء الصلاة ونادى مناد فى المدينة مبشرا بأن كل من يسير على دينه ويمضى وفق مذهبه فهو آمن، ولقد أدرکنا أن وجود هذه الجماعة رحمة من الرحمات الربانية وفيض من الفيوضات الإلهية، وحينما هزم كوجلك ولاذ بالفرار أبید وتلاشى كل شخص من جنوده الذين أقاموا مع المسلمين فى بيوتهم مثل تلاشى الزئبق فى التراب. ومضى جيش المغول فى أثره ولحقوا به فى كل مكان نزل فيه، وانطلق فى عدوه مثل الكلب المسعور حتى وصل إلى حدود بدخشان، ودخل واديا يقال له "دره ورارنى"، فلما وصل إلى سرخ جوبان ضل الطريق (وكان الصواب ما فعله) ودخل إلى الوادى الذى لا مخرج منه، وكان الصيادون من أهالى بدخشان يصيدون فى تلك الأنحاء من الجبال فلما رأوا كوجلك ورجاله أقبلوا عليهم ودنوا منهم، بينما أطبق عليهم جيش المغول من الجانب الآخر، ولما كان الوادى وعر المسلك كان عبورهم فيه على درجة كبيرة من الصعوبة والأخطار، وأبرموا مع هؤلاء الصيادين اتفاقا قالوا فيه: إن تلك الجماعة هى كوجلك وأشياعه وقد هربوا من قبضتنا، وإذا ما قبضتم عليهم وأسلمتوهم إلينا لن يكون لنا مع تلك الجماعة مسلك آخر. فأقبلت تلك الجماعة وأحاطت به وبفرسانه وقبضت عليه وأسلمته للمغول

(١) الأبيات لأحمد بن أبى بكر الكاتب فى هجاء الوزير الجيهانى (معجم الأدباء ٥٩/٢).

فقطعوا رأسه وحملوها معهم، وحصل أهل بدخشان على غنائم لا حصر لها من الجواهر والنقود ثم عادوا، ولا يخفى على أحد أن كل فرد يتعرض للدين الأحمدي والشرع المحمدي، لن يكون نصيبه الفلاح والنصر على الإطلاق، وكل شخص يزعاه ولو لم يكن معتقاً له فإن أمره يزداد في كل يوم رفعة ونماء.

إن المصباح الذي يضيئه الحق تعالى كل من ينفت فيه يحترق شارب
قال الله تعالى:

"ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكّن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين"^(١).

ولهذا السبب استولى جنكيز خان السلطان فاتح العالم على هذه النواحي ابتداء من كاشغر وختن إلى الموضع الذي كان السلطان خورانشاه يحكم فيه وسلم إليه.

ولما كان توق توغان قد هرب في أثناء استيلاء كوجلك خان على أرضه ومملكته وذهب إلى حدود قم كيجك^(٢) فقد أرسل جنكيز خان إليه ابنه "توشي" مع جيش كبير للقضاء عليه، حتى يخلص الناس من شره ولا يبقى له على أثر. وفي أثناء عودتهم مضى السلطان في أثرهم، ومع أنهم لم يكونوا راغبين في القتال معرضين عنه فإن السلطان لم يعرض عنها بل أقبل عليها وولى وجهه شطر صحراء التعسف والغواية، فلما لم تنفعه النصائح وينزجر منها فقد استعدوا للقتال وجهزوا أنفسهم له وحملوا عليه من الناحيتين وحملت ميمنة كل من الجيشين على ما يقابلها، وازداد جيش المغول شجاعة وإقداما بما أحرزه من نصر وحملوا على مركز الجيش السلطاني حيث كان السلطان يحتل مكان قيادته.

(١) الأنعام، آية: ٦.

(٢) اسم نهر يقع شمال مغولتان على حدود قرقيز ويصب في نهر "ينيسي"، وما زال اسمه كذلك حتى اليوم.

وأوشكوا على أسر السلطان إلا أنه لم يمض وقت طويل حتى تمكن جلال الدين من ردهم وإنقاذه من بين أيديهم. أى شيء أفضل للأسد الجسور من أن يرى أشباله وأولاده يستعدون للعمل والقنص أمامه وقبله؟

واستمرت الحرب طوال اليوم وظل الصراع قائما حتى صلاة العشاء وظللت وجه الدنيا سحابة سوداء لاختفاء النور فأضحى أسود كوجه المذنبين الكفرة الذين اسودت وجوههم وأضحى ظهر الأرض أسود فاحما كقاع البئر.

فى الليلة الماضية حينما ألقى ظل الأرض كميناً على جواد الشعاع رأيت أطراف الربع المسكونون مجللة بالسواد كصومعة المسكين الفقير، وحق ما قالوه، إن هناك مظلة سوداء ترفع رأسها فوق أعلى الفلك.

عندئذ انتهت المعركة ووضعوا سيف الصراع فى غمده وسكن كلا الجيشين كل فى محله. وانسحب جيش المغول عائداً إلى المنطقة المغولية، فلما وصلوا إلى جنكيز خان وعلم شيئا عن بطولتهم ورجولتهم وأدرك ما عليه جيش السلطان من قوة^(١) وعلم أنه لم يعد بينه وبينهم حائل لم يقض عليه أو عدو يستطيع مواجهته ومقاومته، عندئذ عبأ قواته وتوجه صوب مملكة السلطان، وأما بالنسبة إلى السلطان فقد ظن آنذاك أنه بهزيمته لطلائع جيش جنكيز خان قد قضى على كل العقبات أمامه وطهر الدنيا من أعدائه وخصومه، ورغم أنه لم يقض على كور خان قضاء تاما، فقد أضعف قوته وكان البادئ بمهاجمته وحارب ملوك وأمراء النواحي والأطراف وقضى عليهم، ولكل أمر غاية، ولكل بداية نهاية، والتراخى فيها وتأخيرها لا يمكن تصوره. جف القلم بما هو كائن.

(١) فى هذا رد على السؤال الذى طرحه الأستاذ محمد فؤاد كوبرلو فى دائرة المعارف الإسلامية والذى قال فيه: هل علم جنكيز بأمر النزاع بين توشى والسلطان خوارزمشاه أم لا؟ وإذا كان قد عرف فمتى تم هذا؟

ذكر الإمام الشهيد علاء الدين محمد الختني رحمه الله

حينما تم لكوجاك الاستيلاء على كاشغر وختن وترك الشريعة العيسوية واعتنق المذهب الوثني، أمر أهالي تلك الأنحاء بترك الدين الحنيف والتحول إلى مذهب الوثنية والإلحاد والانفصام عن أشعة أنوار الهدى والدخول إلى وحشة الكفر والضلال وترك طاعة السلطان الرحيم واتباع هوى الشيطان الرجيم، ونظرا إلى أنه لم يستطع تحقيق ذلك فقد تشدد في الضغط عليهم حتى اضطرهم إلى ارتداء زى الخطأ والتقلنس بقلنسواتهم وسكتت وخبث أصوات الأذان والصلاة وانقطعت الصلوات والتكبيرات كذلك.

أبعد وضوح الحق يرجون فسحه وللحق عقد مبرم ليس يُفسخ

وفي أثناء ذلك أراد بقوته وشططه وتهوره وتسلطه أن يقنع أئمة الدين المحمدي ورهبان الدين المسيحي بالحجة والبرهان.

وإذا رجوت المستحيل فإنما تبني الأمور على شفير هار

ونادوا في المدينة وبلغوا أوامره التي تدعو إلى أن يحشر في الصحراء كل شخص من أهل العلم والصلاح، فاجتمع إليه ما يزيد عن ثلاثة آلاف من الأئمة الكبار فتوجه إليهم قائلا: أي شخص في هذه الصفوف يستطيع أن يناظرني في أمور الدين والملك ولا يبالي بما أقول ولا يخاف عقابا أو غضبا؟ وكان قد استحكم في خياله الفاسد أنه لا يمكن أن يكون لأحد القدرة على معارضته ومناظرته وإنكار حجته، وكلما هم شخص لمناقشته في أي أمر خاف سطوته وعقابه ودفع عن نفسه نار البلاء والفناء حتى لا يكون كالباحث عن حتفه بظلفه، بل كان يصدق أكاذيبه ويقر بأباطيله. ونهض من بين تلك الطائفة الشيخ الموفق والإمام بحق علاء الدين محمد الختني نور الله قبره وكثر أجره، وأقبل إلى كوجاك وجلس مستعدا للنقاش كما لو كان قد

تمنطق بحزام الحق، وأخذ يباحثه ويجادله فى أمور الأديان، فلما ارتفعت الأصوات وأفحمه الإمام الشهيد بالحجج القاطعة والدلائل الساطعة، وأدرك أن حضور كوچك ووجوده عدم محض وانتصر الحق على الباطل والعالم على الجاهل، وأفحم الإمام السعيد كوچك ودحض حجته، والحق أبلج والباطل لجلج، استولت الدهشة والحيرة والخجل على أفعال وأقوال ذلك الفاسد، وارتفعت نار الغضب عليه لضعفه وخوره، وخرس لسانه وقيدت أقواله وغللت وانطلق لسانه بالفحش والهذيان الذى لا يليق بقانون كتاب الرسول الكريم، واستمر على هذا النحو مدة ولكن الإمام الصادق الذى لا يقول إلا الحق والذى يؤمن إيماناً راسخاً لا يتزعزع بالقول القائل "لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً" لم يستطع انطلاقاً من حميته الدينية أن يتغاضى أو يغض الطرف عن ترهاته وخرافاتة، فقال له: "ملأ التراب فاك يا عدو الدين يا كوچك اللعين"، فلما صكت هذه الكلمات القاسية والصادقة سمع ذلك الوثئى الذى امتلأ غرورا وكبرا والكافر الفاجر والنحس النجس أمر بالقبض عليه وأمره بالارتداد عن الإسلام وانتباع مذهب الكفر والإلحاد، ولكن هيهات هيهات لما توعدون فلا يكون مهبط النور الإلهى بيتاً للشيطان اللعين، "قأبى واستعصم" عدة أيام بليلاليها عارياً مقيداً جائعاً ظمناً ومنعوا عنه الغذاء والطعام الدنيوى، إلا أنه كان ضيفاً لمائدة "أبيت عند ربى يطعمنى ويسقبنى"، وكان هذا الإمام المحدى كصالح فى قوم ثمود وكيعقوب الذى ابتلى بالحزن وامتنحن بعذاب جرجيس، قال النبى عليه السلام: "البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل"، فصبر صبر أيوب وجاهد جهاد يوسف فى الجب مع سجانیه، والرجل المحب العاشق حينما يتذوق لدغة المحنة من سلسبيل المحبة يعتبر ذلك غنيمة كبرى وسعادة عظمت ويقول: إن كل ما يأتى منك طيب وجميل سواء أكان شقاء أم ألماً، وكل سم يأتى من الأحبة لفم الحبيب المشتاق له حكم ذلك، والسم يمكن أكله من يد الحبيب الصادق، ويجد فى مرارة صبره من الحلاوة مذاق حلاوة الشهد والسكر... يقول:

ولو بيد الحبيب سقيتُ سماً كان السم من يده يطيب

وحيثما يستضيء القلب النوراني من مشكاة الأنوار الربانية يزداد في كل لحظة اطمئنانا على إيمانه. ولو كان ذلك بمختلف أنواع العذاب وشتى سبل المحن والآلام:

إذا أردت وصال الحبيب فكن صابرا على الآلام متحملا لها

فمن الممكن أن يجتمع الورد والشوك معا

واترك نفسك حتى تصل إلى محلة الحبيب

فمثل هذه الأمور من الممكن أن تكون محفوفة بالمخاطر

وبعد أن سلكوا معه كل حيلة تحويها جبلة هؤلاء القوم الضالين، من وعد ووعد وإيناس وتهديد ونكال وعقاب، ولم يتغير ظاهره عما يكنه في باطنه، وعما يشتمل عليه من ثبات وإيمان وتصديق ويقين، ولم يحد عن ذلك قيد أنمله، أثبتوه بأربعة من الدسر على باب مدرسته التي كان قد شيدها في ختن، بينما هو يرفع صوته مجلجلا بكلمة التوحيد والشهادة، ناصحا الخلائق قائلا: لا يمكن لإنسان أن يفرط في أمور الدين نتيجة لما يلقاه من عقوبات وآلام في هذه الدنيا الفانية، ولا يمكن أن يسلم الإنسان نفسه لنار جهنم إلى أبد الأبد نتيجة لذلك أيضا، بل يكون عيبا تاما وعيبا كبيرا أن يستبدل الإنسان بالدار الباقية تلك الدار الفانية وأن يستبدل بنعيم الدار الآخرة ودلالها خضراء الدمن هذه، تلك الدار الفانية التي ما هي إلا لعب ولهو للصغار، قال الله تعالى: "وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو، وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون"، وظل يردد ذلك حتى أسلم الروح لبارئها وانتقل من سجن الدنيا إلى جنات نعيم العقبي وطار من المهبط السفلى إلى الكرسي العلوى.

ومضى الصديق إلى الصديق وأسرع الحبيب إلى الحبيب

وأى شيء في الدنيا أفضل من هـذا؟

فإذا ما طوقت يد شخص ما برقبة مقصوده

فمن الممكن أن يكون هذا درعا أمام جرح البلاء

فلما وقعت هذه الواقعة، دفع الحق شره ولم تمض فترة طويلة حتى أرسل جيش المغول إليه فذاق في هذه الدنيا جزاءً وفاقاً لأعماله القبيحة المذمومة وسيرته السيئة وله في الآخرة عذاب النار وبئس القرار.

وقد علم الإلحادُ مذُناً نصر الهدى بأن ليس للدين الحنيفي منسخ

قال الله تعالى: "وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون"^(١).

(١) الشعراء، آية: ٢٢٧.

ذكر الاستيلاء على المالينغ وقيا لينغ وفوذلاذ وأحوال أمرانها

كان أرسلان خان حاكم هذه النواحي في عهد كور خان، وقد عاونته في إدارة دفة الأمور نائباً عنه، فلما أخذت دولة كور خان في الاضمحلال والتلاشي، وأعلن حكام الولايات البعيدة عن مملكته العصيان والخروج عليه، خالفه سلطان ختن أيضاً وانشق عليه.

عندئذ سَير كور خان جيشاً إليه، وطلب مدداً من أرسلان خان وكان ينتوى قتله، فإذا ما أعلن العصيان كسائر الأمراء قضى عليه وتخلص من شره مرة واحدة، وإذا لبي النداء ولم يعلن العصيان وعامل المسلمين معاملة طيبة ولم يسرف في عقابه لأهل ختن اعتبر ذلك جرماً أخذه به وقتله وأهلكه، فلبى أرسلان خان النداء وأسرع إليه امتثالاً لأمره، وكانت بينه وبين أحد أمراء كور خان يدعى شمورتيا نكو صداقة وطيدة وصفاء تام زمننا بعيداً فأخبره بفكر كور خان ونواياه ثم أضاف قائلاً: "وإذا حاول الاعتداء عليك والنيل منك فسيقضى على بيتك وأبنائك جميعاً، وأفضل السبل التي فيها صلاح أبنائك هي أن تبطل سماً تخلص به نفسك وروحك من غصص الزمان الشوم والسيد الغشوم حتى أتدبر الأمر وأكون وسيلة لإقامة ابنك في مقامك". فلما ضاقت به السبل ولم يعد هناك ملجأ أو مهرب تجرع بيده سماً مهلكاً فأسلم الروح وعين شمور ابنه في مقامه وفاء بالوعد الذي قطعه على نفسه من قبل وأعادته إلى ملكه معزراً مكرماً وأرسل معه شحنة في مصاحبته، واستمر الحال على هذا المنوال فترة من الزمان حتى ذاع أمر جنكيز خان وعم صيت خروجه وانتصاره الآفاق.

وكان شحنة كور خان قد سلك سبيل الظلم والاستبداد، وإيذاء الخلق، فقتله واتخذ سبيله إلى بلاط جنكيز خان حيث استقبل بكثير من مظاهر العناية والرعاية.

وكان فى المالىغ واحد من قرفلقان قوناس، وكان شجاعا قويا، واسمه أوزار وكان قد تعود سرقة جىاد الخىاله من مراتبها، وارتاب الكثیر من الجرائم والأعمال الشريرة، من قطع للطرق وسرقة وغيرها.

وانضم إليه الفساق من أشرار أبناء السبيل حتى عظمت قوته وقويت شوكتة، فتعود الذهاب إلى القرى المختلفة، فإذا ما أعلن أبناؤها العصيان عليه والإحجام عن طاعته، والاستسلام له، استولى عليها جبرا وقسرا، واستمر على هذا النحو حتى استولى على المالىغ قسبة تلك الناحية، فاستسلمت له الولاية كلها ودانت له ولحكمه، ثم استولى على الفوذلاذ.

وقد حاربه كوجلک عدة مرات وهزمه أوزار فى كل مرة التقيا فيها، لهذا أرسل رسولا إلى جنکيز مخبرا بأمر كوجلک، معلنا انضواءه تحت حكمه وانخراطه فى زمرة حشم السلطان فاتح العالم ومعينه فأيده وقواه بما منحه من كثير الهبات ووفير العطاء وبما خصه به من عطف حتى أصبح صهرا لتوشى تنفيذاً لأمر جنکيز خان.

وبعد أن اطمأن إليه واستحکمت أسس طاعته لجنکيز وإخلاصه، توجه بنفسه إلى الحضرة السلطانية امتثالاً لأمر جنکيز، فلقى عنده الكثير من العناية والتكريم، فلما هم بالعودة حباه جنکيز بعظيم التشريف وطلب منه التخلّى عن الصيد وعدم ممارسته حتى لا يقع صيدا للصيادين، وأمهده بألف رأس من الخراف عوضاً عن صيده الذى أمره بالكف عنه.

إلا أنه عندما عاد إلى المالىغ عاود الصيد مرة أخرى، ولم يكف عنه وقبض عليه حشم كوجلک فجأة وأوثقوه جيداً ثم أحضروه إلى باب المالىغ، فأوصد أهالى المالىغ الباب، واشتبكوا معهم فى معركة حامية، إلا أنهم فجأة فى أثناء ذلك سمعوا أخباراً عن وصول جيش المغول فعادوا من باب المالىغ وولوا الأدبار وقتلوا أسيرهم فى الطريق.

ومع أن أوزار كان متهورا مقداما، فقد كان ورعا تقيا يخشى الله،
ينظر إلى الصوفية نظرة إعزاز وتقدير.

وأقبل إليه ذات يوم شخص يتدثر بلباس الصوفية وقال : "لقد أتيت إليك
حاملا رسالة من صاحب العزة والجلالة تقول: إن خزاننا قد أضحت خاوية،
والآن فليمدنا أوزار على سبيل القرض بما يتيسر له ويقدر عليه ولا يجوز
الاعتذار والامتناع"، فنهض أوزار خاشعا متواضعا والدموع تنهمر من مآقيه
وأشار إلى أحد خدامه لإحضار بالش ذهبي، أعطاه للصوفي قائلا: قدم
الاعتذار لسيدك بعد أن تؤدي له فروض الولاء والإخلاص.

وأخذ الصوفي الذهب ثم انصرف. وقد أكرموا ابنه سقناق تكين بعد
وفاته^(١) وأحلوه محل والده وزوجوه إحدى بنات توشى، أما بالنسبة إلى
أرسلان خان^(٢) فقد أرسلوه إلى قباليغ وخطبوا له إحدى البنات كذلك.

حينما اتجه جنكيز خان صوب ممالك السلطان، التحق به مع كثير من
رجاله، وقدموا له مساعدات وخدمات جليلة، وقد بقى الآن واحد من أبناء
أرسلان خان، منحه منكو قا أن حكم أوزجند، ونظر إليه نظرة إعزاز وإكرام
وفاء وتقديرًا وعرفانا لما أسداه والده من جليل الأعمال والخدمات.

وقد كرم جنكيز خان سقناق تكين كذلك، وعينه وثبته حاكما للمالغ،
وفى أثناء عودته إلى موطنه وافاه الأجل المحتوم وانتقل إلى جوار ربه فقام
ابنه مقامه، وكان هذا في عام ستمائه وواحد وخمسين ٦٥١هـ.

(١) بعد وفاة أوزار.

(٢) المقصود ابن أرسلان خان المذكور في بداية هذا الفصل حيث إن أرسلان خان قد قضى على حياته بنفسه
بشربه السم في عهد كور خان، ويقال إن "أرسلان خان" لقب لحكام قباليغ مثل كور خان بالنسبة إلى
القراخانية وكوجك خان بالنسبة إلى النايمن، القزويني - تعليقات وحواشي صفحة ٥٨.

ذكر السبب فى مهاجمة ممالك السلطان

لقد خيم السكون والأمان على دولته فى أواخر عهده، وبلغت الرفاهية والمتعة غايتهما وأمنت الطرق وخبت نار الفتن وهذا أوارها، حتى إذا ما ظهر نفع أو فائدة فى أقصى بلاد المغرب وبداية المشرق اتجه التجار إلى هناك فى أمن وسلام، ونظرا إلى أنه لم يكن للمغول أية مدينة يستقرون بها، ولم يكن للتجار والمسافرين سبيل للوصول إليهم، والتعامل معهم، فقد ارتفعت أسعار الملابس والمفروشات فيما بينهم، وظهرت قيمة وفائدة التعامل معهم فى البيع والشراء.

لهذه الأسباب اتفق ثلاثة من التجار وهم أحمد جندى وابن الأمير حسين وأحمد بالخج وقرروا الذهاب إلى بلاد المشرق، وجمعوا كثيرا من البضائع التى تزيد عن الحد من ثياب مذهبة وكرباس (ثياب قطنية) وغير ذلك مما رأوه لائقا ومناسبا لتلك الأقطار، ثم سلخوا سبيلهم لتحقيق هدفهم، وكانت غالبية قبائل المغول قد أخضعها جنكيز خان لحكمه آنذاك وهدم دورهم وأماكن إقامتهم وطهرت تلك المناطق من الطغاة والأشرار، وعين على رعوس الطريق محافظين يسمونهم "قراقچيان" للمحافظة على الطريق وأمنه، وأمرهم بتأمين سلامة أى فرد من التجار يصل إلى تلك النواحي، وأن يرسلوا ما يروونه ملائما للخان من الأمتعة مع صاحبها، فلما وصلت هذه الجماعة من التجار وأعجبهم ما شاهدوه مع بالخج من ثياب ومتاع أرسلوه إلى الخان، فلما فتح متاعه وعرض بضاعته طلب ثلاثة بالشات ذهبية فى كل شىء اشتراه بعشرة أو عشرين دينارا قبل ذلك، فغضب جنكيز من شططه فى القول وكذب حديثه وقال: إن هذا الشخص يظن أننا لم نر ولم يصل إلينا ثياب من قبل. وأمر بإطلاقه على ثياب السلاطين القدامى التى أعدت

وأودعت خزائنه، وأن تحصي ثيابه وتسجل أمتعته كتابة، ثم نهبوها ووزعوها، وأمر بالقاء هذا الشخص في السجن، وطلب حضور شريكه ومراقبه وما كان معهما من متاع فأحضروهما إليه بسائر أمتعتهما، ومع أن المغول ألحوا سائلين عن قيمة ما بها من ثياب فقد رفضا تحديد قيمتها وذكر أسعارها قائلين: لقد أحضرنا هذه الثياب هدية للخان. فسر منهما ووقع قولهما منه موقع القبول والاستحسان وأمر بإعطائهما بالشا ذهبيا مقابل كل ثوب ذهبي، وبالشا من الفضة مقابل كل ثوبين من القطن والزنديجي^(١)، واستدعوا شريكهما أحمد وقدروا ثيابه بنفس هذه القيمة وأعزوهم وأكرمهم جميعا، وكانوا ينظرون إلى المسلمين آنذاك نظرة إعزاز واحترام ولهذا عاملوهم معاملة طيبة، وإكراما لهم وتيمنا بهم فقد أعطوهم خياما جديدة طاهرة من اللباد الأبيض ليقيموا بها طوال فترة إقامتهم، وأما الآن سونتيجة لاتهم كل منهم للأخر ولعيوب أخلاقية أخرى- فقد أذلوا أنفسهم وأضاعوها.

فلما هموا بالرحيل والعودة أمر جنكيز الأبناء وصغار الأمراء أن يعد كل واحد منهم من قومه شخصين أو ثلاثة وأن يمدوهم برأسمال من بالشات الذهب والفضة لمصاحبة التجار وقت عودتهم إلى ولاية السلطان للتجارة وحتى يجمعوا طرائف الأشياء ونفائسها، فامتثلوا لأمره وأذعنوا لحكمه، وسير كل أمير شخصا أو شخصين من قومه التابعين له، فاجتمع بذلك أربعمئة وخمسون من المسلمين، فأرسل جنكيز خان رسالة إلى السلطان ذكر فيها أن تجار تلك الديار قد وصلوا إلينا وأنا قد أرجعناهم إليك على النحو الذي سيستمع إليه، وقد سيرنا معهم جماعة من عندنا حتى يحصلوا على كثير من طرائف ذلك الطرف وسيؤكد بعد اليوم الوفاق بين الجانبين وتتحسم مواد النفاق في ذات البين وسيقضى على الفساد وينتهي العناد. فلما وصلت قافلة التجار إلى مدينة أترار كان أميرها هو إينال جوق وكان واحدا من أقارب والده السلطان ترکان خاتون وكان قد لقب بلقب غاير خان. وكان

(١) نوع من الألبسة المصنوعة في "زنندة" الواقعة في تركتان على مقربة من بخارى.

من بين جماعة التجار تلك أحد الهنود وكان على معرفة به قبل ذلك، فناداه وفقا لما كان مألوفاً لديه باسم "إينال جوق" وكان مغروراً بقوته واقتداره وسلطانه فلم يخشه ولم يول مصلحته الخاصة أية عناية فتضايق غاير خان لذلك وانطوى على نفسه وطمع في مال القافلة وسولت له نفسه أمر الاستيلاء عليها وأخذها، ولهذا السبب قبض عليهم جميعاً واحتجزهم وأرسل رسولا إلى العراق مخبراً السلطان بأحوالهم، فأمر السلطان بإباحة سفك دمائهم دون تفكير أو روية، وظن أن نهب أموالهم حلال ولم يدر أن حياته ستكون حراماً، بل وبالا، وأن طائر الإقبال سيصبح بلا ريش.

إن كل شخص يملك عقلاً وحكمة في سلوكه

ينظر إلى عواقب الأمور وخواتيمها

فجردهم غاير خان من أموالهم، وقضى عليهم امتثالاً لما أشير عليه به، وبهذا خرب الدنيا وشتت شمل العالم وشرد الخلق، فأضحوا بلا مأوى أو طعام وقطعت أوصالهم وجرت بحار كثيرة من دمائهم عوضاً عن كل قطرة أريقَت منهم، وصار قصاص كل شعرة واحدة من رءوسهم مئات الألوف من الرءوس صرعى مبعثرة على مفارق الطرق ودفع في مقابل كل دينار قنطار.

فأموالنا نهبي وآمالنا سدى	وأحوالنا فوضى وآراؤنا شورى
فساقوا مطاييتنا وقادوا جيادنا	وفوقهما ما ينقضى السرح والكور
أثأنا وأثوابنا ونقدنا وقنيّة	وما يشتري بيعة وما صين مذخور
بذا قضت الأيام ما بين أهلها	مصائب قوم عند قوم ترى سورا

وقبل أن تصل هذه الإشارة كان شخص من السجناء قد تحايل وتمكن من الهرب من مضايق السجن فلما علم بالأمر واطلع على ما جرى للأصدقاء والرفاق ولى وجهه شطر الطريق قاصداً الخان وأخبره بما جرى لشركائه فأنثر هذا القول في قلب الخان وتحرك ثقاب الثبات والسكون وألقت

عاصفة الغضب التراب فى عين الصبر والحلم واشتعلت نار الغضب حتى
أسالت الماء من العيون ولم يكن إطفائها ممكنا إلا بإبراقة الدماء وقطع
الرقاب. وفى أثناء حدة غضبه سعد وحيدا إلى قمة جبل صغير وأمضى
ثلاثة أيام بلياليها، حاسر الرأس مطرق الوجه متضرعا، قائلا: يا رب إني لم
أكن بادئ هذه الفتنة فامنحني قوة الانتقام.

ثم هبط أسفل الجبل مفكرا فى الحرب مستعدا للمعركة عاقدا العزم
على ذلك. ولما كان كوجلك وتوق تغان هاربين من جيشه فقد أرسل جيشا
فى البداية للقضاء على عبثهما وفسادهما، كما ورد ذكر ذلك من قبل، وأرسل
السفراء إلى السلطان مذكرا بالغدر الذى شجع عليه، وأقره دون مبرر لذلك
ومخبرا بتحركه تجاهه حتى يستعد للنزال ويرتب آلة الضرب والطعن
والقتال. والآن وضح أن كل من يزرع جذعا يابساً لن يجنى ثمرة أى شئ
وكل من يغرس غصن الخلف والنفاق فإنه يجنى ثمرة ذلك ندامة وحسرة.
وكانت عاقبة أمر السلطان السعيد لفظاظه طبعه وسوء عادته خسرا. وكان لا
بد أن يتذوق أعقابه وأحفاده مرارة عقابه وأن يتذوق الأخلاف مرارة
الخلاف.

إن تعمل سوءاً تجز به فعين الزمان ساهرة

صورة بيزن لا تزال باقية على جدر الإيوان وهو فى سجن أفراسياب.

ذكر توجه السلطان فاتح العالم إلى مسالك السلطان واستخلاص أترار

حينما هدا غبار فتنة كوجلك وتوق واستراح ضميره من التفكير في أمرهما وبعد عن أفكاره رتب الأبناء والأمراء الكبار والأحفاد وقواد الألف والمائة والعشرة وعين الجناحين والمقدمة وسن أوامر جديدة. وبدأ التحرك في شهور سنة خمس عشرة وستمائة ١٢١٩ - ١٢١٨ م ٦١٥ هـ.

و فتية من كماء الترك ما تركت للرد كباتهم صوتاً ولا صيتاً

بدار قارون لو مروا على عجل لبات من فاقة لا يملك القوات^(١)

كانوا رماة سهام مهرة يستطيعون أن يعيدوا الصقربضربة سهم من أعماق الفلك الأثير وقادرين على إخراج السمك من قاع البحر بطعنة حربة في أثناء الليل البهيم يحسبون يوم الحرب والنضال ليلة زفاف، ويعتبرون جرح الرماح لثم الملاح.

أرسل في البداية جماعة من الرسل إلى السلطان منظرين له مبلغين إياه بتصميمه وعزمه على الخروج إليه والانتقام منه على ما اقترفه من قتل للتجار قبل ذلك "ومن أنذر فقد أعذر"، فلما وصل إلى حدود قبالغ لقيه في البداية من أمرائها أرسلان خان مظهر الخضوع والاستسلام فوقى نفسه وماله شر بأسه وسطوته، وخصه بعطفه وسار مع رجاله في عداد حشمه، وانضم إليه من جيش باليغ أيدى قوت مع خيله وسقناق تكين من المالبغ مع رجال كانوا رجال حرب أشداء، فزادوا من قوته فوصلوا إلى قسبة أترار في بداية الأمر:

في هيبة لا البرق وافى الخطى فيه ولا الرد خطيب جهير^(٢)

(١) من قصيدة مشهورة لأبي إسحاق إبراهيم بن عثمان بن محمد الغزي يمدح فيها الترك وأولها:
أمط عن الدرر الزهر الليوافيتا ولجعل لحج تلاقينا موافيتا

ومنها : وفتية من كماء الترك.....
مدت إلى النهب أيديهم وأعينهم
بدار قارون.....

(٢) بيت من الأبيات المذكورة في "تمة النيمة" وقد استشهد المؤلف بغالبية أبيات هذه القصيدة في تضاعيف هذا الكتاب.

وأقاموا معسكره فى مواجهة القلعة، وكان السلطان قد أعطى غاير خان خمسين ألف جندى له احتياطاً وأرسل إليه قراجة (خاص حاجب) لمساعدته مع عشرة آلاف آخرين، وأتموا بناء الاستحكامات اللازمة للقلعة والفصيل وسور المدينة، وجمعوا الكثير من آلات الحرب ومعداتهما، بينما اتخذ غاير خان داخل المدينة كل الوسائل اللازمة للحرب والنزال، وعين الجنود والخيالة على البوابات وارتقى بنفسه أعلى السور ناظراً إلى الأمام فعرض ظهر يده بأسنانه لفرط دهشته من المنظر الذى رآه ولم يكن يتخيله، فقد رأى الصحراء وقد اضحيت بحراً زاخراً يموج بجيش كثيف وجمع عظيم بينما امتلأ الهواء بصهيل الجياد المثلثة المدرعة، وزئير الأسود المسلحة:

لقد اسود الهواء وأضحت الأرض كالأبنوس

وغلى البحر واضطربت أمواجه من أصوات الطبول

واتجه الجيش إلى الصحراء بإشارة من إصبعة

وهو جيش كثيف لا حدود له

واستدار الجيش حول القلعة فى حلقات متتابعة، فلما اكتمل تجمّع الجيوش حولها عين جنكيز لكل واحد من القادة ناحية وكله بأمرها، فأرسل ابنه الأكبر مع عدة آلاف من الجنود الأشداء الأبطال إلى جند وبار جليغ وأرسل عدداً من الأمراء إلى حجد وفناكت. وتوجه بنفسه قاصداً بخارى، وتاركاً أوكتاى وجفتاى على رأس الجيش لمحاصرة أترار. وحينما استعدت الخيالة من كل جانب للنزال بدأت المعركة واستمرت المقاومة خمسة أشهر، ولما اشتد بأرباب أترار الخطب ووهنت عزائمهم، سأل قراجة غاير خان عن الاستسلام وتسليم المدينة لتلك الجماعة، إلا أن غاير خان أدرك أنه باعث هذه الفتنة ومحرك هذه النعمة وأنهم لهذا لا يمكن أن يتركوه على قيد الحياة.

ولم يعرف ملجأً يهرب إليه، لهذا كافح كفاحاً لا نظير له بكل ما أوتى من قوة ولم يوافق في إبرام صلح أو توقيع عهد، ولم يرض بذلك قائلاً: إننا إذا لم نكن أوفياء مع ولي نعمتنا (أى السلطان) فكيف نعتذر عن غدرنا؟ ونحن لم نجد أية وسيلة أو ظلال أى اعتذار نستطيع أن نهرب به من تقريع المسلمين ولومهم. ولم يلج قراجة فى هذه المناقشة وتلك المحاولة، وإنما انتظر حتى اختفت الشمس من وجه البسيطة وأسدل الليل البهيم ستائره على النهار المضىء، فانسل مع أكثر جيشه هارباً من بوابة صوفى خانة ودخل جيش التتار تحت جناح الظلام من تلك البوابة، وقبضوا على قراجة حتى إذا ما

الشرق قد مزق ظلماءه خط عمود من صباح منير

حملوه مع بعض من قواده إلى الأمراء، فحققوا معهم واستجوبوهم فى كل شىء وبكل أسلوب ثم اتجهوا إليه فى النهاية قائلين: إنك لم توف حق مخدمك مع ما له من حقوق ثابتة عليك، لهذا فإننا لا يمكن أن نطمئن إليك فى اتحادك معنا. وقتلوه هو ورفاقه، فنالوا بذلك درجة الشهادة، ثم أخرجوا جميع أهل أترار من فجار وأبرار سواء المتدثرين بالخمار أو المتقلنسسين بالقلنسوة والعمامة، أخرجوهم خارج المدينة وساقوهم سوق الخراف، ونهبوا كل ما هو موجود من أقمشة ومناجى، وبقي غاير خان كالأسد متحصناً بالقلعة مع عشرين ألفاً من الأبطال الأشداء والمبارزين العظماء متمثلين قول القائل:

فطعم الموت فى أمر حقير كطعم الموت فى أمر عظيم

نحن جميعاً شباب وشيبة إلى الموت والنفاء

ولن يخلد أحد كان على ظهر هذه الدنيا فكل من عليها فان

واستبشرت قلوبهم بالموت وفرحت به وتخلصوا من أنفسهم وطباعها وكانوا يخرجون للحراسة فى مجموعات من خمسين مقاتلاً وقد سودت أجسادهم بالطعان والسيوف:

تصيح الردينيات فينا وفيهم صياح بنات الماء أصبحن جوعاً

واستمروا فى كفاحهم وقتالهم ما بقى فيهم نفس واحد ينبض بالحياة، ولهذا السبب قتل من المغول خلق كثير، واستمرت المعركة قائمة طوال شهر كامل.

حتى بقى غاير خان وحده مع شخصين آخرين، واستمر فى النزال ولم يول الأدبار أو يؤثر الفرار، دخل جيش المغول القلعة وقبضوا عليه وعلقوه بالسقف ولم يوثقوه مع صديقيه من أيديهم، ولما كانت الأوامر قد صدرت إليهم بأسره والإحجام عن قتله، فقد أعرضوا عن قتله امتثالاً للأمر، ونال صديقه درجة الشهادة، ولم يبق سلاح، فأخذت الجوارى والفتيات يمددنه باللبنات اللاتى يأخذنها من جدار السراى، وحينما انتهت تلك الأحجار أطبق المغول عليه حلقة فى إثر حلقة فجاهد حق الجهاد وسلك كل السبل وشن شتى الغارات والحملات ثم سقط فى أيديهم بعد أن قتل منهم الكثير، فأحكموا قيده وشدوا موتقه وغلوه بتقيل الأغلال والقيود وسووا القلعة والسور بالطريق ثم عادوا.

أما من بقى من الرعايا وأصحاب الحرف الذين لم تحصدتهم السيوف فقد حملوهم وتوجهوا بهم إلى سمرقند لإلحاق بعضهم بالجيش الأمامى وليمارس بعضهم حرفتهم ومهنتهم.

وتوجه جنكيز إليها قادما من بخارى وأذاقوا غاير خان فى كوك سراى كأس الفناء وألبسوه ثوب البقاء والخلود.

وهكذا عمل الفلك العالى، يحمل فى إحدى اليدين تاجا وفى الأخرى حبلا وأنشوطة.

ذكر ذهاب ألوش أيدي إلى جند والاستيلاء على تلك الحدود

حينما صدر أمر السلطان المطاع فاتح العالم جنكيز خان والذي يقضى بتحرير تلك المنطقة من يد الأعداء وأن يصاحبه عدد من الأمراء يمثلون كل واحد من أبنائه وأقاربه مثلما عين هو قبل ذلك أمراء ووحدات من قبله لتمثيله في الجيوش الأخرى، وفي شهر وضع هذه العزيمة موضع التنفيذ، أسرع مع المحاربين الأبطال من جنوده كالتضاء الذي لا راد له، وكالأجل لا دفاع له ولا حيلة معه، فلما اقترب أولاً من مدينة سقناق الواقعة على شاطئ نهر جيحون قريبا من جند، أرسل في البداية حسن حاجي -الذي كان قد التحق ببلاط فاتح العالم منذ زمن بعيد كتاجر وانتظم في زمرة حشمة- برسالة يبلغها الأهالي ويحضهم فيها على الاستسلام والطاعة وينصحهم بحكم ما بينه وبينهم من صلة وقرابة إنقاذاً لأرواحهم وأموالهم، فلما دخل مدينة سقناق، وقبل أن يؤدي الرسالة ويأخذ في نصيحهم وإرشادهم، قبض عليه الأشرار والأوباش والمجرمون وقتلوه مكبرين ظانين أنهم قد جاهدوا بذلك جهادا كبيرا، طامعين في الأجر العظيم والثواب الكبير على قتل ذلك المسلم، وكان ذلك الفعل سببا في فصد وريد أولئك القوم، وكان ذلك الحيف داعيا لحتف تلك الجماعة برمتها "إذا حان أجل البعير حام حول البير"، فلما أخبر جنكيز خان بتلك الحال أسرعت الأعلام صوب سقناق، ولشدة ما أصابه من غضب أمر الجند والعسكر بمداومة القتال منذ الصباح الباكر حتى المساء، واستمروا على ذلك سبعة أيام متتالية ثم فتحوها عنوة وقسرا وأغلقوا باب العفو والسماح، ومحووا صورة وجود أكثرهم من جريدة الوجود انتقاما لتلك النفس، وأعطى حكم هذه البلدة لابن حسن حاجي المقتول حتى يجمع البقايا التي بقيت في الأركان والزوايا. ومضوا من ذلك المكان واستولى على أوركند وبار جليغ كنت، ونظروا إلى أنهم لم يقاوموهم أو يحاربوهم فلم يقتلوه جميعا. ثم توجهوا بعد ذلك إلى أشناس وكانت غالبية جنودها من

السفلة الأوباش، وقد قاتلوا قتالا عنيفا واستشهد الكثير منهم، فلما وصلت أنباء هذه الحالات إلى جند انسحب قتلغ خان أمير الأمراء مع جيش كبير كان السلطان قد عينه للمحافظة على تلك المنطقة عملا بالحكمة القائلة "من نجا برأسه فقد ربح"، ونهض كالرجال العقلاء موليا ظهره للفرار في أثناء الليل موليا وجهه شطر الطريق حتى عبر نهر جيحون وتوجه إلى خوارزم عبر الصحراء، فلما وصل خبر جلائه وخلاء جند من الجنود أرسل جنتيمور برسالة إلى الأهالي وأخذ في استمالتهم وينذرهم ويحذرهم عاقبة الخصام، ونظرا إلى أنه لم يكن في جند حاكم قوى أو قائد مطلق يوجههم ويجمعهم فقد تصرف كل واحد منهم حسب رأيه الذى يتراءى له صوابا، وأحدث العوام الضوضاء والهرج والمرج قاصدين أن يسقوا جنتيمور شرابا مر المذاق مثلما فعلوا مع حسن فعلم جنتيمور بذلك، فخاطبهم بدهاء وذكاء ورفق ومدارة، وتمكن من تسكينهم وتهنئتهم وذكرهم بأحوال سقناق وما أصاب أهلها من جراء مقتل حسن حاجي وعقد معهم موقفا، قائلا: إني لن أسمح لأى جيش أجنبى أن يطأ بأقدامه أرض تلك البلاد. ففرح المواطنون بتلك النصيحة والعهد، وتعهدوا بأن لا يلحقوا به أذى أو ضررا. فلما عاد إلى (ألوش أيدى) عرض عليه ما كان قد شاهد من أحوال تلك الجماعة ونيتها وما سلكه معهم، لدفع شرهم من حلو اللسان وما اتبعه معهم من تملق وخداع ووصف عجزهم وقصورهم واختلاف آرائهم وأهوائهم، ومع أن الرغبة كانت متوفرة لدى الجيش المغولى للإقامة فى قراقورم وأن لا يتعرضوا لجند بالهجوم، فإنهم لهذا السبب قد لووا أعنتهم متجهين صوبهم باذلين جهدهم لاستخلاصها، ونزلوا بخارج المدينة فى الرابع من صفر سنة ٦١٦هـ واشتغل الجند بحفر الخندق وما يلزم ذلك من أخشاب ومنجنيق وسلام وغيرها، بينما لم يسلك أهالي جند خطوة واحدة نحو الحرب واكتفوا بإغلاق البوابة وجلسوا فوق الحائط والأسوار ينظرون كالنظارة، ونظرا إلى أن غالبية أهالي المدينة لم يكونوا قد شاهدوا حربا قبل ذلك ولا خبرة لهم بها فقد تعجبوا من أفعال المغول قائلين: كيف يستطيعون الوصول إلى حائط القلعة؟! ومتى وكيف أقيمت هذه السلام؟! .

ووضع المغول السلالم على حائط القلعة، وتحركوا هم كذلك وبدأوا في استخدام المنجنيق، وسقط حجر كبير على الأرض كما لو كان قد طار في الهواء، ثم سقط فأصاب الحلقة الحديدية لهذا المنجنيق وكسرها، وفي تلك الأثناء وصل المغول من جميع الجوانب وصعدوا إلى أعلى الحائط وفتحوا البوابات ولم يصب أي فرد من الجانبين، وأخرج المغول جميع المواطنين، ونظروا إلى أنهم كفوا أيديهم وأرجلهم عن القتال والنزال معهم فقد مسحوا جباههم بيد الشفقة والرحمة وأبقوا عليهم أحياء عدا عدد قليل من القادة الذين أهانوا جنّيمور^(١) وتطاولوا عليه في القول، فقد قتلوه واعتقلوا أهالي تلك الناحية في الصحراء تسعة أيام بلياليها، وأغاروا على المدينة ونهبوها ونصبوا عليها على خوجة الذي كان من سادة^(٢) بخارى والذي كان قد لازمهم وانضم إليهم منذ زمن بعيد قبل خروجهم، وعهدوا إليه برعاية مصالحها والاهتمام بأمرها، وقد نجح في ذلك، وتمكن من أداء عمله واستمر يشغل هذا المنصب ما لم يصدر من دار القضاء منشور الأجل بعزله.

وسير إلى مدينة كنت أميراً مع عشرة آلاف من الجنود استولى عليها وترك شحنة له بها، أما بالنسبة إلى ألوش أيدى فقد رحل إلى قراقورم، واختار من التراكمة سكان الصحراء ما يقرب من عشرة آلاف، وعين تايغال نوبين قائداً لهم ومضوا إلى خوارزم، وبعد أن ساروا عدة أيام قطعوا خلالها عدة منازل من الطريق حدثت حادثة مؤسفة، فقد لازمهم شخص نحس الطالع وحرصهم على قتل المغولي الذي اختاره تايغال ليقوم مقامه في قيادتهم، وأعلنوا العصيان، كان تايغال يسير في المقدمة، فاضطر إلى العودة لإطفاء نار الفتنة وإسكات الاضطرابات التي أحدثوها، وقتل غالبية تلك الجماعة، وهرب بعضهم بمعجزة وأنقذ نفسه وروحه، ومضى مع فوج آخر إلى مروو آمويه، وهناك تكاثر عددهم وازداد جمعهم كما سيثبت ذلك في موضعه المناسب إن شاء الله.

(١) معنى هذه الكلمة: الحديد الحقيقي Boyle: 88 true iron.

(٢) في المتن قردوان ولم أعثر لها على معنى وترجمتها طبقاً للمخطوط بـ "سروران".

ذكر استخلاص فناكت وحجند وأحوال تيمور ملك

أرسل ألاق نويان وسكتو وتقاي مع خمسة آلاف رجل للتوجه إلى فناكت، وكان أميرها إيلتكو ملك ومعه جيش من القنقليين فتحاربوا معا ثلاثة أيام متتالية، لم يحرز المغول أى تقدم خلالها حتى حل اليوم الرابع.

حينما قذفت الشمس أنشوطتها عالياً وارتفع الفضاء إلى السموات العلى

طلبوا الأمان، وخرجوا مستسلمين ففصلوا الجنود عن أرباب الحرف وأجلسوا كل جماعة على حدة وقضوا على الجنود جميعا بعضهم بضرب السيوف وآخرون بقذف السهام، وقسموا أرباب الحرف إلى عشرات ومئات، وعينوا الصناع والحرفيين وأصحاب الجوارح ثم استخرجوا الشباب من بين الآخرين وأرسلوهم إلى الجيش الأمامى وتوجهوا إلى حجند، فلما وصلوا إلى هناك تحصن أرباب المدينة بالقلعة وتخلصوا من طوارق الزمان. وكان أمير تلك القلعة تيمور ملك الذى قيل فى حقه لو أن رستم كان لا يزال حيا فى عهده ما صلح إلا أن يكون سائسا عنده، وكان قد أقام فى وسط نهر جيحون - حيث يتفرع النهر فرعين - قلعة عالية محصنة، وذهب إلى هناك مع ألف من الرجال الأشداء والمحاربين المشهورين، فلما وصل الجيش إلى هناك لم يتمكن من الاستيلاء على القلعة مباشرة، فلا يمكن أن تصل إليها سهام أو منجنيق، وساقوا شباب خجند إلى الجيش الأمامى وكانوا يمدون هذا الجيش بالشباب الذين أسروهم من أترار وبخارى وسمرقند والمدن والقرى الأخرى التى استولوا عليها، حتى أصبح هناك خمسون ألف رجل فى الجيش وعشرون ألف مغولى فقسموهم جميعا إلى مجموعات عشرات ومئات، وعينوا مغوليا على رأس كل عشر مجموعات تتكون كل منها من عشرة من التاجيك، وكانوا ينقلون الأحجار من الجبل ولمسافة ثلاثة فراسخ مشيا على

الأقدام، وكان المغول يسقطون تلك الحجارة فى الماء وهم راكبون الجياد، وكان تيمور ملك قد صنع اثنى عشر زورقا مغطاة باللباد المبلل الملوخة بطبقة من الطين الممزوج بالخل تاركين البوابات الصغيرة (للقذف)، وكان يرسل شيئا من هذه الزوارق فى كل صباح إلى اتجاه معين، وكانوا يقاثلون بضراوة، ولم تكن ضربات السهام تؤثر فيها، وكان المغول يقذفون بالنار والنفط والحجارة فى الماء، ولكن تيمور كان يتخلص منها وينجو، بل ويشن عليهم غارات ليلية، فأرادوا أن يدفعوا مضرتة ويتخلصوا من ضرره، وعبثا حاولوا انتقاء شره، فقد نفدت سهامهم وما معهم من منجنيق فقد استخدمت كلها، فلما تأزم الموقف وجاءت اللحظة التى لا بد وأن يختار فيها إما الشهرة وإما العار فى الوقت الذى صار فيه قرص الشمس طعاما لمعدة الأرض وأظلمت الدنيا وأصبحت قائمة كصومعة المسكين، جهز أمتعته وأقاله وأحماله وأجلس رجاله فى سبعين سفينة كان قد أعدها ليوم الهروب. ركب هو وجماعة من الرجال فى زورق وأضاءوا المشاعل وانطلقوا مسرعين كالبرق الخاطف كما قال الشاعر:

خاض الدجى ورواق الليل مسدول برقٌ كما اهتز ماضى الحد مصقول

وتحرك الجيش على شواطئ النهر بينما هو يتحرك فى زورقه إلى كل مكان يستخدمون فيها القوة ويقذفهم بالسهام التى لا تخطئ هدفها مثل القضاء، فقاد السفن وأسرع بها، واستمر على هذا النحو حتى وصل إلى فناكت، وكان المغول قد أقاموا سلسلة وسط الماء حتى تكون حائلا للشقى من التقدم فقذفها بضربة من رمحه وغيرها، واشتركت بعض الجيوش فى حرب من الطرفين حتى وصل إلى حدود جند وبارجليغ. وهاجمته الجيوش من كل جانب. فلما وصلت أخباره إلى سمع ألوش أيدى وكان يمتلك جيشا على شاطئ النهر فى عدة أماكن، وشيد قنطرة من السفن وأعدت آلات القذف للعمل وأخذ تيمور ملك فى ترصد الجيش وانتظاره له، فلما وصل إلى حدود بارجليغ كنت اتجه صوب الصحراء، وخرج من الماء وقطع الصحراء هاربا مثل الفأر على

جواد سريع وأسرع جيش المغول فى أثره متعقبا له، وبينما كانوا يجرون وراءه كان هو قد أرسل أمتعته إلى الأمام وتخلف مستعدا للقتال قابضا على سيفه قبضة أشد الرجال. وكلما تحركت الأمتعة مسافة أكثر مضى فى أثرها مرة أخرى، واستمر يكافح على هذ النحو عدة أيام حتى قُتل وجُرح من رجاله الكثير بينما كان جند المغول يزداد يوما بعد يوم، وأخذ المغول أمتعته منه وبقي مع عدد قليل من رجاله إلا أنه ظل مصرا على القتال وعدم الاستسلام، فلما قتل الأشخاص القليلون الذين كانوا معه ولم يبق معه سلاح سوى ثلاثة من السهام أحدها مكسور لا حربة له مضى فى أثره ثلاثة من المغول فرماهم بالسهم المكسور الذى لا رأس له فأصاب أحدهم وأعماه، ثم قال للآخرين الآخرين: لقد بقي سهمان بعددكما وإنى مستاء لاستخدام السهم ضدكما والأفضل لكما وما فيه صلاحكما أن تعودا وتحفظا أرواحكما. فعاد المغوليان عنه ومضى هو إلى خوارزم وبدأ فى الاستعداد للحرب مرة ثانية، وذهب مع جمع من الجنود إلى مدينة كنت وقتل النائب الذى كان يتولى أمرها هناك ثم عاد.

فلما لم يطب له المقام فى خوارزم ولم يجد فيها أمنا ذهب فى أثر السلطان الذى التحق به فى الطريق إلى شهرستان، وبعد مدة بينما كان السلطان يبحث فى كل مكان ويتقدم ويتأخر أظهر بدوره كثيرا من المقدرة والكفاية ثم ذهب بعد مدة فى زى الصوفية إلى الشام.... وبعد بضع سنين هدأت دائرة الفتنة والتأمت جروح الزمان فإن حب الوطن والأهل كان الباعث له على العودة، بل كان القضاء هو محرضه على ذلك حتى وصل إلى فرغانة واستوطن مقابر قسبة "أرس" عدة سنوات، كان فيها على اتصال دائم بالأخبار وكان يذهب فى كل وقت إلى خجند ليرى ابنه الذى أنعم عليه من حضرة باتو بأسباب والده وأملاكه، وتوجه إليه فاقترب تيمور منه وقال: إذا كنت ترى والدك فهل تتعرفه؟ فأجاب الابن: لقد كنت طفلا رضيعا حين تركنى والدى وتخلفت عنه وإنى لن أتعرف عليه ثانية، ولكن هناك غلاما يعرفه. فأحضروا الغلام الذى شاهد العلامات التى كانت بأعضاء تيمور

فشهد عندئذ بأنه هو حقيقة وشاع هذا الأمر بين الناس ولم يصدق به بعضهم، لأن الودائع كانت في أيديهم فأنكروا ذلك، ولهذا السبب فكر في الذهاب إلى حضرة القا آن حتى ينعم برعايته وشفقته، والتقى في الطريق (بقدقان) الذي أمر بتقييده، وسأله قدقان فيما يختص بحربه وفعاله مع المغول.

لقد رآنى البحر والجبل وأنا فى قتالى مع أبطال توران المشهورين

وما فعلته بهم النجم شاهد عليه، فأتى

بالشجاعة والإقدام قد أخضعت الأرض كلها لى.

وتعرف عليه المغولى الذى كان قد أصابه بالسهم المكسور وأكثر من توجيه الأسئلة إليه، إلا أنه أهمل فى إجابته أسلوب الاحترام والتعظيم الذى يتبع بين المتكلمين فى حضرة السلاطين، ولشدة غضبه انطلق منه أحد السهام فكان ردا على جميع السهام التى قذفها من قبل فالتوى متألما متأوها ولم يعد يفكر فى خير أوشر وقد أصابت الطعنة مقتلته وانتقل من بيت الدنيا الفانية إلى الدار الباقية. ما من الموت خلاص ولا عنه مناص:

أيتها الدنيا عجا لأفعاك قمناك السليم ومناك المكسور

ذكر استخلاص ما وراء النهر على سبيل الإجمال

تشتمل بلاد ما وراء النهر على بلاد وبقاع ونواح ورباع إلا أن بخارى وسمرقند هي خلاصة تلك المساكن وزبدة هذه الأماكن، وقد ورد في كتاب معجم البلدان عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ستفتح مدينة بخراسان خلف نهر يقال له جيحون تسمى بخارى محفوفة بالرحمة محفوفة بالملائكة منصور أهلها النائم فيها على الفراش كالشاهر في سبيل الله سيفه، وخلفها مدينة يقال لها سمرقند فيها عين من عيون الجنة وقبر من قبور الأنبياء وروضة من رياض الجنة تحشر موتاها يوم القيامة مع الشهداء، ومن خلفها تربة يقال لها قطوان يبعث منها سبعون ألف شهيد يشفع كل شهيد في سبعين من أهل بيته وعشيرته.

وسوف تثبت وقائع هاتين المدينتين بالتفصيل على التخصيص ويؤيد صحة هذا الحديث أن أمور العالم نسبية وقد قالوا: وبعض الشر أهون من بعضه.

وتحت كل الظروف والأحوال فإن الشكر واجب على العبد فالشر الكثير أسوأ من الشر القليل.

وصل جنكيز خان بنفسه إلى تلك البلاد، وكانت أفواج جيش التتار تترى كأمواج البلاء والفناء. ولم يشف صدره الانتقام منهم والتشفى فيهم أو إسالة دمائهم أنهارا كما سطر ذلك حكم القدر في جريدة القضاء. فلما استولى على بخارى وسمرقند فقد أدخل السرور على نفسه بالقتل والإغارة إلا أنه لم يبالغ أو يفرط في قتلهم. ولم يتعرضوا (أى جنكيز خان) لما يجاور تلك البلاد وضواحيها لاستسلامهم وانقيادهم لحكمه، ثم اتجهوا بعد ذلك لإعادة العمارة وتأمين ما بقي من الأهالي، حتى إذا ما حلت شهور سنة ثمان وخمسين

وستمائة عادت عمارة ورونق بعض هذه البقاع إلى رونقها الأصلي واقترب بعضها الآخر من ذلك، بخلاف خراسان والعراق التي ابتليت بالحمى اللازمة والحرارة المطبقة، فقد أغاروا على مدنها وقراها عدة مرات وقتلوا أهلها، وقد استمر ذلك الاضطراب عدة سنوات، فعند ذلك الحين حتى يوم القيامة فلو توالد الناس وتناسلوا وازداد عدد الناس وتكاثروا فإنه لن يصل إلا عشر ما كان عليه قبل ذلك، ونستطيع أن نتعرف على ذلك من آثار الأطلال والدمن التي سجلت ونقشت أعمال الزمان على جدرانها وإيواناتها، وكان من مظاهر الاهتمام بتلك الممالك أن عهدوا بزمam تلك البلاد إلى كفاءة صاحب الأعظم يلواج وخلفه الصادق الأمير مسعود بك حتى يصلح برأيه الصائب وبصره الثاقب المفاصد التي ألمت بها، ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر.

فرفع عن كاهل الأهليين مؤن الجيش وأثقال الضرائب وزوائد العوائد، وتؤيد صحة هذه الدعوى آثار النعمة والعمارة والرخاء الذي أصاب الأهليين، التي هي مشرق أنوار ذلك العدل والرافة، تلك الآثار التي ظهرت على صفحات تلك الأمصار، التي تتجلى بوضوح على أحوال تلك الأقاليم وقاطنيها.

ذكر استخلاص بخارى

هى من البلاد الشرقية قبة الإسلام، وتعتبر مدينة السلام فى تلك النواحي والأنحاء، ازدان سوادها ببياض نور علمائها وفقهائها وزينت أطرافها وجملت بطرف المعالى.

وهى منذ قديم الزمان وفى كل قرن مجمع نحارير علماء كل دين وفق دين كل عصر، واشتقاق كلمة بخارى من بخار، وهى تعنى بلغة المغان مجمع العلم، وهذا اللفظ بلغة الأويغوريين والختاي عبدة الأوثان. قريب من هذا المعنى أنهم يطلقون على معابدهم التى تضم الأصنام كلمة بخار، وكان اسم المدينة وقت إنشائها بمجكث^(١)، فلما فرغ جنكيز خان من ترتيب الجنود وتجهيزهم وصل إلى ممالك السلطان وأرسل الأبناء الكبار والأمراء مع جيوش كثيفة إلى كل مكان، وتوجه هو بنفسه قاصدا بخارى، واشترك معه من أبنائه الكبار تولى مع جيش كبير من الأتراك الشجعان الذين لا يفرقون بين الطاهر والنجس ويحسبون كأس الحرب كأس شراب لذيدة ويظنون غمد الحسام كأس المدام. وتحرك عن طريق زرتوق فى الوقت الذى ارتفعت فيه الشمس من الأفق الشرقى فى الصباح الباكر، وصل إلى طرفها فجأة، وفى الوقت الذى رفع فيه سلطان النجوم العلم من الأفق الزمنى كان أهالى المدينة غافلين عن القضية التى ولدتها الأيام والليالى. فلما رأوا أطراف المدينة وأكنافها وقد أحاط بها الفرسان واستحال الهواء المنير إلى ليل بهيم من تراب الخيول استولى الفزع والهول عليهم وارتسم الخوف والجبن على وجوههم، لجأوا إلى القلعة وتحصنوا بها وأغلقوا أبوابها ظانين ومفكرين أنه ربما يأتيهم فوج من جيش كثيف أو موج من بحر لجئ متلاطم حتى يقاتلوا ويسيروا إلى

(١) اسمها الصفدى القديم Bumich Kath وتعنى العاصمة.

حتفهم بأرجلهم فأنقذهم بواسطة اللطف الرباني وثبتت أقدامهم ولم يختلفوا فيما بينهم، وفي أثناء ذلك أرسل سلطان العالم وفقا لعادته المتبعة رسولا هو و"الشحنة صاحب" برسالة إليهم مخبرا بوصول الموكب وناصحا لهم بتجنب الوقوف في وجه السيل الشديد.

إلا أن نفرا منهم ممن ينطبق عليهم القول "استحوذ عليهم الشيطان" أرادوا بمعارضته التعرض له وإيذائه فصاح فيهم معليا صوته قائلا: إنى فلان ابن فلان مسلم ابن مسلم قد أتيت إليكم ابتغاء مرضاة الله برسالة من جنكيز خان نافذ الأمر والسلطان حتى أخرجكم وأنقذكم من أعماق الهلاك وبحار الدماء، فهذا هو جنكيز خان قد أتى بنفسه ووصل إلى هنا على رأس عدة من الألوف من المحاربين الأشداء، فإذا أبديتم أية رغبة في الخلاف والعناد فإن القلعة والصحراء والوادي ستصبح في ساعة واحدة بحرا كبيرا من الدماء، وإذا أصغيتم واستمعتم لنصيحتته وموعظته ووعتها عقولكم وأذانكم وانقذتم إليه وأطعتم أمره حفظتم أنفسكم وأموالكم في حصن الأمان.

فلما استمع الناس من خاصة وعامة لأقواله التي لمسوا فيها سمة الصدق وإحساس اليقين أصغوا إلى نصيحتته وأدركوا تمام الإدراك أنه لا قدرة للسيل على ملء ممره واعتراض سبيله. وستزلزل الجبال زلزالها ولن تعرف الأرض الاستقرار والقرار، ورأوا الصلاح في الصلح والفلاح في قبول النصيح فأخذوا منه موثقا وتعهدا من باب الاحتياط والأمان، إذا ما استقبله الأهالي فرحين واستسلموا لحكمه وأصاب الضرر أي فرد منهم فإن ذنب ذلك الجرم يقع على عاتقه ويقتص منه، وهكذا هدا الأهلون واستقروا وأمنوا وسحبوا أقدامهم عن طريق الخطأ والعناد، وكفوا أفكارهم عن ذلك وولوا وجوههم شطر المصلحة والمنفعة، وأرسل أكابر زرنوق وعظماؤها وفدا إليه حاملا الكثير من الهدايا، فلما وصلوا إلى موقف خيول الخان سألهم عن أحوال قادة ومعارف زرنوق وغضب لتخلفهم ونقاعدهم، وأرسل رسولا لاستحضارهم، ولشدة هيبة السلطنة وخوفهم مما سينالهم ارتعدت فرائصهم

واضطربت أحوالهم وزلزلت أركانهم زلزالا شديدا، كجبل ذلك نكّة واحدة وأسرعوا في التو والحال إلى حضرته، فلما مثلوا بين يديه أظهر لهم جنكيز الكثير من الشفقة والعطف والرحمة، وأمنهم على أرواحهم حتى استقرت نفوسهم وهدأت أمورهم، ثم أصدر أمرا بخروج أى كائن كان فى زرنوق سواء أكان من أصحاب القلائس والعمامة أم أصحاب القنّاع والبراقع، فجمعوهم فى الصحراء وأحالوا القلعة إلى صحراء جرداء ثم أحصوا الجماع وعينوا جيشا أماميا من الفتيان والشبان لمهاجمة بخارى وسمح للآخرين بالعودة إلى ديارهم وأسماوا القرية قتلغ باليغ (المدينة المباركة).

واتخذوا من تراكمة تلك المواضع دليلا خبيرا بالطرق والسبل وعلى دراية وعلم كبيرين بشأنها فقاد الجيش فى طريق لا يسلكه أحد ويطلقون على هذا الطريق منذ ذلك الحين الطريق الملكى. وكان مرورى فى شهور سنة تسع وأربعين وستمائة فى مصاحبة الأمير أرغون فى أثناء ذهابه إلى بلاط منكوقا آن من هذا الطريق، وكان طائر بهادر يسير فى المقدمة، فلما اقتربوا من مدينة نور ساروا وسط عدد من الحقائق، وفى أثناء الليل جذوا الأشجار وصنعوا منها سلالم ومصاعد وأمسكوا السلالم أمام جيادهم، وتقدموا ببطء وتؤدة، وظن مراقبو السور أن هؤلاء جماعة من التجار، وظلوا على هذا النحو حتى وصلوا إلى باب قلعة نور فأظلم النهار عليهم، وغشيت الظلمة أعينهم.

وهذه هى حكاية زرقاء اليمامة: لقد شيدت قلعة عالية وكانت ثاقبة النظر لدرجة أنها كانت قادرة على رؤية جيش خصومها من بعيد إذا قصدوا خصم من الخصوم، فتستعد وتتسلح لمنعهم وصدّهم، ولم يكن خصومها قادرين على تحقيق أى شىء ضدها سوى الحسرة والندم، بعد أن يكونوا قد فعلوا كل خدعة محكمة ولم يغفلوا عن أية حيلة ممكنة، وفى النهاية أمرهم أن يقطعوا الأشجار من جذوعها بأغصانها وأن يمسك كل فارس بالشجرة أمامه، وكانت الزرقاء تقول : إنى أرى شيئا عجبا فإنى أرى شبه غابة تتحرك

نحونا. فقال قومها: ربما اعتري نظرك خلل أو ألم به مكروه ، إذ كيف تتحرك الأشجار؟ وأهملوا المراقبة وأخذ الحيلة والحذر حتى كان اليوم الثالث وصلت جيوش الخصوم وهجموا، وانتصروا عليهم وقبضوا على الزرقاء وقتلوا، والخلاصة أن أرباب نور أغلقوا الأبواب وأرسل طابير بهادر رسولا مخبرا بوصول السلطان فاتح العالم وناصحا بالانقياد وترك العناد، وكانت أهواء الأهالي وآراؤهم مختلفة متباينة والسبب في ذلك أنهم لم يكونوا مصدقين بوصول جنكيز خان بنفسه، بل كانوا في حذر شديد من وصول السلطان مستعدين له وكانوا مترددين لا يعلمون ما يفعلون فكان بعضهم راغبا في الاستسلام والانقياد والدخول في الرعية وآثر آخرون التمرد والعصيان... وبعد مفاوضات قام بها الرسل والسفراء استقروا على أن يرتب أهالي نور نزلا وطعاما أرسلوه في مصاحبة الرسول إلى حضرة سلطان الوقت وأن يقدموا له فروض الولاء والطاعة وسمات الوفاء والانقياد.

وقنع طابير بهادر بالقليل من النزل مما قدموه ومضى في سبيله وأرسل أهالي نور رسولا مخبرا بما تم الاتفاق عليه، وبعد أن شرف الرسول بقبول السلطان للنزل أمر أن يتوجه سبتاي في المقدمة إليهم وأن يسلموه المدينة. فلما وصل سبتاي امتثلوا للأمر الصادر إليهم وسلموا له المدينة واتفقوا على أن يقتنعوا بنجاة المواطنين وأن يهيا لهم ما لا بد منه من أمور المعاش ومصالح العمارة والزراعة من أغنام وبقور وأن يخرجوا إلى الصحراء وأن يتركوا المنازل كما هي حتى يغير عليها الجنود فنفذوا ما أمروا به ودخل الجيش إلى المدينة ونهبوا كل ما وجدوه ولم يحد المغول عن الاتفاق الذي أقروه ولم يصيبوا أى فرد منهم بأذى أو مكروه، واختاروا ستين رجلا أرسلوهم مع إيل خواجه ابن أمير نور وعونا كما كان متعارفا إلى دبوس، فلما وصل جنكيز خان قاموا وهبوا لاستقباله حاملين معهم ما يناسبه من الهدايا والنزل فخص جنكيز خان تلك الجماعة بالعطفة السلطانية وسألهم: ما الضرائب التى يفرضها السلطان على أهالي نور؟ قالوا ألف وخمسمائة

دينار . فأمرهم بأن يدفعوا قيمة هذا المقدار نقدا وأن لا يتعرضوا لأى شىء آخر خلاف ذلك، وقدم نصف هذا المبلغ من قلائد النساء وجواهرهن وتعهدهوا بسداد الباقي بعد مدة ثم دفعوه إلى المغول وتخلص أهالى نور من مذلة الأسر وعبودية التتار وحصلت نور على الرخاء والرفاهية. ثم توجه من هناك إلى بخارى ونزل فى أوائل المحرم من سنة سبعة عشر وستمئة على بوابة القلعة.

ثم أقاموا بعد ذلك مقاما للسلطان فى الصحراء فى مواجهة القلعة.

كان عدد الجنود يزيد عن عدد النمل والجراد ويفوق حد الحصر والإحصاء، وكانوا يصلون فوجا بعد الآخر كأنهم أمواج بحر زاهر متلاطم الأمواج ونزلوا حول المدينة، وكان هناك عشرون ألفا من جيش السلطان من خارج المدينة يتقدمهم كوك خان الذى كانوا يقولون عنه إنه كان مغوليا وهرب من جنكيز وانضم إلى السلطان - والعهدة على الراوى- ولهذا السبب نال حظوة عند السلطان وعلا أمره، وقد خرج هو وأمراء آخرون عند غروب الشمس مثل خميد بور وسونج خان وكشلى خان من القلعة مع أكثر القوم، وحينما وصلوا إلى شاطئ نهر جيحون تعقبهم حرس ومقدمة الجيش الاستطلاعية وأطبقوا عليهم ولم يتركوا أثرا لهم.

إذا لم يكن يغنى الفرار من الردى على حالة فالصبر أولى وأحزم

وفى اليوم الثانى حينما أضحت الصحراء من انعكاس قرص الشمس طسنا ممثلا بالدم، فتحوا البوابة وأوصدوا باب النزاع والنزال والحرب والخصام وذهب أئمة وأعيان مدينة بخارى إلى جنكيز خان، ودخل جنكيز لتفقد القلعة والمدينة من الداخل ودلف إلى المسجد الجامع ووقف فى مواجهة المقصورة وترجل ابنه تولى وصعد المنبر وسأل جنكيز: أهذه سرارى السطان؟ فقالوا إنها بيت الرحمن، فنزل عن جواده هو الآخر وصعد درجتين أو ثلاثا وقال: إن الصحراء خالية من العلف، فليطعموا الجياد. ففتحوا المخازن التى كانت موجودة بالمدينة وأخرجوا ما بها من غلات ثم أحضروا

صناديق المصاحف إلى وسط صحن المسجد حيث تفاذفتها الأيدي والأقدام، وجعلوا من صناديقها إصطبلًا للخيول وأخذوا يداومون في احتساء كنوس النبيذ واحضروا مغنيات المدينة فاستمعوا لهن ورقصوا على أنغامهن. وبينما كان المغول يرفعون أصواتهم على نغمات غنائهن كان الأئمة والمشايخ والسادات والعلماء ومجتهدو العصر يقومون بحراسة الجياد والبوابة وحظائر الأمراء والمحافظات عليها والتزموا بالامتنال لحكم هؤلاء القوم... وبعد ساعة أو ساعتين عزم جنكيز على العودة مرة أخرى إلى معسكره وسارت معه الجماعة التي كانت هناك وصارت أوراق مصاحف القرآن موطأًا للنعال وسط القاذورات.

وفي تلك الأثناء توجه الأمير الإمام جلال الدين على بن الحسن الرندي الذي كان قدوة وإماما لسادات بلاد ما وراء النهر وكان على درجة كبرى من الزهد والورع إلى الإمام العالم ركن الدين بن الإمام الذي كان من أفضل علماء العالم طيب الله مرقديهما وقال: ما هذه الحالة التي أراها يا مولانا؟! وهل ما أراه يا رب حقيقة أم منام؟! فقال مولانا: أصبت، إنها رياح الاستغناء عن الله التي تهب، إننا لا قدرة لنا على الكلام.

فلما خرج جنكيز خان من المدينة ذهب إلى مصلى العيد وصعد المنبر وكانوا قد أحضروا أهل المدينة جميعا فسأل عن الأغنياء فيما بينهم فعينوا مائتين وثمانين شخصا منهم مائة وتسعون من أهل المدينة وتسعون آخرون غرباء من التجار الذين وفدوا إليها من الأقطار الأخرى وأحضروهم إلى مقربة منه ثم بدأ خطابه ذاكرًا غدر السلطان وخلافه الذي ما ذكر عنه كاف، وقال في بداية قوله: أيها القوم اعلموا أنكم قد اقترفتُم الكثير من الذنوب والآثام، وقد ارتكب هذه الآثام عظماءكم وكبرائكم. تسألونني ما دليلي على ما أقول، فأجيبكم: إن سبب ذلك هو أتى عذاب الله، فإذا لم تكونوا قد ارتكبتم المعاصي والآثام لم يرسل الله عذابا مثلي ليصب فوق رؤوسكم العذاب، ولأدبكنم وبال أمركم أختتم الخطبة بهذه النصيحة قائلا: لا حاجة إلى

الاعتراف بأموالكم الظاهرة والواضحة على وجه الأرض، أخبرونى عما يحتويه باطن الأرض. ثم سألهم بعد ذلك قائلا من أمناءكم والمعتمدون لديكم؟ فتحدث كل شخص عن أقاربه والمرتبطين به وعين مع كل واحد منهم مغوليا أو تركيا نائبا عنه باسم باسقاق حتى لا يتعرض أحد من الجنود لهم أو يخضعوهم ويقهروهم بالإذلال والهوان، ثم بدأوا فى أخذ المال من هؤلاء المعتمدين فأخذوا ما أعطوه لهم من الأموال دون أن يفرضوا عليهم أضعافه أو يحملوهم ما لا يطيقون. وفى كل يوم فى وقت طلوع الشمس كان الموكلون يحضرون كبار القوم إلى حضرة سلطان العالم، وكان جنكيز خان قد أصدر أمرا بإخراج جيش السلطان من داخل المدينة والقلعة، فلما كان تنفيذ ذلك الأمر عسيرا بالنسبة إلى المواطنين، وكانت تلك الجماعة حامية لنفسها وأرواحها قد سلكت كل ما يمكن لها من محاربة وقتال وإغارة ليلية، لهذا أصدر أمرا بإضرام النار فى المحلات، ونظرا إلى أن مبانى المدينة كلها كانت من الأخشاب، فإن غالبية المدينة قد احترقت خلال عدة أيام عدا المسجد الجامع وبعض القصور التى كانت قد شيدت من الحجر، ثم ساقوا أهل بخارى لمحاربة ومهاجمة القلعة واشتعلت نار الحرب من الجانبين وأعد المغول من الخارج المنجنيق والحجارة وأحنوا الأقواس وأعدت السهام والحجارة، أما من الداخل فكانت آلات القذف وقوارير النفط معدة للاستعمال، وكانت مشتعلة كالتنور الذى يغذونه بأكوام وجبال من الأحطاب الجافة، وقد تناثر الشرر من جوف التنور مرعدا فى الهواء، واستمرت المعركة على هذا النحو عدة أيام شن أهل القلعة خلالها حملات شديدة على المهاجمين وبخاصة كوك خان الذى يبدو وكأنه قد اختطف من ذكر الأسود فقد كان شجاعا مقداما حارب بجسارة معارك عدة وأبلى بلاء حسنا وقتل فى كل هجمة عددا من الرجال، بل أسر وحده عددا كبيرا من الجيش، حتى اضطرب الأمر فى النهاية، ولم يعد هناك مجال للاختيار والتفكير وقيل عذر تلك الجماعة عند الخالق والمخلوق، وامتأل الخندق بالحيوانات والإنسان، وارتفع بالجيش الأمامى والبخاريين واستولوا على الفصيل وأضرموا النار بالقلعة وقد

أضحى الملوك والقادة والأعيان الذين كانوا أعيان الزمان والمقربين لدى
السلطان والذين تجاوزت عزتهم كل حد حتى وضعوا أرجلهم على رأس
الفلك، هؤلاء جميعا قد أضحوا أسرى المذلة والهوان وغرقى فى بحر الفناء
والدماء:

لعب الصوالج بالكرة	الدهر يلعب بالورى
فاعلم بكف من ذرة	أو لعب ريح عاصف
إنسان إلا قبرة ^(١)	الدهر قنّاص وما الـ

ولم يتركوا أى واحد من الرجال حيا بعيدا عن ضرب السياط
والتعذيب.

وقد أحصى الذين قتلوا من الرجال بما يزيد عن ثلاثين ألفا، وقد أسروا
صغار الأولاد وأولاد الكبار منهم والنساء الفارعات الجميلات القد، وحينما
طهرت القلعة والمدينة من الطغاة وسويت الجدر والفصيل بالأرض وأضحت
كثيلا مهيلا ساقوا جميع أهالى المدينة من رجال ونساء وقبيح وجميل إلى
منطقة المصلى وأمنهم جنكيز خان على حياتهم ولكنه اختار الشباب والكهول
الذين يصلحون لأداء الأعمال للاستعداد للانضمام إلى الجيش المتقدم لغزو
سمرقند ودبوسيه. وتوجه من هناك قاصدا سمرقند وتفرق أرباب بخارى
بسبب الخراب الذى ألم بهم وأضحوا كبنات النعش وذهبوا إلى القرى
المختلفة، وأضحت تلك المدينة قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا،
وكان واحد من أهل بخارى قد هرب بعد الواقعة ووصل إلى خراسان، وقد
سأله عما جرى فقال : قدموا، واقتلعوا، وحرقوا، وقتلوا، ونهبوا، ثم ذهبوا.
وقد شهد أهل الفصاحة والبلاغة والذين استمعوا لهذا القول بأنه لا يمكن أن
يكون هناك أوجز وأبلغ من هذا القول فى الفارسية تعبيرا لما جرى وكل ما
هو موجود ومسطور فى هذا الجزء أى خلاصة هاتين الكلمتين أو الثلاث

(١) من أبيات للفاضل أبى الفضل أحمد بن محمد الرشيدى اللوكرى الذى كان من أولاد هارون الرشيد، أوردها
الشعالبي فى تلمة البيتة.

التي ذكرها هذا الشخص، وبعد أن استولى على سمرقند عين توشا باسقاق نائباً عنه لإمارة وحكم منطقة بخارى، فقدم إلى بخارى، فاستعادت رونقها قليلاً، حتى إذا ما تولى مقاليد الحكم سلطان العالم، حاتم آخر الزمان، زاد اهتمامه بها فعهد بأمرها إلى بلواح الذي جذب بمغناطيس عدله ورأفته الشذاذ والمتفرقين الذين هربوا بأنفسهم لاجئين إلى الزوايا والخابايا، فعادوا إلى أوطانهم، وولوا وجوههم من جميع البلدان والأمصار وأقصى الأقطار وأدانيها شطرها فارتقت عمارتها، وحسنت إدارتها بفضل رعايته لها وعنايته بها، ولم تقف عند هذا الحد بل بلغت أقصى درجات الرقي والازدهار، وصارت ساحتها مستقراً للكرام والكبار ومجمعاً للخاصة والعامة من الناس.

وفجأة وفي شهور سنة ستة وثلاثين وستمئة خرج من أطراف بخارى أحد المتصوفه واسمه غربال مرتدياً زى أهل الخرقه، فاجتمعت عليه العامة من الناس وزادت الأمور سوءاً حتى بلغت حداً كبيراً فقد صدرت الأوامر بقتل جميع أهالي بخارى، ولكن صاحب بلواح كالأبرار دفع بخير دعائه شر القضاء، وارتفع عنهم ما حل بهم فجأة من بلاء وزالت عنهم الغمة، فاستعادت ساحة تلك البلدة رخاءها ورونقها، وانتعشت الأمور من جديد.

ويوماً بعد يوم انتشر قبض فضل واجب الوجود مكوناً بالرحمة والشفقة بساط العدل والجود وأشرقت كالشمس الوضاعة على يد شفقة محمود ودر ذلك البحر المسعود^(١)، والآن فلا تستطيع أى مدينة من ديار الإسلام أن توازيها أو تدانيها ازدهاماً بالأخلاق وكثرة للصامت بها والناطق واجتماعاً للعلماء وازدهاراً للعلم وطلبته وتشبيهاً لمباني الخير.

(١) المقصود هو صاحب الأعظم محمود بلواح وابنه مسعود بك، وقد عين محمود بلواح من قبل أوكتاي قا أن ين جنيكز خان حاكماً على ممالك الختاي في شمال الصين، ومسعود بك حاكماً لبلاد الأويغور وختن وكاشغر وما وراء النهر حتى نهر جيحون -التزويني نقلاً عن جامع التواريخ -رشيد الدين - بلوشيه
صفحة ٥٦ - ٨٦.

والمكانان اللذان أحكم بناءهما وتشبيدهما فى هذا التاريخ فى تلك الرقعة أولهما المدرسة السلطانية التى شيدتها سرقويتى^(١)، والثانى هو المدرسة المسعودية التى يدرس ويستفيد بها فى كل يوم ألف طالب من طلاب العلم وكان أساتذتها من نحارير علماء العصر وعظماء الدهر الأفاضل.

والحق أن هذين البنائين الشامخين قد زينا ميدان بخارى وكانا لها زينة وبهاء، وليس هذا فحسب بل كانا زينة وبهاء للإسلام قاطبة، وتحت ظلال هذه الظروف والأعمال نعم أهل بخارى وعم الرخاء، وخفضت عنهم الضرائب والمكوس. ننضرع إلى الحق تعالى أن يزين ساحات هذا العالم ببقاء السلطان العادل وازدهار الإسلام والدين الحنيف.

(١) Sorgagrani كما ذكرها صاحب التاريخ السرى للمغول وهى ابنة Gambu أختى أونك خان حاكم الكرايت، وقد تزوجت تولى بن جنكيز خان وأم أولادهم الأربعة منكوقا أن وقوبيلاي قا أن وهلاكو خان وأربيق بوغا.

ذكر خروج تارابي

كان قران النحس فى شهور سنة ست وثلاثين وستمائة فى برج السرطان، وكان المنجمون قد أفتوا بأن فتنة ستظهر، ومن الجائز أن يخرج أحد المبتدعة، وهناك قرية تبعد عن بخارى بثلاثة فراسخ، يطلقون عليها اسم تاراب، وكان أحد الرجال بها ويدعى محمودا صانع الغربال، وقد قالوا عنه إنه فى حماقته وجهله وصلفه لا نظير له، قد ظهر وبدأ فى ادعاء الزهد والتقوى خداعا وزورا ثم ادعى امتلاكه لقوى سحرية يقصد أن الجن تحدثه، وعن غيبيات الأمور تخبره.

ويوجد فى بلاد ما وراء النهر وتركستان كثير من الناس أغلبهم من النساء يدعون امتلاك هذه القوى السحرية، وكانوا يزورون كل شخص ألم به مرض أو أصابه مكروه، ويسمونهم قراء الغيب ويؤدون الرقصات وغيرها، والتزم الجهلة والعامّة بذلك الأسلوب وتلك الخرافات.

وكانت أخت محمود قد اعتادت محادثته فى كل نوع من أنواع الهذيان السحرية حتى يشيعها فى الناس، والآن ماذا يجب على العامة من الناس أن يفعلوا؟ لا يستطيعون إلا أن يتبعوا جهالاته، والحقيقة أن الناس قد ولوا وجوههم شطره، وحيثما ظهر مريض أعده المرض أو إنسان مبتلى بنازلة حملوه إلى محمود واتجهوا إليه، ومصادفة شفى واحد أو اثنان من هؤلاء المرضى واسترد قليلا من الصحة فازداد إقبال الناس عليه وكثر وفودهم إليه سواء أكانوا من الخاصة أو العامة "إلا من أتى الله بقلب سليم".

ولقد سمعت من بعض نقّات القول فى بخارى أنهم شاهدوه بأعينهم وفى حضورهم يداوى واحدا أو اثنين من العمى ينفخ غائط الكلب فى أعينهم فاستردوا أبصارهم، فسألت وهل كانا أعميين تماما؟ وإلا فإن هذه معجزة عيسى بن مريم "عليه السلام" فحسب. قال الله تعالى: "تبرئ الأكمّة والأبرص"، ولو شاهدت تلك الحالة بعينى رأسى لشغلت نفسى بمداواة عيني.

وكان ببخارى آنذاك أحد العلماء الفضلاء، وقد اشتهر بفضلته وعراقة نسبه، وكان يلقب بشمس الدين محبوبى، وبسبب التعصب والخلاف الذى كان بينه وبين أئمة بخارى فقد شنعوا عليه وألقوه بزمرة مريديه والمعتقدين فيه ونسبوا إليه أنه قال لهذا الجاهل: إن والدى قد روى وكتب فى كتاب أن واحدا من تاراب بخارى سيظهر وسيكون له شأن كبير وسيستولى على هذا العالم، وقد أوضحت صفاته وعلاماته، وإن هذه العلامات ظاهرة فيك بادية عليك. فازداد غرور هذا الجاهل الغبى بهذه الخرافة كثيرا، وقد وافقت هذه الدعوى ما أفتى به المنجمون ولهذا ازداد المقبلون عليه يوما بعد يوم وكثر المحيطون به واتجه أهالى القرية والمدينة جميعهم إليه، وظهرت آثار الفتنة وبوادر الأزمة، فتنشاور الأمراء والنواب الذين كانوا حاضرين آنذاك فى بخارى لمعالجة الأزمة وتسكين دائرة الفتنة وإخماد أوارها، وأرسلوا رسولا إلى محمود يلواج بخجند مخبرا إياه بهذه الحال، وتوجهوا هم إلى تاراب مدعين رغبته فى التبرك منه والتقرب إليه، والتمسوا منه التوجه إلى بخارى لترددان المدينة وتشرف بمقدمه، فقرر الذهاب إليها، واتفقوا على أنه إذا ما وصل إلى سربل وزيدان أمطروه رجما بالسهام فجأة، وحينما غادروا بخارى لاحظ تغيرا فى أحوال تلك الجماعة، فلما اقتربوا من بريل اتجه بوجهه إلى تمشا الذى كان من كبار النواب، وقال: ارجع عن فكرك السيئ وأقلع عنه وإلا أمرتهم بسمل عينيك دون تدخل أى من بنى آدم. فلما سمع منه المغول هذا القول قالوا: إنه مما لا شك فيه أن أحدا لم يخبره بقصدنا وهدفنا، وعلى هذا فمن الجائز أن تكون أقواله كلها على حق و صواب. فخافوا ولم يتعرضوا له بأذى حتى وصل إلى بخارى، ونزل فى سراى سنجر ملك فبالغ الأمراء والأكابر والصدور فى إكرامه وإعزازة متحينين الفرصة لقتله، إلا أن العامة من الناس تدافعت مقبلة إليه، وامتألت تلك المحلة التى كان ينزل بها والسوق المجاور لها بالناس، وضاق المجال وأصبح الناس كتلا متلاحمة ولم يكن هناك مجال لمرور هرة، وتجاوز ازدحام الناس كل حد ورفضوا العودة دون تبرك منه، ولم يعد هناك مجال للدخول ولم يعد

هناك مجال للخروج، عندئذ صعد إلى السقف ونفث عليهم ماء من فمه فعاد كل واحد منهم أركته رذاذة من فمه إلى بيته ضاحكا مستبشرا. إلا أن شخصا من أتباع غيه وضلاله أخبره عن مكر تلك الجماعة ونواياها وقصدها فانسل خارجا من أحد الأبواب فجأة واعتلى صهوة جواد من الجياد التى كانت موثقة لدى الباب، ولم تكن الأقوام الغريبة تعلم من هو فلم يلتفتوا إليه أو يهتموا بأمره، وفى عدوة واحدة وصل إلى تل باحفص سريعا، وفى لحظة واحدة اجتمع جمع غفير من الناس حوله، وبعد وقت قصير طلب المغول ذلك الجاهل فلم يعثروا عليه فأخذ الفرسان يعدون فى كل جانب طالبين إياه وباحثين عنه... ثم عثروا عليه فجأة فوق ذلك التل المذكور ثم عادوا وأخبروا الناس بأمره فصاح الناس قائلين: لقد طار السيد بضربة واحدة من أجنحته حتى وصل إلى تل باحفص. وفى لحظة واحدة سقط زمام الاختيار من يد الكبار والصغار.

واتجهت أكثر الخلائق إلى الصحراء والتل واجتمعوا حوله، فنهض لصلاة العشاء، ثم توجه إلى الناس وقال: يا عباد الله، لماذا التوقف والانتظار؟ إن الدنيا يجب أن تطهر من دنس الكفرة، فليسلح كل واحد منكم نفسه بما يتيسر له من سلاح ودرع أو عصى أو قطعة خشبية. وشرع كل واحد منهم فى سبيل ذلك وتوجه إليه كل رجل كان فى مدينة بخارى.

وفى يوم الجمعة نزل المدينة ودخل إلى سراى رابع ملك وطلب صدور وأكابر ومعارف المدينة، أعطى الخلافة لسيد الصدور والدهور، برهان الدين سلالة أسرة برهان الدين، وبقية عائلة صدر جهان، لرجاحة عقله وفضله التى لم يختلف أحد عليها، وعين شمس محبوبى فى منصب الصدر ثم أهان أكثر الأكابر والأمراء وتحديث إليهم حديثا لا يليق فبكتهم وأسأل ماء وجوهم، وقتل بعضهم، وهرب آخرون، واستمال العامة والغوغاء إليه، وجمعهم وقال: إن جيشى يتكون من عنصرين: الأول ظاهر من البشر، والثانى مستتر من الجنود السماوية التى تحلق فى الهواء وحزب

من الجن يسير فى الأرض، وسأظهر لكم ذلك الآن، فانظروا إلى السماء والأرض حتى تروا صدق دعواى، وكانت الخاصة من مريديه تنظر وتقول: إنهم يحلقون فى ذلك المكان فى ثوب أخضر، وها هم كذلك يطيرون فى ثوب أبيض فى نفس المكان . وكانت العامة من الناس تفر بما يقولون، وكان كل شخص يجاهر برأيه ويقول "لا أرى" يضربونه بالعصى حتى يعلن موافقته ورؤيته لما يقولون، وكان يقول لهم كذلك: إن الحق تعالى قد أمدنا بالسلاح من الغيب. وفى أثناء ذلك وصل أحد التجار من ناحية شيراز وبصحبته عدد كبير من السيوف تقدر بحمولة أربعة من الحمير، وبهذا صدقه العامة ولم يعد هناك شك لديهم فى انتصاره، فقرأوا اسمه (اسم محمود) فى خطبة الجمعة كسلطان لبخارى، وحينما فرغوا من الصلاة أرسل إلى بيوت العظماء وكبار الرجال فأحضروا خياما وبسطا وفرشا وسائر ما يلزم، وقسم الناس أنفسهم إلى مجموعات عسكرية فى طول البلاد وعرضها، وانطلقت العامة والأوباش إلى بيوت الأغنياء فأمعنوا السلب والنهب فيها، فلما جن الليل اختلى السلطان فجأة بتمائيل الحسنات الجميلات الوجوه جمال الملائكة، والعدارى الفاتنات وقضى معهن وقتا جميلا، ثم أحضرهن فى الصباح إلى حوض الغسيل حسب القول:

إذا ما فارقتى غسَلْتنى كأنا عاكفان على حرام

وتيمنا بهذا الماء وتبركا به قسموه عليهم بالمن والدرهم وجعلوه دواء للأمراض وقسم الأموال التى حصل عليها على هذا وذاك وفرقها على الجيش والخاصة.

فلما رأت أخته تصرفه ومجونه فى الفروج والأموال، انفصلت عنه مبتعدة قائلة: إن أمره الذى كان موكولا إلى قد أصابه سوء واعتراه الخلل.

وفى أثناء ذلك كان الأمراء والصدور الذين آثروا الفرار قبل الآن قد اجتمعوا فى كرمينيه، وجمعوا المغول الذين كانوا بتلك الأنحاء بجانبهم، وأعدوا كل ما يمكن إعداده وتجهيزه، واتجهوا صوب المدينة بينما كان هو

بدوره يستعد للقتال، فتقدم مع رجال صائحين مهللين لا يلبسون سوى القميص والإزار، واصطف الفريقان على الجانبين ووقف تارابى مع محبوبى فى صف واحد دون سلاح أو دروع، ونظراً إلى ما شاع بين الجنود المغول من أفكار فحواها أن أى شخص يرفع يديه فى وجهه مخالفاً شلت يده، ونتيجة لهذا أيضاً أبطأ الجند فى قذف السهام وضرب السيوف... وفجأة انطلق أحد السهام من تلك الجماعة فأصاب مقتله مصادفة، وأصاب سهم آخر محبوبى، ولم يعلم أحد بما جرى لا من قومه ولا من خصومه، وفى أثناء ذلك عصفت ريح عاتية فأثارت التراب وانعدمت الرؤية ولم ير الواحد منهم الآخر فظن جيش الخصوم أن ما جرى إنما هو من كرامات تارابى فكفوا أيديهم عن الضرب وولوا الأبدار منهزمين، فتعقبهم جيش تارابى ومضى فى أثرهم، وخرج أهالى القرى من قراهم حاملين المعاول والفئوس وتوجهوا فى أثر هؤلاء الفارين وقبضوا على كل من أدركوه وبخاصة من العمال والمتصرفين، وانهالوا عليهم ضرباً بالفئوس حتى قطعوهم إرباً إرباً وتعقبوهم حتى وصلوا إلى مقربة من كرمينية، فقتلوا ما يقرب من عشرة آلاف منهم، فلما عاد أتباع تارابى لم يجدوه فقالوا: لقد احتجب واستتر السيد عنا، وسيقوم مقامه حتى ظهوره أخواه محمد وعلى . وسار هذان الجاهلان مسيرة تارابى وعلى نهجه وتبعتهما العامة من الناس واطلقوا العنان لأيديهم فى السلب والنهب، وبعد أسبوع واحد وصل إيلدنوين وجكين قورجى مع جيش جرار، فاندفع هذان الجاهلان مرة أخرى ومعهما اتباعهما إلى الصحراء ووقفوا يقاتلون عراة دون سلاح، وقتل هذا الشقيان الضالان بانطلاق أول سهم فى المعركة، وقتل فى هذه المرة ما يقرب من عشرين ألفاً، وفى اليوم الثانى وبعد أن شق مبارزو الصباح فرق الليل ساقوا الخلائق من رجال ونساء إلى الصحراء، وحمل المغول أسنان التشفى والانتقام، وفتحوا فم الحرص قائلين: سنوجه الضربات ونحقق أمانينا ورغباتنا، وسنجعل الخلائق حطبا لتتور البلاء، وسنأخذ أموالهم وأولادهم غنيمة.

إلا أن الفضل الرباني واللفظ الإلهي قد وضع حدا لتلك الفتنة على يد شفقة محمود كما يتجلى من اسمه، وأحال طالع تلك المدينة إلى السعادة مرة ثانية، فلما وصل إليهم منعهم من القتل والنهب، قائلاً: كيف يمكن قتل الآلاف من الناس بسبب بعض المفسدين؟ وكيف يمكن تخريب وإبادة مدينة بذلت الكثير من الجهود حتى تستعيد رونقها وبهجتها بذنب جاهل أحمق؟ وبعد إلحاح وجدال ومبالغة وافق على عرض الأمر على حضرة القاآن، وأن ينفذوا الأمر على النحو الذي يصدره، ثم أرسل السفراء بعد ذلك إلى الإمبراطور، وسعى سعيًا بليغًا حتى تجاوز عن هذه الزلة، التي كان من المستحيل التجاوز عنها، وأبقى على حياتهم، ونتيجة لاجتهاده هذا فقد اكتسب المدح والثناء.

ذكر الاستيلاء على سمرقند

أعظم بقاع مملكة السلطان، تتميز باتساع الرقعة، وهى أجمل الرباع وأطيب البقاع وأظهر وأجمل جنات الدنيا، وهى بالإجماع واحدة من الجنان الأربع:

إن قيل فى الدنيا ترى جنة فجنة الدنيا سمرقند

يا من يوازى أرض بلخ بها هل يستوى الحنظل والقند؟!

يميل هواؤها إلى الاعتدال، ويشتمل ماؤها لطف ريح الشمال، وتتميز تربتها بالخصب الشديد، وقد حصل لتربتها من قوة إصرابها خاصية نار الخمر:

أرض حصاها جوهر وترباها مسك وماء المد فيها قرقف

وحيثما عاد السلطان من المعركة سقط نقاب السكون من يده وتحولت جاذبة القرار إلى فرار واستولت عليه الحيرة واستقرت فى أعماقه وزاغت منه الأبصار، وعهد بالمحافظة على البلاد والأمصار إلى قواده وأنصاره، ومن ذلك أنه قد خصص لحماية سمرقند مائة وعشرة آلاف رجل، كان من بينهم ستون ألفا من الأتراك مع خاناتهم الذين كانوا وجوه أعيان السلطان، الذين لم يكن أمام إسفنديار العظيم رغم ضخامة جنته - إذ رأى من جيله سهامهم وسنان حرابهم - إلا أن يقر بعجزه وقلة حيلته، وطلب الأمان والاستسلام، وخمسون ألفا من التازيك الشجعان الذين كان كل واحد منهم فى نفسه رستم الوقت، وقائدا للجيش، وكان معهم عشرون من الفيلة، قوية البنيان كأنها جان وشيطان:

يَقْلِبْنَ أَسَاطِينَ وَيَلْعَبْنَ بَثْعَبَانِ
عَلَيْهِنَّ تَجَافِيفٌ يَسْهَرْنَ بِأَلْوَانِ^(١)

وكان لفرسان السلطان ومشائته على ساحة المعركة وزير للمحافظة عليهم ولم يولوا وجوههم عن القيام بالهجوم وشن العديد من الصولات والجولات على الرغم من أن عدد المواطنين بالمدينة يفوق الحصر والعد، وعلى الرغم من هذا كله فقد أحكموا تقوية القلعة ووسائل الدفاع عنها، فأقاموا حولها الكثير من الجُدُرِ والمتاريس والاستحكامات الخارجية وتطاولوا في بنیان الفصيل حتى بلغت الثريا وعمقوا في حفر الخندق أسفل طبقات الأرض حتى نبع الماء.

وحينما وصل جنكيز خان إلى أترار كان خبر استحكام القلعة وكثرة جند سمرقند الغفيرة قد طبق الآفاق والأقطار، وكان كل شخص يظن أنه يلزم العديد من السنين للاستيلاء على المدينة، فكيف يصل إلى القلعة مع ما يقال عنها؟ فرأى أنه من الأفضل والالتزام بالحذر والحيلة، ورأى أن يطهروا المناطق المحيطة بها ثم يتوجه إليها بعد هذا.

فتوجه إلى بخارى في البداية، وبعد أن فرغ من أمر الاستيلاء عليها وهدأ باله من ناحيتها مال إلى القضاء على سمرقند فلولى العنان ميمما وجهه نحوها وساق من هناك جيشا أماميا، ولم يتعرض بأى أذى للقرى التى صادفته وأعلنت الاستسلام له والانقياد لسلطانه، وترك جيشا لمحاصرة القرى التى عصته ولم تستسلم له مثل سربل وديوسيه. ولم يتوقف بنفسه على الإطلاق حتى وصل إلى سمرقند ولحق به أبناؤه بعد أن فرغوا من أمر الاستيلاء على أترار، واختاروا كوك سراى مقرا ومخيما لجنكيز خان، وكلما وصلت الجنود الأخرى عسكروا بدورهم حول المدينة.

(١) من قصيدة لبديع الزمان الهمذاني في مدح السلطان محمود الغزنوي . الغزويني، الحاشية رقم ٩١.

طاف جنكيز خان بنفسه يوما أو يومين فاحصا ومدققا النظر في السور والجدر الداخلية والبوابة، وأعفى الجند وأراحهم من القتال والنزال وأرسل جبه وسبوتاي اللذين كانا من كبار قواده وأكفأهم مع ثلاثين ألفا من الرجال لمطاردة السلطان وتعبه، وأرسل وغداق نوين يسور إلى وخش والطالقان، حتى إذا ما حل اليوم الثالث وارتفعت شعلة الشمس بنورها بين ظلمة دخان الليل الحالك الظلام، انزوى الليل الأسود في زاوية النسيان، أحاط بالمدينة عدد كبير من جنود المغول والمرتزة الذين يزيد عددهم عن رمال الصحراء وقطرات المطر فخرج من المدينة البار خان وشيخ خان وبالا خان وبعض الخانات الآخرين ووقفوا في مواجهة حشم السلطان فاتح العالم، وتبادل الفريقان رمى السهام فقتل من الجانبين الكثير من الفرسان والمشاة وأظهر أتراك السلطان الكثير من الكر والفر في هذا اليوم، وضوء المصباح يضوى قليلا ثم يخفت قبل انطفائه، وقتلوا من جيش المغول خلقا كثيرا وأسروا بعضهم الآخر، وحملوهم إلى المدينة وسقط منهم كذلك ألف من الرجال حتى إذا حل وقت اخفت فيه نار السماء وتلاشت بين دخان الأرض ولى كل واحد وجهه شطر مقره .

ولما حان الوقت الذى قذف فيه حامل الدرع المكار بسيفه قمر الليل، ركب جنكيز خان بنفسه وامتطى صهوة جواده ولف الجيش حول المدينة وأداره حول مدارها واستعدت القوات من الداخل والخارج للقتال، واستمرت رعى الحرب دائرة حتى صلاة العشاء، وطارت السهام والحجارة من قذف المنجنيق والأقواس واحتلت جيوش المغول مواقع مهمة على البوابات، ومنعوا جيش السلطان من الخروج إلى ساحة المعركة، وأضحى طريق النزال والحرب مسدودا أمامهم، واختلط الفريقان على بساط الحرب ولم يعد هناك مجال لخيلة السلطان ليصلوا بخيلهم في ميدان النزال والكر والفر، وكلما ألقوا الفيلة لم يول المغول وجوههم، بل العكس من ذلك قد تمكنوا من فتح وتحرير حاميتهم (قرزين بند) بجرح سهامهم، فعمت الفوضى فى صفوف المشاة، وحينما جرحت أفيال القبول ولم تعد قادرة على مواجهة مشاة

الشطرنج عادوا وقد دهموا كثيرا من الناس تحت حافرهم، حتى إذا ما أسدل سلطان ختن النهار على وجهه أغلقوا البوابات، وخاف أرباب سمرقند مما جرى فى حرب هذا اليوم واختلفت أهواؤهم وتتنوعت أهواؤهم تجاهه فرغب بعضهم فى إظهار الاستسلام والانقياد بينما خاف آخرون على أرواحهم، وبينما حال القضاء السماوى بين طائفة والصلح، رغب آخرون فى الإذعان له والابتعاد عن القتال. وأخيرا وفى اليوم التالى بسطت الشمس المشرقة شعاعها وعظمتها وألقى غراب الفلك الأسود ريشه، وكان جيش المغول أكثر شجاعة وإقداما وأهالى سمرقند مترددين فى الرأى والتدبير، إلا أنهم نزعوا فكرة الحرب من رعوسهم وكفوا عن ذلك أيديهم، وبادر القاضى شيخ الإسلام مع قوم آخرين من أصحاب العمامم بالتوجه إلى بلاط جنكيز خان حيث اطمأنوا وتشجعوا بعظيم وعوده.

ودخلوا المدينة مرة أخرى بتصريح منه وفتحوا بوابة المصلى وقت الصلاة وأوصدوا باب العناد، ودخل جيش المغول وعملوا طوال اليوم بتخريب المدينة والحائط الداخلى للقلعة (الفصيل) وابتعد أهالى المدينة عن التحرش بهم إيثارا للسلامة والأمان فلم يؤذهم المغول أو يتعرضوا لهم بالإيذاء.

حتى إذا ما انتهى النهار وتدثر بلباس الختانيين الأسود أشعلوا المشاعل واستمروا فى مشاغلهم وأعمالهم حتى ساووا الجدر بالأرض وعبدوا ممرا فى كل مكان للمشاة والفرسان.

فلما حل اليوم الثالث عبس الدهر لهم، وقطب جبينه أمام المرأة، فهو مخادع عديم الشفقة، أسود القلب أزرق الوجه، ودخل غالبية المغول إلى داخل المدينة وساقوا الرجال والنساء مائة أئر أخرى فى مصاحبة المغول إلى الصحراء ولم يعفوا من الخروج سوى القاضى وشيخ الإسلام وأقاربهم أو من كانوا بجوارهم ولانوا بهم، وكان عدد من بقى تحت حمايتهم يزيد عن خمسين ألفا من الناس، ثم نادى المنادى بأن أى شخص قد طلب الأمان

مختفيا فى زوايا الاختفاء دمه باطل وإهراقه مباح، ثم أعمل المغول والجنود السلب والنهب والإغارة، وقتل كثير من الناس الذين كانوا قد تحصنوا فى المغارات والجحور وأحضر أفيالهم إلى جنكيز خان طالبين علفا لها فسألهم عن طعامها قبل أن تقع فى أيدي الرجال والأسر فقالوا أعشاب الصحراء، فأصدر أمره إليهم قائلا اتركوها تضرب فى الأرض ترعى لنفسها وتبحث عن طعامها، فأصابها الهزال وضعفت ثم هلكت جوعا، فلما هبط ملك الأفلاك على الكرة الأرضية خرج المغول من المدينة وأهالى القلعة خائفون وجلون قد انشقت قلوبهم هلعاً وخوفاً لم يستقروا على قرار ولم يولوا الأدبار، فتشجع ألب خان مفرطاً فى روحه وخرج هو وألف من الرجال الأبطال الذين ضحوا بأرواحهم وانطلق وسط الجيش المغولى حتى التحق بالسلطان، وفى صباح اليوم التالى حينما طلع رسل إله النجوم السيارة مطلعين سهامهم أحاط جيش المغول بالقلعة وبدأ الضرب وقذف السهام والحجارة.

فحطموا فصيل القلعة وجدارها، وخرّبوا نهر أرزير، واستولوا بين الصلاتين على البوابة ودخلوا القلعة، ولجأ ألف من الرجال الأبطال إلى المسجد الجامع وتحصنوا به وخاضوا معهم معركة عنيفة مستخدمين النفط والسهام الدائرية، واستخدم جيش جنكيز قوارير النفط كذلك حتى أضحى المسجد الجامع وكل من بداخله هشيماً تذروه الرياح، وصاروا وقوداً لنار الدنيا، وطهوراً بماء العقبى، فساقوا كل شخص بقى حياً بالقلعة إلى الصحراء وفصلوا الأتراك عن التازيك، وقسموهم جميعاً إلى عشرات ومئات وحلقوا للأتراك شعورهم من مفرق الرأس كما يفعل المغول حتى يبعثوا فى أنفسهم الهدوء والاطمئنان وحتى يزيلوا ما بهم من خوف، إلا أن نهار حياتهم قد زال بزوال شمس الغروب.

وفى مساء ذلك اليوم، أضحى كل رجل من رجال قنقل غريقاً فى بحر البوار، حريقاً لنار الدمار، وكانوا ما يزيد عن ثلاثين ألفاً من القنقل والترك يتقدمهم برشماس خان وتغاي خان وسرسغ خان وأولاغ خان مع ما يزيد عن

العشرين من كبار أمراء السلطان الذين أثبتت أسماؤهم فى المنشور الذى كتبه جنكيز خان إلى ركن الدين كرت، وقد فصلت فى هذا المنشور أسماء جميع أمراء الجيش والولايات التى استولى عليها وضربها، فلما أضحت المدينة والقلعة خرابا يبابا تواجه الواحدة منها الأخرى وتجرع الجنود والأمراء والأهالى الكثير من كئوس الهلاك والفناء، وفى اليوم التالى وحينما رفع العقاب الذى هو جمشيد الأفلاك رأسه خلف قمم جبال الأرض وأضحى قرص الشمس مضيئا فى كبد السماء، أحصى من نجا وهرب من الخلائق من حد سيوفهم، واختار منهم ثلاثين ألفا من الصناع والعمال.

وقسمهم على الأبناء والأقارب، واختار من الشباب والأبطال مثل هذا العدد للجيش الأمامى، وأما الآخرون الذين سمح لهم بالعودة، فقد وجه إليهم الشكر لأنهم لم ينالوا درجة الشهادة وبقوا فى زمرة الأحياء، وحكم على من تحصنوا بالقلع بمائتى ألف دينار وعين ثقة الملك والأمير عميد بزرک اللذين كانا من كبار أصحاب المناصب فى سمرقند لتحصيلها، وعين عددا من الناس شحنة لهم فى ذلك المكان، ورافقه بعض جنود الجيش الأمامى إلى خراسان وأرسل آخرين مع أبنائه إلى خوارزم، وكانوا يطلبون بعد ذلك كثيرا من الجنود على فترات متعاقبة، ولم يسمح لأى شخص من أفراد الجيش الأمامى بالخروج منه، ولهذا السبب أصاب البلاد خراب كلى، وأضحت خرابا. وكانت هذه الواقعة فى ربيع الأول سنة ثمانى عشرة وستمائة، فأين أصحاب البصائر لينظروا بعين التفكير والاعتبار فى حركات هذا الزمان الذى امتلأ شعوذة ووجلا ومداهنة وجفاء، وحتى يروا جفاء هذا الفلك الدائر الذى لا نفع فيه، وحتى يعلموا أن نسيمه ليس متوازيا ومعادلا لسمومه وأن نفعه ليس محاذيا ضره، خمره ساعة وخماره على الدوام، ربحه ريح وكنزه تعب وبلاء.

فهذه الدنيا زائفة

أيها القلب لا تجزع

فهذه السراى ليست خالدة

أيها الروح لا تحزنى

ذكر واقعة خوارزم

وهذا هو اسم الناحية واسمها الأصلي جرجانية، يسميها أربابها وسكانها أوركنج، وكان لها قبل تقلب الأيام والدهور حكم "بلدة طيبة ورب غفور"، وكانت مقرا لسلطين العالم، ومستقرا لمشاهير بنى آدم، احتوت أكنافها أشراف الدهر، وصارت أطرافها ظروفًا لطرائف الزمان تضيء مغانيها بأنوار المعاني، وتزدان رباعها وبقاعها بآثار أصحاب الأقدار، فأضحت حديقة غناء.

وأضحت مجمعا للمشايخ الكبار وسلطين الزمان فى بقعة واحدة لها
حكم القول: بها ما شئت من دين ودنيا
خوارزم عندى خير البلاد فلا أقلعت سحْبُها المغدقة^(١)
فطوبى لوجه امرئ صَبَحَتْهُ سهُ أوجه فتيانها السمشقة

وحينما فرغ جنكيز خان من الاستيلاء على سمرقند، تمت له بذلك السيطرة على جميع بلاد ما وراء النهر. وتم له سحق المخالفين والمعارضين فى بوتقة الدمار وطواحين البلاء، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كانت حدود جند ويار جليغ كنت آمنة محاطة بسياج من الأمن والأمان، وبهذا بقيت خوارزم بين البلاد كخيمة اقتلعت أوتادها، ومزقت أطنابها.

وحينما أراد جنكيز أن يتوجه بنفسه لتعقب السلطان والقضاء عليه، وأن يطهر ممالك خراسان من المعارضين والمخالفين، اختار ابنه الكبيرين چغتاي وأوكتاي للاستيلاء على خوارزم، وجهزهما بجيش كثيف كحوادث الزمان، فامتألت بهم الجبال والوديان، وأمر توشى أن يمدّهم من ناحية جند بجيش آخر، فسارا عن طريق بخارى، وأرسلا فى مقدمتهم جيشا استطلاعيا يندفع كالقضاء السيئ ويومض كالبرق الخاطف.

(١) البنيان لابن غنيم (بالحوت مادة خوارزم).

كانت خوارزم آنذاك خالية من السلاطين، وكان بها خمار التركي^(١) الذى كان من كبار قادة الجيش ، ومن أقرباء ترکان خاتون. وتخلف هناك أيضا من أعيان الأمراء مغول حاجب وأربوقا بهلوان، والقائد سبهسالار على دروغيني^(٢) وجمع آخر من الأمراء الذين يصبح تعدادهم وتفصيل أسمائهم تطويلا لا طائل له.

وكان بالمدينة من العظماء وأفاضل الدهر ما لا يعد ولا يحصى، وكان عدد السكان بها يزيد عن حبات الرمال والحصى عددا، ونظرا إلى أنه لم يكن هناك وسط هذا السواد الأعظم والبحر المتلاطم من البشر سيد وقائد يرجعون إليه إذا ما ألمت بهم حوادث الزمان يكفيهم مصالحهم، ويرعى شئونهم، يقاومون بقيادته وإرشاده نوائب الدهر وحوادث الأيام، لهذا كله فقد عينوا خمار سيدها عليهم لما يتمتع به من صلة قرابة وشائج قرى وجعلوا منه "سلطان نوروزى"، وكانوا غافلين عما يموج به العالم من فتنة واضطراب، وما أصاب الخاصة والعامة من الناس من دمار وهلاك.

وفجأة رأوا عددا ضئيلا من الفرسان يمضى على هيئة دخان، يسوقون الماشية حتى وصلوا إلى بوابة المدينة، ففرح بعض قصار النظر، وظنوا أنهم قد أتوا فى هذا العدد القليل حماقة وغرورا وأنهم ارتكبوا هذه الحماقات لعبا ولهوا، ولم يعلموا أن وراءهم الكثير من البلاء وأن خلف هذه العقبة عقبات، وفى عقب هذا عذابا شديدا، فاتجه خلق كثير من الناس مشاة وفرسانا مندفعين عن طريق البوابة صوب هذا العدد القليل، بينما المغول كالصيد الوحشى، حيناً يخافون ويفزعون وحيناً يحدقون إليهم بنظراتهم ثم يجرون ويفرون، حتى إذا ما وصلوا إلى باغ خرم التى تبعد عن المدينة بفرسخ واحد، أسرع فرسان التتار والرجال الشجعان وانطلقوا من مكانهم وسيطروا على الطريق من الخلف والأمام وأطبقوا عليهم من كل جانب، وأمعنوا فيهم قتلا وتدميرا، كذئاب جائعة انقضت وسط قطيع من الخراف لا راعى له،

(١) ويروى "خمار تكين".

(٢) سى الدروغيني لشدة كذبه، فكلمه دروغ فى الفارسية تعنى الكذب.

فقدفهم بالسهم الطائرة فى البداية ثم أحكموا تصويب السيوف والحراب إليهم وساقوهم أمامهم حتى أسقطوا منهم حتى زوال النهار ما يقرب من مائة ألف من الرجال الأشداء، وتعقبوهم فى أثناء هذا الاضطراب والهيجان فى صياح ونفير حتى دخلوا المدينة من بوابة قابيلان.

وانطلقوا مسرعين كالنار حتى وصلوا موضعا يقال له تتورة، وحين مالت الشمس للغروب انسحب الجيش الأجنبى ملتزما جانب الحزم والحرص، وفى اليوم التالى حينما أطلت الشمس بوجهها من مكنم الأفق وغار ضاربو السيوف الشجعان الأتراك الفتاك الذين لا يخافون شيئا، اصطفوا فى مواكب كثيرة وولوا وجوههم شطر المدينة، حيث كان فى انتظارهم فريدون غورى الذى كان واحدا من قادة السلطان، مع خمسمائة شخص من الأبطال على بوابة المدينة مستعدا للقتال والدفاع، وحالوا بين هؤلاء الرجوم والهجوم، واستمروا حتى نهاية اليوم فى صراع وقراع.

وبعد ذلك وصل جغتاي وأوكتاي مع جيش كثيف كالسيل فى انحداره وكالرياح والعواصف فى سرعتها وزمجرتها، ومن باب الاستطلاع والرؤية طافوا حول المدينة وأرسلوا الرسل داعين الأهالى إلى الاستسلام والطاعة، وحينما أحاط الجيش كله حول المدينة كما تحيط الدائرة بالمركز ونزلوا حولها وأحاطوها بقواتهم وأبقوا عليها كالأجل اشتغلوا بترتيب وإعداد آلات الحرب من أخشاب ومنجنيق وحجارة، ونظرا إلى أنه لم يكن بجوار خوارزم حجارة فقد قطعوا أشجار التوت وجعلوها كالحجارة، وكعادتهم وما هو مألوف لديهم فقد شغلوا الأهالى يوما بعد آخر بالوعد والوعيد والإناس والتهديد، وكانوا يتبادلون قذف بعض السهام أحيانا حتى إذا تم ما يلزم الحرب من تمهيد وإعداد للآلات وغيرها ولحق بهم الجند والأعوان، من نواحى جند وما سواها هجموا على المدينة من جميع أطرافها دفعة واحدة كالبرق الخاطف صائحين مزمرين وصبوا عليها وابلا من السهام والحجارة وأصدروا أوامره فجمع الجند الحشائش وقطعوا الأخشاب وملأوا الخندق بالماء، ثم حركوا المرتزقة فى حلقة دائرية لتقويض الجدار الداخلى من أساسه.

وعلا التراب حتى بلغ عين الأفلاك، وحين أضحي السلطان لا وجود له وفائد الجيش خمار ثملا بشراب الإدبار، كما قال الله تعالى "لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون"^(١) وشاهد نكالهم وسوء أفعالهم ازداد به الخوف والجزع وانشق قلبه نصفين لشدة ما أصابه وطابقت علامات انتصار التتار ظنه الخفى فانعدمت الحيلة فى جبلته واختفى عنه، مع ظهور التقدير الخفى، صواب الرأى والتدبير، فهبط من البوابة إلى أسفل الوادى، ونتيجة لما أصاب الأهالى وسرى بين أوصالهم من تشتت وتمزق فقد رفع جيش التتار العلم أعلى الحائط، وصعد المحاربون أعلى القلعة وانطلقوا فى جوف الأرض فزلزلت مع أصواتهم وصياحهم وصراخهم، وتحصن أهل المدينة فى الدروب والمحلات وقاتلوهم فى كل درب من الدروب وقاوموهم فى كل مكان، وأحرق الجيش المغولى بقواير النفط دورهم ومحلاتهم والتحم الخلائق بعضهم ببعض برمى السهام وقذف المنجنيق، فلما جن الليل واختفى أمام ظلمته رداء نور الشمس ارتدوا إلى خيامهم، واستمر الأهالى فى حربهم كل صباح على هذا المنوال ردحا من الزمان، وحاربوهم فيها بالسهام والسيوف والأعلام، حتى أصبح جزء كبير من المدينة خرابا يبابا وأضحت أماكنهم ومساكنهم مع أموالهم ودمائهم تلا من التراب كثيبا مهيلا، وأصاب الجيش المغولى اليأس والقنوط لعدم انتفاعهم ب ذخائر الأموال فانفقوا على أن يتركوها تلتهمها النيران ومنعوا عنهم ماء النهر الذى كانوا شيدوا جسرا فوقه وسط المدينة، وعسكر ثلاثة آلاف من الجنود المغول فوق هذا الجسر مستعدين للقتال متأهبين له فحاصروهم أهالى المدينة فى هذا المكان وأوقعوهم فى فخهم وشركهم حتى إنه لم يعد لأحد منهم القدرة على العودة. وقد دفع هذا الموقف

(١) سورة الحجر ، الآية ٧٢.

الأهالى إلى مزيد من الجهد فى العمل فأصبحوا أكثر صبرا على القتال والنضال وصارت آلات الحرب وأسلحتها أكثر هيجانا من الخارج حتى تلاطمت أمواج بحر الحرب واشتد صخبها، وثار ربح الفتنة فى الأرض والسماء، ثم استولى المغول على المدينة حيا حيا، وبيتا بيتا، وهدموها وقتلوا جميع الخلق بها حتى تمكنوا من الاستيلاء عليها بتمامها، وعندئذ ساقوا الأهالى إلى الصحراء وفصلوا عنهم ما يزيد عن مائة ألف كانوا من الحرفيين والصناع.

وأخذوا الأطفال والفتيات وأسروهم وقسموا باقى الرجال على الجيش فقتل كل واحد من الجنود المقاتلين أربعة وعشرين من الرجال. قال الله تعالى: " فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور"^(١). واشتغل الجيش بالتهب والسلب والإغارة وخرّبوا ما بقى من البيوت والمحلات، وخوارزم التى كانت مركزا لرجال الحرب ومجمعا لنساء الاجتماعات والندوات والتى أحنّت لها الأيام رقابها على أعشابها والتى كانت كنة لطائر السعادة، أصبحت بعد هذا كله مأوى لابن آوى ومرتعا للبوم والغربان وهجرت السعادة الديار التى كانت تظللها وترفرف عليها وأصاب الخراب قصورها، وذبلت جناتها وتغيرت أحوالها حتى أصبحت ينطبق عليها الآية "وبدلناهم بجنّتهم جنّتين"^(٢) وأصبحت كما لو أن هذه الآية قد نزلت بشأنها، وقد أثبت علم كل ما هو آت على إيوانها وبساتينها ومتنزهاتها هذه الأبيات:

(١) جزء من الآية الكريمة "قتلوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور" سورة سباء، الآية ١٩.
(٢) سورة سباء الآية: ١٦.

رب ركب قد أناخوا حولنا
يمزجون الخمر بالماء الزلال
ثم أضحوا عصف الدهر بهم
وكذاك الدهر حال بعد حال^(١)

والخلاصة أنهم حينما فرغوا من حرب خوارزم سلكوا سبيل السلب والنهب والسبي والقتل والسفك، وقسموا أرباب الحرف والصناعات وأرسلوهم إلى البلاد الشرقية، وتوجد الآن مواضع كثيرة في تلك المناطق عمرها سكان خوارزم وازداد نسلهم بها، وعاد الأميران جفتاي وأوكتاي عن طريق كاسف، واستولوا عليها وألحقوها بخوارزم خلال يوم أو يومين، ولقد سمعت عن كثرة عدد القتلى الذين سقطوا في أعمال المقاومة والقتال بما يعادل خوارزم حذو النعل، بالنعل حتى إن ما سمعته لم أصدق، ولم أكتب عنه شيئاً، اللهم عافنا من كل بلاء الدنيا وعذاب الآخرة.

(١) البيتان لعدى بن زيد (الأغاني : ١٨/٢) مع اختلاف في الرواية.

تحرك جنكيز خان إلى نخشب^(١) وترمز

حينما تم الاستيلاء على سمرقند أرسل ابنه جغتاي وأوكتاي إلى خوارزم، وأمضى ربيع ذلك العام بجوار سمرقند ثم تركها إلى حدائق نخشب، وحينما انتهى الصيف وبلغ نهايته وسمنت الحيوانات واستراح الجند سار إلى ترمذ، فلما وصل إلى هناك أرسل الرسل إلى أهلها داعيا إلى الاستسلام والطاعة وتخريب القلعة، إلا أن المواطنين أعرضوا وتحصنوا بالقلعة الحصينة. كانوا قد أقاموا نصف سورها وسط النهر، وأصابهم الغرورو لما عندهم من رجال وعتاد، فلم يقبلوا بالاستسلام أو الطاعة وأقدموا على الكفاح والحرب وتبدلت رماية المنجنيق من الجانبين، ولم يستريحوا من الحرب والنزال ليلا أو نهارا حتى تمكنوا من فتحها قسرا وقهرا في اليوم الحادي عشر وساقوا إلى الصحراء كل من كان فيها من الخلق رجالا كانوا أو نساء. وقسموهم على الجند كعادتهم حسب عدد الأهالي فقتلهم جميعا ولم يتركوا أحدا حيا، وفي الوقت الذي فرغوا فيه من ذلك شاهدوا امرأة قالت لهم: أبقوا على حياتي حتى أعطيكم ما معي من لآلى قيمة. فلما طالبوها بالآلى قالت: لقد ابتلعتها. فبقروا بطنها وأخرجوا ما بأحشائها من حبات اللؤلؤ. لهذا السبب بقروا بطون القتلى امتثالا لأمره. فلما فرغوا من النهب والقتل ذهب ناحية كنكرت^(٢) وحدود سمان وأمضى الشتاء حتى نهايته في تلك المنطقة وطهر تلك النواحي كذلك بالقتل والقلع والحرق وأرسل الجيوش إلى منطقة بدحشا وما يجاورها من حدود وبلاد فاستسلم بعضها باللطف والحيطة واستخلص أكثرها عنفا وقسرا.

وهكذا لم يبق في هذه المنطقة أي أثر للمخالفين والمعارضين، وحين انتهى فصل الشتاء تركها وكان هذا في شهور سنة ٦١٧هـ^(٣).

(١) موجودة الآن في أوزبكستان باسم كرشى.

(٢) تقع "كنكرت" في تاجيكستان وكذلك "سمان" وتدعى اليوم "سناين آباد" جنوب روسيا.

(٣) هنا تناقض واضح مع ما قاله صفحة ٩٦ ، فقد قال إن فتح سمرقند قد تم عام ٦١٨هـ ثم قال في بداية هذا الفصل إنه توجه لفتح نخشب وترمز بعد أن سيطر على سمرقند ، فكيف يمكن التوفيق بين الاثنين؟ لا بد أن ما ذكره عن فتح نخشب خطأ وأن الصواب هو عام ٦١٨ وليس ٦١٧هـ. ويقول القزويني إن رشيد الدين ذكر أن فتح نخشب حدث في بداية خريف عام الثماني (سال موغاي نيشل) وأن هذه الفترة تقابل شهور شعبان ورمضان وشوال من عام ٦١٨هـ. جامع للتواريخ ج ٣ ص ١١١-١٧٣.

ذكر عبور جنكيز خان طريق ترمذ والاستيلاء على بلخ

تميزت بلخ عن سائر البقاع الأخرى بكثرة الغلال وأعلاها ارتفاعا وفضائل أخرى، وكانت أراضيها أكثر اتساعا وامتدادا من الأراضي الأخرى، وكانت بلخ تنعم في القرون السابقة بين البلاد الشرقية بما تنعم به مكة في الطرف الغربي من مكانة. يقول الفردوسي:

لقد اختار بلخ معبدا للزرادشتية حيث كانت طقوس العبادة تجري في ذلك الزمان، وقد نعم ذلك المكان بالمنزلة التي تنعم بها مكة بين العرب في هذا الزمان.

وعبر جنكيز خان النهر متوجها إلى بلخ فقابله رؤساء المدينة معلنين الانقياد والاستسلام حاملين الكثير من الهدايا والمؤن والطعام "ترغو"، وبعد ذلك ومتعللا بضرورة إجراء إحصاء أصدر أمرا بخروج من كانوا في بلخ فخرجوا جميعا عن بكرة أبيهم وأحصوهم عددا.

في إثر ذلك ونظرا إلى أن السلطان جلال الدين كان لا يزال يثير الفتن والاضطراب في كل الأنحاء آنذاك ويعدو بالجواد في ميدان العناد واللجاج فلم يعتمد على أقوال رؤساء المدينة وما أبدوه من استسلام وطاعة وبخاصة في منطقة خراسان، ولأن بحر فناء البلاد والعباد كان لا يزال مصطخبا ولم يصل طوفان البلاء إلى نهايته فلم يكن في الإمكان دفعه بأية حيلة، ولأنه قد حم القضاء ووقع البلاء لم يفد الاستسلام ولم يستطيعوا تأمين وحماية ظهورهم على الرغم مما أعلنوه من انقياد وإذلال، وكان عصيانه سمًا قاتلا ومرضا لا دواء له.

ولهذا أمره جنكيز خان بإخراج جميع أهالى بلخ صغيرا أو كبيرا قليلا أو كثيرا رجالا أو نساء إلى الصحراء، ووفقا للعادة المألوفة فقد قسموهم إلى مئات وألوف حتى يعملوا فيهم السيوف قتلا فلم يتركوا أثرا لأخضر أو يابس وتركوهم مرتعا للوحوش تنعم فى التهام لحومهم ردحا طويلا من الزمان فشبعوا وتآلفت السباع مع الذئاب ولازمت النسور الصقور دون خلاف أو نفور.

كُلِّية وجَرِيه جَعار وأبشِرِى بلحم امرئ لم يشهد اليوم ناصره

وأضرموا النار فى حديقة المدينة وكرسوا جهودهم حتى خربوا الفصيل والصور والدور والقصور، قال الله تعالى: "وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك فى الكتاب مسطورا"^(١).

وحينما عاد جنكيز خان من بيشاور ووصل إلى حدود بلخ رأى جماعة من المشردين الهاربين الذين كانوا قد اختفوا إبان الغارة فى الزوايا والجحور ثم خرجوا فأمر بقتلهم جميعا، وطبق عليهم حكم الآية الكريمة "سنعذبهم مرتين"^(٢)، فهدموا كل جدار لا يزال قائما ومحووا آثار العمران والحضارة فى تلك البقعة وتركوها قاعا صفصفا:

(١) سورة الإسراء الآية ٥٨ ، جامع التواريخ ج ٣ ص ١١١ - ١٧٣.

(٢) جزء من الآية الكريمة ١٠٠: "وَمَنْ حَزَلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُبَاقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ثَلَاثُ

تَعْلَمُهُمْ سَعْدُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ١٠١: سورة التوبة آية: ١٠١.

وتبكي دورهم أبدا عليهم

وكانت مألقا للعرز حينا

وقفنا معجبين بها إلى أن

وقفنا عندها متعجبينا^(١)

وحينما فرغ من أمر القتال في بلخ، عين ابنه تولى مع جيش كثيف للاستيلاء على بلاد خراسان، وتوجه بنفسه إلى الطالقان، وكانت قلعتها تعرف باسم "نصرت كوه" وكانت محصنة غاية التحصن تضم بين أطرافها رجالا أشداء وشجعانا أقوياء مستعدين للنزال والقتال بغية نيل الشهرة وعلو المقام، وكلما أرسل السفراء والرسول إلى تلك الجماعة داعيا إياهم إلى الاستسلام والطاعة أعرضوا ولم يرضوا إلا بالقتال والنزال، فأحاط المغول بالقلعة من كل جانب، وأخذوا في قصفها بالمنجنيق، ولم يكفوا عن الحركة والضرب، وفي الوقت نفسه لم يستسلم أرباب القلعة ورجالها ولم يكفوا عن النضال والكفاح ولم يغفلوا أو يستريحوا، وجرى بين الجانبين قتال عنيف وحرب مخيفة سقط فيها من الطرفين الكثير من القتلى والعديد من الجرحى، واستمروا يقاومون على هذا المنوال مدة من الزمان حتى تم لـ "تولى" الاستيلاء على خراسان وأسلمت له قيادها فعاد لتوه من هناك مع جيش غفير فازدادوا عددا وكثر جمعهم وفتحوا الطالقان جبرا وقسرا وأبادوا من فيها وما فيها، ولم يتركوا بها أثرا لكائن حي، وخربوا القلعة وجدرها وحطموا الدور والقصور.

وفجأة وصل خبر يفيد بانتصار السلطان جلال الدين على تكجوك وأنه قد أحرز نصرا كبيرا عليه واستولى على جيش كان معه، فأسرع جنكيز الخطى متجها إليه وسلك طريق كرزوان، إلا أنه لم يتمكن من مواصلة السير بسهولة لما لقيه من أهالي تلك الناحية من عناد ومقاومة أخرته شهرا حتى استولى عليها وسقاها مرمغين شرابا وبيلا من قتل ونهب وتخريب جزاء لما قدموا، ثم رحلوا عن هذا المكان ووصلوا إلى باميان فقاومهم الأهالي بها وتبادل الجمعان ضرب المنجنيق والقسي والسهام.

(١) البيتان لأبي بكر عبد الله اللاسكي في رثاء الدولة السامانية (تتمه النيتمة - مخطوطة) [حاشية الدكتور محمد التونجي].

وفجأة حُمَّ القضاء وانطلق من داخل المدينة قاتل حكم بالقضاء التام على جميع المواطنين، فقد أصاب واحدا من أبناء جغتای وكان أحب أحفاد جنكيز خان إليه، فعجلوا بالاستيلاء عليها، ولما تم لهم فتحها أصدر أمرا بقتل جميع الأحياء فيها من بنى آدم أو من الحيوانات، ولم يأخذوا منهم أسرى حتى إنهم لم يتركوا الأجنة في بطون أمهاتهم، ولم يسكن هذه المدينة أى مخلوق بعد هذا، ولم يعمر هذا المكان على الإطلاق، وأطلقوا عليها اسم ماووبالغ، وتعنى باللغة الفارسية القرية السيئة. ولم يقطن هذا المكان أحد حتى الآن، وكانت هذه الحادثة فى أوائل شهور سنة ثمانى عشرة وستمئة.

ذكر توجه جنكيز خان لحرب السلطان

عين جنكيز خان وهو بالطالقان تكجوك وعددا آخر من أمراء الجيش للقضاء على السلطان جلال الدين، إلا أن السلطان كان قد قوى جانبه بانضمام أغراق^(١) وغيره من الأبطال إليه، فاستولى على الجيش الذي اختاره جنكيز خان لمحاربته وساعده على ذلك قلة عدد الجيش وقصور وسائل إمداده، فلما علم جنكيز خان بهذا النبأ أصابته الدهشة وغشيه الحزن، فظن النهار ليلا - في عجلة من أمره - وحسب الليل نهارا، وعبر طريقين وعرينا في مدة وجيزة لا تكفى لإنضاج طعام نئى.

وفي الوقت الذى وصل فيه جنكيز خان إلى غزنة أخبر بأن جلال الدين غادرها منذ خمسة عشر يوما قاصدا عبور نهر السند، فعين ماما يلواج نائبا عنه شحنة على غزنة، وانطلق في أثر السلطان جلال الدين كالرياح تسوق سحابا، حتى لحق به على شاطئ نهر السند، فأطبقوا (المغول) عليه من المقدمة والمؤخرة، وأحاطوا به من كل جانب، ووقفوا فى حلقات متتابعة بعضها فى إثر بعض مثل القوس وجعلوا من نهر السند وترا له، وأمر جنكيز خان بخوض القتال بضرواة والتشدد فى القتال والنزال وأن يبذلوا قصارى جهدهم للقبض عليه حيا.

ووصل على الفور كل من جغتاي وأوكتاي من خوارزم.

وحيثما رأى السلطان أن اليوم يوم عمل ونزال، وأن الوقت وقت حرب وعراك وأن اليوم أمر، ألقى بنفسه ومن معه من العدد القليل فى ميدان الهيجاء وصال من اليمين صوب الشمال، وجال من اليسار إلى القلب، وشن حملات متتابعة فتقدمت صفوف الجيش المغولى جماعة فى إثر أخرى حتى ضاقت عليه ساحة المعركة ولم يعد أمامه مجال للكر والفر، فحارب بجسارة كأسد غاضب.

(١) يقصد سيف الدين أغراق.

وفى كل ناحية كان يعدو بفرسه كانت تختلط الدماء بالتراب

ولما كان جنكيز قد أصدر أمرا بالقبض عليه حيا، لم يبالغ الجيش فى قذفه بالحرايب والسهام امتثالا لأمر جنكيز خان، إلا أن جلال الدين أسرع فى الفرار من أمامهم وانسحب من مواجهتهم، وأحضروا له جوادا جديدا، فلما امتطى صهوته هاجمهم مرة ثانية، ثم ارتد سريعا، وألقى بنفسه فى النهر كالبرق الخاطف واختفى كالريح العاصف، فلما رأى جنكيز أنه قد ألقى بنفسه فى النهر وأن الجيش المغولى يريد أن يركب متن البحر اقتفاء لأثره، حال بينهم وبين ما يريدون، ولفرط ما أصابه من عجب ودهشة وضع يده على فمه واتجه إلى أبنائه قائلا: هكذا ينبغي أن يكون الابن الذى يخلف أباه فأنعم بهذا الابن.

حينما نظر إسفنديار خلفه رآه على المنطقة اليابسة من الشاطئ البعيد للنهر، وقال إن هذا لا يسمى رجلا بل هو فيل هائج محاط بالعظمة والأبهاء. فنظر إلى تلك الناحية وقال: لقد ذهب رستم باحثا عن طريقه.

وخلاصة القول أن كل رجل من رجاله لم يدركه الغرق أصابته السهام فاردته قتيلا. وأحضروا نساءه وأبنائه، فأما من كانوا من الذكور حتى الأطفال الرضع فقد أرضعوهم ثدى المنية، وعهدوا بتربيتهم ورعايتهم إلى ابن الداية، يعنى أنهم أسلموهم للغربان.

يعز علينا أن يظل ابن داية^(١) يفتش ما ضمت عليها شئونها

ولما كانت غالبية الثروة التى يكتنيتها السلطان نقدا من الذهب والفضة فقد أمر بإلقائها فى النهر فى ذلك اليوم، وأرسل المغول على الفور غواصين لإخراجها من النهر كلما أمكن ذلك.

(١) الداي : مفردا الداية وهى فقار الكامل من ظهر البعير خصوصا : وابن الداية هو الغراب لأنه يقع على داية البعير (دبره) فينقرها.

وقد وقع هذا الأمر الذى هو من عجائب الأيام فى رجب سنة ثمانى عشرة وستمائة^(١).

وفى الأمثال "عش رجباً ترَ عجباً"، وتقدم جنكيز خان على شاطئ نهر جيحون وأعاد أوكتاى من هناك إلى غزنة التى كان سكانها قد أعلنوا استسلامهم فأمر بإحصائهم وإخراجهم من المدينة إلى الصحراء، واختار منهم من كانوا من أصحاب الحرف، وقتلوا الباقين، وخرّبوا المدينة، وترك قنقونيين على رأس هؤلاء الأسرى والضياع لقضاء شتاء هذا العام فى ذلك المقام، وعاد أوكتاى عن طريق كرمسير هراة، وحينما وصل جنكيز خان إلى كرمان وستوران علم بعبور السلطان للنهر منذ فترة وجيزة وقتل أناسا بطريقه، فترك جغتای فى منطقة كرمان ولكنه لم يعثر على السلطان، فجدّ فى البحث عنه وأمضى ذلك الشتاء فى حدود بوية كتور وهى مدينة بالقرب من أشتقار، وكان سالار أحمد حاكم تلك الناحية قد تمنطق بحزام الانقياد وجهاز كل ما كان ممكنا للجيش من طعام ومؤونة، ونتيجة لعفونة الجو فقد داهم المرض غالبية المرافقين، وضعفت قوة الجيش، وكان برفقتهم كثير من الأسرى، وأخذوا من تلك الناحية كثيرا من الغلمان الهنود.

وهكذا كان بكل بيت عشرة أو عشرون من الأسرى، وكانوا جميعا يعملون فى إعداد الطعام من تنقية للأرز وغيره، وكان الجو ملائما لهم موافقا لطباعهم، وأصدر جنكيز خان أمرا بأن ينقى كل أسير أربعمئة من الأرز فامتثلوا لأمره وفرغوا من الأرز جميعه خلال أسبوع واحد، ثم أعقب جنكيز خان ذلك بإصدار أمر آخر بقتل كل من يضمهم الجيش من الأسرى، ولم يكن لهؤلاء المساكين علم بذلك، وذات ليلة وقبل أن يشرق الصباح غربت أرواح الأسرى والهنود جميعا وقتلوه عن بكرة أبيهم.

(١) وهذا سهو واضح فقد صرح رشيد الدين فى كتابه جامع التواريخ، برزين جـ ٣ صفحة ١٢٥-١٧٤، بأن هذه الواقعة قد حدثت فى عام الجواد الذى يبدأ فى محرم سنة ٦١٩، صفحة ١٧٤. وذكر خواجه نصير الدين الطوسي هذا التاريخ فى كتابه زيج ايلخانى نسخة المكتبة الأهلية بباريس ورقة ١٣، وذكرها النسوى فى سوال سنة ٦١٨/ حاشية القزوينى صفحة ١٠٨.

ونتيجة لهذا أرسلت الأقوام المجاورة له رسلا معلنين الاستسلام والطاعة، وأرسل جنكيز رسولا إلى رانا فقبل الانقياد في بادئ الأمر ثم ارتد فأرسل إليه جيشا قبض عليه وقتله، وبعث بعد ذلك جيشا لمحاصرة أغراق^(١) والقلعة التي تحصنوا بها.

وحينما استرد الجيش صحته واستعاد قوته عزم جنكيز على العودة فورا عن طريق بلاد الهند إلى بلاد التتقوت وقطع عدة منازل ولكنه عاد منها حيث وجد الطريق مسدودا فأتى إلى فرشاور (بشاور) ورجع من نفس الطريق التي كان قد أتى منها.

(١) سيف الدين أغراق أحد قادة السلطان جلال الدين المشهورين، أو اسم قبيلته.

ذكر عودة جنكيز خان

حينما حلت تباشير قدوم الربيع للربيع المسكون اكتست الربا والبقاع سندسا وحريرا، وأخرجت الأرض ثمارها، وأخذت البلابل والطيور والحمام تصيح وتنوح على أغصان الأشجار فى الأسفار وعلى ذكر الشباب الغض الذين كانوا يضيئون وجه أنوار البساتين والمنتزهات وأزهارها فى كل ربيع، وكانت السحب تمطر دموعا من مآقيها فيظنونه مطرا...

والبرعمة التى امتلأت ضيقا وألما ملأت كأسها دما لما أصابها من حسرة بدت وكأنها ضاحكة مستبشرة، والوردة قد مزقت ثيابها أسفا على ما أصاب الحسان والوجوه النضرة، وقالت: لقد تفتحت وأينعت. وأزهار السوسن وقد انتشحت بثياب المعززين وتدثرت باللون الأزرق، غالطت نفسها وقالت: إن لوني هو لون السماء. وشجرة السرو الفارعة المتمائلة قد تنهدت كل صباح وثنت جذعها تشوقاً لرؤية الحسنات الفارعات ونيدات الخطى. وقد أسمت ذلك تبخترا وخيلاء، وانفقا معه وبعدا عن الخلاف وضعت رأسها على أديم الأرض الغبراء، وأهالت التراب على رأسها لما أصابها من غصص الزمان ونوائب الأيام قائلة: إني فراش الخميعة. وألقت كأس المدام خمرا فى الحلقوم وأخذ الصنج والرباب يعزف ألحان النواح والعويل:

"انتبه فى وقت السحر حتى تستمع من البلبل إلى أغنية بهلوية

إنه ينوح لوفاة إسفنديار الذى لم يبق لديه عنه ذكرى سوى النواح"

ولم تنفرج شفة أى شخص طوال هذا العام طربا ولم تسترح الدنيا من الفتنة لحظة واحدة فى تلك السنة، من الذى أظهر لى وجهها باسمها متفتحا فى هذا العام، وأى وقت كان جميلا فى تلك السنة؟

وصمم جنكيز على العودة من فراشور إلى موطنه الأصلي، وكان عجولا في عودته لِمَا تنهاى إلى مسمعه من ارتداد الختاي والتتقوت عن ولائهم له ولطول غيابه وبعده، فقد اضطربت أهواؤهم واختلفت آراؤهم في الانقياد له والإذعان لأمره أو الارتداد عنه والعصيان له، فهرب عن طريق جبال باميان مع أمتعته الثقيلة التى تركها فى منطقة بغلان. وأمضى الصيف فى مراتع ذلك المكان حتى إذا ما أقبل فصل الخريف بدأ السير من جديد، وعبر النهر، ثم أرسل ترباي نقشى فى أثر السلطان مرة ثانية وأمضى ذلك الشتاء فى منطقة سمرقند، وأرسل رسولا لإحضار ابنه الأكبر توشى حتى يتوجه هو الآخر من صحراء القبجاق، ويسوق الصيد الذى كان أغلبه من الحُمُر الوحشية.

ومضى جغتاي وأوكتاي إلى قراكول^(١) لتسلية نفسيهما بمشاهدة صيد الإوز "قوقو" وأمضيا ذلك الشتاء فى مشاهدة ذلك والاستمتاع به، وكانا يرسلان إلى جنكيز كل أسبوع خمسين جملا محملا بالإوز "البجع" دليلا على صيدهما.

وفى النهاية وحينما انتهى الصيد ووصل الشتاء إلى نهايته، وأضحت الأرض حقائق غناء ومراعى خضراء، وتدفرت الديار بالزهور والأنوار، صمم جنكيز على الرحيل والانتقال، فاجتمع الأبناء جميعا حول والدهم على شاطئ نهر فتاكت وعقدوا مجلس الشورى "قوريلتاي" (الاجتماع الرسمى)، وغادروا ذلك المكان حتى وصلوا قلان ناشى حيث لحق بهم توشى من الجانب الآخر وانضم إلى والده.

وكان من بين الهدايا التى قدمها لوالده عشرون ألفا من أصيل الجياد البيضاء. وامتنالا لأمر والده ساقوا - من صحراء القبجاق - على هيئة الخراف قطعانا من الحمر الوحشية، ويحكون أن حوافر هذه الحمر الوحشية

(١) قراكول اليوم : اسم مدينة فى أوزبكستان.

قد تورمت وتآكلت من طول الرحلة التي قطعتها فآلبسوها نعالا، حتى وصلوا موضعا يقال له أوتوقا، عندئذ ركب جنكيز وأولاده وضباطه الجياد وساقوا الحمر الوحشية أمامهم وأحاطوا بها وبدأوا قنصهم وأطبقوا عليها من كل جانب حتى أصابها الإعياء والنصب واعتراها الملل ولم يبق سوى هزيل الحمر فوضع كل شخص علامته على حيواناته وتركها حرة.

والخلاصة أنهم أمضوا الصيف في قلان ناشى، وأحضروا إلى ذلك المكان عددا من الأمراء الأويغور وأعدموهم على ما اقترفوا من ذنب وإثم، ومضى جنكيز خان من هناك ووصل إلى معسكره في الربيع.

ذكر ذهاب تورباى تقشى فى طلب السلطان جلال الدين

حينما عاد جغتاي، ولم يعثر على السلطان جلال الدين، اختار جنكيز خان تورباى تقشى مع عشرين ألفا من الجنود المغول للذهاب فى أثره، فعبر نهر السند حتى وصل إلى حدود بيه وهى ولاية هندية كان يمتلكها قمر الدين كرمانى، ثم استولى عليها أحد أمراء السلطان جلال الدين، وتمكن تورباى من الاستيلاء على قلعتها وكانت أكثر تحصناً، وقتل خلقا كثيرا ثم توجه إلى المولتان، ونظرا إلى عدم وجود الحجارة بها فقد ساقوا منها خلقا كثيرا، ألحقوهم بالجيش الأمامى، وصنع أعمدة من الأخشاب وملأها بأحجار المنجنيق وألقوها فى النهر.

وحينما وصل إلى المولتان أطلق المنجنيق وبدأ الرماية وهدم جزءا كبيرا من حائطها وسورها فاستسلمت بعد فترة وجيزة. ولم يطب له المقام هناك لشدة الحرارة فى تلك الأنحاء فأغار على ولاية المولتان ولاهور وقتل أهلها ثم عاد وعبر نهر السند، وبوصوله إلى غزنة انضم إلى جنكيز ومضى إثره.

ذكر ذهاب يمه وسبتاي عقب السلطان

حينما وصل جنكيز خان إلى سمرقند، واستدار حولها وحاصرها، سمع بعبور السلطان نهر ترمذ، وأنه فرق أكثر جيشه وحاشيته وحشمه في سائر القلاع والبقاع ولم يبق معه سوى عدد ليس بالكثير، وقد عبر النهر خائفاً يترقب، مشئت الضمير، فقال جنكيز خان: لا بد من الانتهاء منه حتى يهدأ البال قبل أن يجتمع الناس حوله، وقبل أن ينضم إليه الأشراف من سائر الأطراف ويمدوه بما يحتاج. فاختار من كبار الأمراء يمه وسبتاي ليتعقباه، وعين من الجيش الذي كان معه ثلاثين ألف جندي وألفاً من جنود السلطان، الواحد منهم كذئب وقطيع من الخراف وجذوة من النار وغابة يابسة، وعبروا نهر البنجاب، وجذوا في البحث عنه كجلمود صخر حطه السيل من عل، وأسرعوا في أثره باحثين وسائلين كأنهم دخان.

وصلوا في البداية إلى بلخ فأرسل إليهم مشاهير بلخ جمعاً منهم وقدموا لهم المؤن (تزغو) من طعام وشراب فلم يؤذوهم وعينوا عليهم شحنة، وأخذوا منهم دليلاً ومرشداً وسيروا طائيس في المقدمة للاستكشاف.

وحينما وصلوا إلى زاوة طلبوا مئونة (علفا)، إلا أن أهل زاوة أغلقوا أبوابهم ولم يعيروا أقوالهم التفاتاً وانتباهاً ولم يعطوهم شيئاً، ونظروا إلى أنهم كانوا في عجلة من أمرهم لم يتوقفوا عندهم واستمروا في سيرهم، فلما رأى أهالي المدينة عملهم وعلموا أن المغول قد تركوهم وولوا ظهورهم رفعوا أيديهم عن القلاع - تحقيقاً لرغباتهم - وأخذوا يدقون الطبول والدفوف فرحين وتقوهم ببذء القول وفحشه، فلما رأى المغول استخفافهم وسمعوا سبهم وأصواتهم عادوا إليهم من فورهم ودقوا أقدام الحرب حول القلاع الثلاثة، وأقاموا السلاكم فوق الجدار.

وفى اليوم الثالث وفى الوقت الذى امتلأت فيه كأس الأفق من ماء الشفق وصلوا إلى أعلى الجدار ولم يبقوا على أحد رأوه حيا، ونظرا إلى أن الفرصة لم تكن متاحة لهم للمقام فقد أحرقوا كل ما كان ثقيلا حمله ودمروه، وكانت هذه أول كأس أنزلها للزمان على رقعة الحفاء وأول لعبة خرجت من الفلك المخادع الغادر.

وكان هذا وكان ذلك الكفاح مرتبط بحوادث الأيام وكوارث الزمان اللامتناهية، فقد حدثت من أصواتها زلزلة بخراسان وأصاب الناس الهلع والولع لسماع تلك الحادثة التى لم يسمع بمثها قط، وصل يمه وسبتاى إلى نيسابور فى أوائل ربيع الآخر سنة سبع عشرة وستمائة، وأرسلا رسولا إلى مجير الملك كافى رضى وفريد الدين وضياء الملك الزوزنى رزراء وصدور خراسان يدعوهم إلى الاستسلام والانقياد لجنكيز خان واتباع أوامره، راجيا تقديم المؤونة والطعام.

فبعثوا إليه بثلاثة أشخاص من أواسط الناس حاملين المؤمن والعلف والهدايا ومبلغين بالاستسلام والطاعة فأسدى إليهم يمه نصائحه التى حذرهم فيها من المخالفة والمعارضة وحثهم فيها على نبذ القتال وضرورة استقبال أى مغولى أو رسول موفد من قبلهم استقبالا حسنا، وأن لا يعتمدوا على مناعة حصونهم وقوة أسوارهم، وكثرة جموعهم حتى يصونوا أسرهم وأموالهم، وكدليل على ذلك أعطى الرسل "التمغا" (خاتما بالخط الأويغورى)، إن الأمراء والعظماء والرعية يعلمون جيدا أن...^(١).

ونسخة من أوامر جنكيز خان كان مضمون معانيها والمقصود منها ما يلى: لقد أعطيتك وجه الأرض جميعا من شروق الشمس حتى غروبها، وكل شخص ينضوى تحت حكمك يكون قد رحم نفسه ونساءه وأولاده وأهله، وكل شخص خالفك وعصاك فقد أهلك نفسه ونساءه وأبنائه وأهله.

(١) فجوة فى الكتابة.

وقد كتبوا رسائل عديدة على هذا النحو وشجع الأهالي بالكثير من الوعود ثم انصرفوا وغادر يمه نيسابور عن طريق جوين، ووصل سبتاي إلى طوس عن طريق جام وأبقى على كل شخص قابلهم معلنا الاستسلام لهم، واستأصل شأفة كل شخص خالفهم وعصاهم، وأعلنت القرى الواقعة شرق طوس - وهى نوقان والربع، استسلامها - وقد نعمت الآن بالأمان، وأرسلنا من هناك رسولا إلى المدينة فلم يعطوه الإجابة المطلوبة والملائمة، فأفرطوا فى قتل سكان المدينة والقرى المجاورة لها، وحينما وصل سبتاي إلى راد كان أعجبه خضرة المروج وعيون الماء فلم يعرض تلك الجماعة لأذى والضرر وترك بها شحنة عنه، فلما وصل إلى خيوشان قتلوا منهم الكثير نتيجة لما أبدوه من تقصير وعدم اكتراث بهم، وتوجه من هناك إلى أسفرايين، وقتلوا الكثير من أهل أسفرايين وأدكان، ولوى يمه العنان قاصدا مازندران عن طريق جوين، وأسرع سبتاي عن طريق قومش، وقتل يمه فى مازندران خلقا كثيرا، وقد قتل أهل أمل بخاصة تقتيلا وترك جيشا لمحاصرة القلاع التى كانت تضم فى داخلها حرم السلطان والاستيلاء عليها.

وصل سبتاي إلى دامغان فلجأ عظماء المدينة إلى كردكوه، وبقيت جماعة من الأشرار (رنود) لم يرضوا بالاستسلام وخرجوا تحت جنح الليل وقاتلوا على بوابة القلعة وقتل من الجانبين عدد وفير، ووصلوا من هناك إلى سمنان حيث قتلوا الكثير من أهلها وفعلوا فى خوار الرى مثل ذلك، فلما وصلوا إلى الرى خرج القاضى مع عدد من الأشخاص إليهم وأعلن استسلامهم، وحينما علموا بأن السلطان توجه إلى همدان منذ قليل أسرع يمه من هناك مقتفيا أثره، واتجه سبتاي إلى قزوین وتلك الأنحاء، فلما وصل إلى همدان أعلن علاء الدولة حاكم همدان الاستسلام وأرسل إليه الكثير من المأكولات والمشروبات والملبوسات والركائب وقبل شحنة من قبل المغول، فلما هزم السلطان عاد يمه ووصل إلى همدان، فلما تواترت الأنباء بأن جمعا

غفيرا من جيش السلطان قد اجتمع فى سجاسى^(١) يتقدمهم بكنكين السلاح دار وكوج بفاخان، توجه إليهم وأبادهم عن بكرة أبيهم وأغار على بلاد العراق ونواحيها وقتلوا من أهلها الكثير، وتوجهوا من هناك إلى أردبيل واستولى عليها بعد محاصرتها وقتل أهلها ونهب خيراتها، وحينما حل فصل الشتاء ذهبوا إلى موغان حيث أمضوا فصل الشتاء بها، وكانت السبل قد سدت فى ذلك العام لكثرة الثلوج التى تساقطت، وأوقد جمال الدين أبيه وجمع آخر معه نار الفتنة والاضطراب فى العراق من جديد وأعلنوا التمرد والعصيان، وقتلوا الشحنة الذى كان بهمدان وقبضوا على علاء الدولة لما أعلنه من استسلام للمغول وسجنوه بقلعة كريت، وحينما حل الربيع توجه يمه إلى العراق للانتقام لمقتل الشحنة، وعلى الرغم مما أبداه جمال الدين أبيه من مظاهر الاستسلام والطاعة لم يُجذ هذا فتىلا، وقتله مع عدد آخر ممن معه، وغادر تلك الناحية وأخضع تبريز لحكمه، وقتل جميع أهالى مراغة ونخجوان وسائر تلك الولايات، وأقبل الأتابك خاموش وأعلن خضوعه واستسلامه فأعطاه الخطاب والتمغا، وأقبل من هناك إلى أران واستولى على "بيلقان"، وغادرها عن طريق "شروان"، فلما وصلوا إلى دربند لم يكن أحد يعلم أن جيشا قد عبر من تلك الناحية أو حارب فيها، تحايلوا حتى عبروها، والتحق بها جيش توشى الذى كان يقيم بصحراء القبجاق وتلك الحدود، وتوجهوا من هناك إلى بلاد جنكيز خان.

ويتضح من ذكر هذه الحكايات غلبهم وقهرهم بل وتحقق قدره "وهو القاهر فوق عباده"، ذلك أن فوجا صغيرا من أحد الجيوش قد أقبل وسيطر على عدد من السلاطين والملوك والممالك، ولم يبق فى الجهات الأربع لأى مخلوق القدرة على معارضتهم وممانعتهم، وأن هذا لا يمكن إلا أن يكون شيئا واحدا هو انتهاء دولة وابتداء دولة.

(١) سجاسى: اسم مدينة بين همدان وأبهر.

ذكر استيلاء تولى على خراسان على سبيل الإجمال

حينما غادر السلطان محمد خراسان، انطلق يمه وسبتاي فى أثره مسرعين كالنار فى تطايرها، بل إنهم فى الحقيقة كالعاصفة فى هبوبها وشذتها، فقد اجتاحت جيوشهم كل أرجاء خراسان ولم يبق منها سوى النذر اليسير من الأتقاء لم تطأها أقدام أفواج جيوشهم، وكلما مضوا من ناحية أرسلوا رسولا إلى كل ولاية تقع فى طريقهم يخبر أهلها بوصول جنكيز خان، ويحذروهم من الإقدام على الحرب والتمسك بالعناد والإباء ورفض الانقياد، ويزيدهم رعبا وخوفا، وحينما أعلنوا الاستسلام والطاعة ترك عليهم شحنة عنه ومعه التمغا كعلامة وانصرف، فإذا ما عارضوه وأحجموا عن الانقياد له هاجم المكان واستولى عليه فى يسر وسهولة، ولم يرحموا أهله بل ويأسرونهم ويقتلونهم، فإذا ما ولوهم الأدبار انشغل الأهالى بتحصيل القلاع والأبراج وتخزين المؤن والطعام والعلف، ثم تتراخى همتهم مرة ثانية بعد عدة أيام وقد هدأت حدة أصوات الجيش المغولى، فظنوا أن تلك الجماعة ربما كانت سبلا قد ابتلعت الأرض أو زوبعة من الرياح قد أثارى بعض التراب من سطح الأرض أو وميض نار قد أبرقت ثم تلاشت واختفت! فلما عبر جنكيز النهر وتوجه بنفسه فى أثر السلطان، اختار ابنه ألغ توين الذى كان فى عقابه وسياسته سيفا بتارا وفى أفعاله نارا حامية، إذا أصابت ريحه أى شخص أضحى هشيما، وكان فى الفروسية برقاً خاطفا انطلق من خلال حجاب السحاب حينما سقط أصبح المكان رمادا ولم يترك أثرا أو علامة ولا يلبث الزمان ولا يستقر. اختاره للتوجه إلى بلاد خراسان وقسم الجيوش التى كانت معه على أبنائه جميعا بنسب متساوية، واختار من كل عشرة أشخاص شخصا للذهاب مع تولى، رجالاً أشداء إذا ما هبت ريح الحرب والهيجاء اشتعلت النار فى قلوبهم وأثارت حميتهم، وطار لبهم وسقط عقال الثبات من

أيديهم، فإذا كان خصمهم بحرا خضماً أطموه وأسلموه لأحشاء الأرض. وحينما ذهب تولى عَيْن الأمراء على الجناحين وتولى بنفسه قلب الجيش وأرسل طلائع استكشافية في المقدمة وتوجه هو عن طريق مروجق ويغ وبغشور.

كانت خراسان آنذاك قد قُسمت إلى أربع مدن: بلخ ومرو وهراة ونيسابور، وقد أباد جنكيز خان بنفسه بلخ كما ورد ذكر ذلك على حدة وأحوال المدن الثلاث الأخرى بسبب ما حدث في تلك البلاد من أحوال قبل وصول المغول، وبعده سيأتى ذكر كل واحدة منها بالتفصيل. وأرسل إلى باقى الجهات فى الشرق والغرب والشمال والجنوب جيوشا لإخضاعها، فاستولت عليها جميعا مثل أبيورد ونسا وبازر وطوس وجاجرم وجوين وبيهق وخواف وسنجان وسرخس وزورابد، ووصلوا من ناحية هراة حتى حدود سجستان وأمعنوا فيهم قتلا وتخريبا وسلبا ونهباً، وأصبح العالم الذى كان يموج فى عمار ورخاء خراباً بركضة واحدة، وأضحت الديار والرباع خراباً يباباً وأمسى أكثر الأحياء أمواتاً، وبانت الجلود والعظام رفاتاً، وأصبح الأعزاء أذلاء غرقى ديار البوار والدمار، ولو كان هناك خلى البال يستطيع أن يقف حياته كلها على دراسة وبحث هذه الأحوال ويركز همه وهمته عليها، فلن يستطيع فى زمن طويل الوفاء بما تطلبه حادثة واحدة من شرح وتفصيل، ولن يستطيع ثبتهما فى سدة الكتابة، وكيف يصل إلى تحقيق ذلك؟!!

ونتيجة للرغبة التى توفرت لمحرر هذه الكلمات، ومع أنه لم يتيسر له طرفة عين من التحصيل والدراسة، فإنه يختلس ساعة فى أوقات راحة القافلة ويسود تلك الحكايات، والخلاصة أن تولى فى شهرين أو ثلاثة قد تمكن من إخضاع هذه المدن مع العديد من الربوع التى كانت كل قصبة منها مدينة، وكانت كل واحدة منها بما تموج به من الخلائق بحرا متلاطماً، وقد خربت أطرافها وأكنافها وسويت وأضحت لمساء كراحة اليد، لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً وأذل العصاة الذين رفعوا رعوسهم عصياناً وتمرداً وأذاقهم شراباً وببلاً

فأضحوا صغارا أذلاء في يد حوادث الزمان، وكانت آخر هذه المدن هراة
التي أصابها، ما أصابهم فلما ألحقها بأخواتها الأخريات توجه إلى حضرة
والده، ولم يكن قد تم له الاستيلاء على الطالقان قبل الالتحاق بوالده، وقد تم
له فتح هذه المدينة بمعاونة منه ومساعدته، واستسلمت له خوارزم وجند
وسائر تلك النواحي في خلال شهرين، ولم تستسلم هذه المدن لأى سلطان من
السلطين على هذا النحو منذ هبوط آدم حتى يومنا هذا، ولم يُنظر مثل هذا
في كتاب.

ذكر أحوال مرو وكيفية واقعته

كانت مرو عاصمة السلطان سنجر وموضع لقاء كل صغير وكبير، كانت مساحتها أكثر مساحات بلاد خراسان امتيازاً، يخلق طائر الأمن والسلام بين ربوعها وفوق أكنافها، يتنافس عدد رعوس أبنائها مع قطرات أمطار نيسان المدرار، تتبارى أرضها مع السماء ويتساوى فلاحوها لكثرة ما ينعمون به من نعيم مع ملوك العصر وأمرائه، وُضعوا قدم المساواة مع عظماء العالم وكبرائه.

وثرى طينه يفوح العبيراً	بلد طيب ورب غفور
فهو ينهاه باسمه أن يسيرا	وإذا المرء قدم السير منه

حينما عزل السلطان محمد أنار الله برهانه مجير الملك شرف الدين مظفر من الوزارة بسبب الجرم الذي اقترفه عمه، وفوض أمور هذا المنصب لابن نجيب قصة دار الذي كان معروفا باسم بهاء الملك، بقى مجير الملك ملازماً لركاب السلطان حتى انصرف السلطان من ترمذ مهزوماً.

اتجه كشكين بهلوان لاستطلاع رأى أهل البلاط الذين كانوا يقيمون بمرو وأنبأهم عن الاضطراب والتفرق الذي حدث وعن خروج جيش أجنبي، وبعد ذلك وصلت رسالة من السلطان موشحة بتوقيعه وإمضائه "طغرا" وخاتمه السلطاني ومملوءة بالعجز والضعف، وكان مضمونها والمقصود منها أن يتحصن الجنود والضباط وأصحاب الأعمال بقلعة مراغة، وأن يبقى الفلاحون والعجزة الذين لا يستطيعون انتقالاً حيث هم وأن يستقبلوا جيش التتار في أى وقت خير استقبال وقاية لأنفسهم وأموالهم وأن يمثلوا لأوامرهم ويقبلوا نائبيهم.

والآن إذا ما اعترى السلطان - وهو بمثابة القلب لأعضاء الإنسان - ضعف، فكيف تبقى القوة للجوارح الأخرى؟ ولهذا سيطر الخوف على الناس وملك قلوبهم، وشاع الفشل فى صفوفهم واضطربت أحوالهم وغشيتهم الحيرة والتردد.

قام بهاء الملك ومعه جمع غفير من النبلاء والقادة بعمل الاستعدادات اللازمة، وحينما وصل إلى القلعة لم يجد من الصالح الإقامة بها، وتوجه مع جمع إلى قلعة ياق يازر، وأما الآخرون فقد اتجه كل واحد منهم إلى حيث يريد وعاد قوم قد جذبهم عنان الأجل إلى مرو، وترك بهاء الملك نقيبا من أحاد الناس ليقوم مقامهم. رغب هذا الرجل فى الاستسلام وإعلان الطاعة، وكان شيخ الإسلام شمس الدين الحارثى يبارك هذه الفكرة ويسانده فيها، بينما كان القاضى والسيد الأجل يخالفان ذلك ويعارضانه، فلما أصبح واضحا ومؤكدا لهم وصول جيش يمه وسبتاى إلى مرو جق أرسلوا رسولا إليه معلنا الطاعة والاستسلام.

وفى تلك الأثناء خرج من إحدى الزوايا تركمانى كان قائدا ومرشدا للسلطان وكان يدعى بوقا، واجتمع حوله عدد من التركمان.

ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فاجتمع حوله عدد من الناس خالفوا الجيش التترى وعارضوا الاستسلام له، وخلع النقيب نقاب الإمارة عن وجهه^(١) وولى تركمان تلك الحدود وجوهم شطره والتجأ إليه عدد من أهل جند الذين هربوا من الجيش الأمامى وذهبوا إلى مرو لما تنعم به من خصب ونعم، فكثر حشمه وتزايد عدد أنصاره، وحينما توفى السلطان فى جزاير آب سكون وسكنت روحه فيها توجه مجير الملك ومعه حمار وحيد تارة يركبه وتارة يسير بجانبه فمر بقلعة صعلوك حيث لقيه الأمير شمس الدين على بالكثير من مظاهر الإعزاز والإكرام وتوجه من هناك إلى مرو حيث نزل

(١) يعنى أنه استقال من الحكومة وسلمها إلى بوقا.

بحديقة ماهيا باد^(١) الواقعة على بوابة سرماجان فأقبل عليه عدد من قادة مرو الذين كانوا تابعين له فردا فردا، ولكن بوقا لم يسمح له بالبقاء فى المدينة خوفا من التفاف عامة الناس حوله، فلما اجتمع حوله عدد قليل خرجوا وسط النهار وقد أخفوا أسلحتهم بمعاطفهم الفضفاضة، وألقوا بأنفسهم داخل المدينة فأسرع إليه على الفور جنود مرو وتمنطقوا بحزام خدمته، وأقبل عليه بوقا وحده معتذرا إليه وطالبا العفو منه، وانضم إليه، واحتفى تحت سلطانه التركمان وأهل جند الذين كانوا بالمدينة والذين كان عددهم يزيد عن سبعين ألف رجل، فاعتبر نفسه فى منصب أعلى من الوزارة وأسمى منها، وقوى له خياله حلم السلطنة فى رأسه مستندا إلى أن والدته كانت أعظم حظية من حرم السلطان قد منحها السلطان لوالده وشرف بذلك، وكانت حبلى وقت تسليمها إليه. وخلاصة القول فإن صيته قد ذاع بخراسان وشاع فيها فانضم إليه العامة والجهلة من الناس فاستحكمت فى سويداء قلبه سوداء الحكم وظن أن الفلك لا يستطيع أن يدور دورته دون إذن منه ولا تقدر الرياح على الجريان فى ميادين الهواء إلا بأمره، وفى تلك الأثناء كان أرباب سرخس قد قبلوا شحنة عليهم من قبل التتار وأعلنوا الاستسلام له.

وأرسل شيخ الإسلام - الذى كان لا يزال يميل إلى التتار - خطابات سرية إلى قاضى سرخس الذى كان من أقربائه، وأخبروا مجير الملك بتلك الحالة فلم يعقب، ولم يقل شيئا، حتى إذا ما خطب شيخ الإسلام على منبر المسجد الجامع واعطا مرشدا جرى لسانه بهذا الدعاء: "اللهم اقطع عصب روح الأعداء"، فأصابته الحاضرين الدهشة لما سمعوا وشغلوا بما قال فصمت وأصابته الحيرة والدهشة وقال: لقد جرى هذا الكلام على لسانى دون إرادة منى. وكان هذا على النقيض من الفكر والضمير، إلا أنه حينما حل الوقت، انطلقت الدعوات على اللسان حسب مقتضيات الزمان، قال الله تعالى:

(١) ماهيا باد: اسم محلة كبيرة تقع شرق مرو.

"قُضِيَ الأمر الذى فيه تستفتيان"^(١). وصل هذا القول إلى أذن مجير الملك أيضاً، فأيد شكوكه فيه واتهامه له، ولكنه كان على صلة وقرابة به، فضلاً عن اكتسابه لمنصب شيخ الإسلام، يضاف إلى هذا أنه كان فى حقيقة أمره عالماً، كما أن مجير الملك لم يشأ أن يتعرض له بالضرر والأذى دون وضوح بيّنه أو حجة يراها العالم كله، وحتى لا يكون لأى إنسان مجال للقبح والاستتكار، فقد حصلوا على الخطاب الذى كان قد كتبه بخط يده إلى قاضى سرخس من يد الرسول الذى حمّله إليه فى أثناء سيره فى رحلته، فلما قرأ مجير الملك الخطاب أرسل شخصاً لاستدعائه، وسأله فأنكر علمه بأى شيء عن الرسالة وعن أخبارها، فأعطاه مجير الملك رسالته التى كتبها والتى كانت كصحيفة المتلمس قائلا: "اقرأ كتابك"^(٢). فلما وقع نظر شيخ الإسلام على رسالته وأبصر خطه أسقط فى يده. وأصابته الحيرة وغشية الاضطراب فأمر مجير الملك بالقبض عليه، وأمسك به القادة، وصبوا عليه نار البلاء ومزقوه بالسكاكين إرباً إرباً، أمسكوه من قدمه وجروه على وجهه حتى طافوا به أركان المدينة الأربعة^(٣)، وهكذا تكون عاقبة المكر والنفاق وخيمة، ولا تحمد عاقبة الخداع والغدر، وبسبب ما أبدته سرخس من استتلام المغول أرسل مجير الملك جيشاً إليها وأذاقوا أرباب سرخس الهوان والدمار، وفى تلك الأثناء هرب بهاء الملك من قلعة ياق والتجأ إلى مازندران، هناك أصبح قريباً من المغول والجيش الثانى المرتزقة وتحدث عن أحوال مرو وذكر أوضاعها وعرض أن يذهب إليها، ويسلم مرو إليهم وأن يقدم للخزانة كل عام من كل بيت ثوباً من الكرياس.

ولقى هذا القول لديهم أذانا مصغية، وأرسلوه إلى مرو مع سبعة من المغول، وكان غافلاً عما جرى بمرو من تطورات وأمور، جاهلاً بدوران

(١) سورة يوسف، الآية ٤١.

(٢) سورة الإسراء، الآية ١٤، وليست ١٥ كما يذكر.

(٣) يذكر Boyle أنهم جروه على وجهه حتى وصلوا به إلى السوق، صفحة ١٥٦.

الفلك العجيب، فلما وصل إلى مدينة شهرستان^(١) مملوءاً شرها وحرصاً علم باستيلاء مجير الملك عليها فأرسل في المقدمة ضابطاً مخبراً بوصوله وكتب خطاباً إلى مجير الملك يتضمن ما يلي: "إذا كان قد حدث بين الجانبين قبل هذا بزمان بعيد اختلاف وتضارب حول المناصب فقد زال الآن، وقدرة الجيش المغولي كبيرة لا يمكن التصدي لها أو مدافعتها إلا بالاستسلام والطاعة، ويتوجه الآن إلى مرو سبعة آلاف من المغول يرافقهم عشرة آلاف من المرتزقة، وقد استسلمت لهم ورافقتهم، وقد دمروا وخرّبوا مرو ونسا وأبور^(٢) في لحظة واحدة، وقد أرسلت الآن وعلى وجه السرعة رسولا مخبراً بهذه الأحوال من باب الإشفاق وطلب الوفاق حتى تكفوا أيديكم عن النكار والعراك وحتى لا توقعوا أنفسكم في غمار البوار وتثور الدمار".

فاستولت الحيرة والاضطراب والتمزق على مجير الملك وأكابر المدينة وعظمائها، لهذا السبب فكر كبار الملازمين لمجير الملك في أن يتفرقوا ويتركوا المدينة، إلا أنهم فكروا وتدبروا أمرهم وقالوا إن الاعتماد على أقوال المغرض والوسواس دون ثبوت يقين ويقين أمر بعيد عن الحزم والصواب، لهذا اتصلوا برسول بهاء الملك كل على حدة وبحثوا معهم عدد جنود المغول، وحينما وقفوا على حقيقة الأمر والحال قتلّوهم وأرسلوا لمحاربتهم ألفين وخمسمائة فارس من بقية جيش السلطان الأتراك، وحينما علم بهاء الملك والمغول بأمرهم عادوا من ناحية سرخس وتفرق ضباط بهاء الملك ففقد المغول بهاء الملك وأوتقوه وحملوه معهم إلى طوس حيث قتلوه، ومضى جيش مجير الملك حتى وصل إلى سرخس، ونظروا إلى ما قام به القاضي شمس الدين وقت وصول يمه نوين إلى المدينة من فروض الاستقبال، وأضحى ملكاً وحاكماً لسرخس وحصل على جائزة خشبية من

(١) شهرستان أو شهرستانه مدينة تقع على بعد ثلاثة أميال شمال نسا.

(٢) يذكر القزويني أن بعض النسخ أضافت بعد أبورد نيسابور فقالت: "ونيسابور"، وهذا بعيد عن الصواب ذلك أن نيسابور تم فتحها بعد مرو، وقد ذكرها باتولد "أبورد" وقد ذكرها الجويني بعد تلك بـأبورد: صفحة

جنكيز خان، لهذا قبضوا عليه وأسلموه إلى ابن بهلوان أبي بكر في ديوانه فقتله قصاصا لوالده، وكانت حدة صولة جيش المغول في ذلك الوقت قد انكسرت فاشتغل مجير الملك وأعيان مرو بالنتزه والنشاط وانهمكوا في شرب المدام وأفرطوا فيه وداوموا عليه. وصل في أثناء ذلك اختيار الدين ملك أمويه أفاد أن: جيش التتار مشغول الآن بمحاصرة قلعة كلات وقلعة نو، وأن فرقة منهم قد وصلت إلى "أمويه"، وهم قادمون في أثرى. فأكرم مجير الملك وفادته، واتصل اختيار الدين بتراكمة آخرين ونزل عندهم ووصلت فرق مغولية مكونة من ثمانمائة جندي وهجموا عليه فأقبل شيخ خان وأغل صاحب من خوارزم مع ألفين من الأبطال وهجموا على المغول من الخلف ولحقوا بهم وحاربوهم وتركوا أكثرهم قتلى في أرض القتال وهرب بعضهم لقوة جيادهم، فانطلق في أثرهم جماعة من التراكمة الأتراك من جيش السلطان وأسروا منهم ستين شخصا وقتلوهم بعد أن طافوا بهم حول أرجاء المدينة وأسواقها، ونزل شيخ خان وأغل صاحب بدستجرد، ونصب التراكمة اختيار الدين قائدا لهم وتعاهدوا فيما بينهم على الاتفاق والوفاق وارتدوا عن مجير الملك وبدأوا في إثارة العديد من الاضطرابات والفتن التي غيّرت وجه الأرض وكللته بالسواد، فأضحى كقلوب المنافقين، وقصدوا إلى الاستيلاء على المدينة، إلا أن مجير الملك أخذ علما بأمر غارتهم الليلية وفكرهم المدبر، فأخذ لنفسه ما يلزم من الحيلة، لهذا لم يحققوا أى ظفر عليه وأصبحت أوضاعهم غير آمنة فمضى التراكمة إلى شاطئ النهر ومدوا أيديهم إلى السلب والنهب حتى وصلوا إلى باب المدينة وأغاروا على القرى وسلبوا كل ما رأوه وما شاهدوه، وعيّن جنكيز خان تولى للاستيلاء على خراسان مع سبعين ألفا من الجنود.

*** **

وفى ذلك الوقت، وحينما عيّن جنكيز خان تولى^(١) للاستيلاء على خراسان مع رجال عمل وأسود معارك، واستخرج جيشا أماميا من الولايات التى استسلمت له فى طريقه إليها مثل أبيورد وسرخس وغيرها، فأضحى الجيش المغولى مكونا من سبعين ألف جندى، وحينما اقتربوا من مرو أرسلوا من الطريق قوة استطلاعية مكونة من أربعمئة فارس، ووصلوا تحت جنح الليل إلى ناحية خيول التراكمة، وراقبوا أحوالهم وقد تجمع هناك اثنا عشر ألفا من التراكمة الفرسان، واعتادوا الذهاب صباح كل يوم إلى البوابات لمهاجمة المدينة.

"وذات ليلة وحينما اغتسلت الوجوه بالقار، لا يظهر فيها المريح ولا زحل ولا عطارد، نصب المغول كمينا فى طريقهم وحبسوا أنفاسهم" انتظروا لهم، ولم يكن التراكمة قادرين على معرفة بعضهم بعضا وكانوا يصلون فوجا إثر فوج فينلقفهم المغول ويغرقونهم فى الماء على رياح الفناء، وحينما حطم المغول قوتهم أسرعوا كالريح إلى مرائب خيلهم وقتلوا جميعا، وتركوها كما يترك الذئب قطيع الخراف، وأما التراكمة الذين كان عددهم يزيد عن سبعين ألفا فقد هُزموا وأصبحوا أذلاء عاجزين على يد حفنة قليلة من الرجال، وألقى غالبيتهم بأنفسهم فى الماء حتى غرقوا وانهزم الباقون واستسلموا، ولما كان جيش المغول يعتمد على حظه السعيد ومساعدة الزمان له، فلم يستطيع أحد أيا كان مشاكسته ومناقضته، وأما من كان لا يزال فى عمره بقية فقد ألقى سلاحه وهرب.

واستمر المغول على هذا النحو حتى جن الليل، وتجمع فى الصحراء ستون ألفا ماشية بخلاف الخراف التى ساقها التراكمة من البوابات مع سائر ممتلكاتهم الأخرى التى لا يمكن حصرها ولا يتسع الوهم لاستقصائها.

(١) ورد هذا فى النسخة ج وهذا هو الصحيح، بينما ذكرت بقية النسخ "توشى" وهذا سهو واضح، فقد أجمع المؤرخون على أن تولى خان هو الذى كلف بفتح خراسان وليس توشى.

وفى اليوم التالى حيث كانت غرة المحرم من سنة ثمانى عشرة وستمائة^(١)، والتي كانت الساعات الأخيرة من حياة غالبية أهل مرو، وصل تولى ذلك الضرغام المقتحم مع جيش كالليل المدلهم، والبحر المتلاطم الأمواج يزيد جنوده عن حبات رمال الصحراء وجميعهم محاربون أشداء وأبطال مغاوير أقوياء.

وتوجه هو بنفسه مع خمسمائة فارس إلى بوابة فيروزى -النصر- وأقام سياجا وحصارا حول المدينة طوال ستة أيام، وظن المواطنون بالمدينة أنهم مانعتهم حصونهم وكثرة عددهم، حتى إذا ما حل اليوم السابع: وأرادت الشمس المشرقة أن تلقى قوسها المتألق من البرج العالى

تجمعت الجيوش ونزلت إلى بوابة شهرستان وبدأت الحرب بين الجانبين، وبرز مائتان من الرجال من البوابة وهاجموهم فترجل تولى بنفسه. وأطلق صيحة كفيل ثمــــل ورفع كتفه فوق رأسه وأظهر يده

وتقدم صوبهم وهاجمهم والمغول فى ركابه وساقوهم جميعا إلى داخل المدينة، بينما خرج جمع آخر من بوابة أخرى فردتهم جماعة أخرى كانت هناك من المغول على أعقابهم.

ولم تستطع أية جماعة من المواطنين تحقيق أى شىء من أى جانب حتى إنهم لم يكونوا قادرين على أن يطلوا برءوسهم من البوابة.

حتى إذا ما انتشج الزمان بوشاح الحزن الأسود وتدنثر بثوب الحداد أقام المغول سياجا حول المدينة والتفوا حول مدار القلعة عدة حلقات وأقاموا حراسة طوال اليوم للمراقبة، فلم يكن لأحد سبيل للخروج، فلم ير مجير الملك طريقا للخروج سوى الانقياد والاستسلام.

(١) المولف ٢٥ من فبراير سنة ١٢٢١م.

ولهذا فإنه فى الصباح وحينما رفعت الشمس البرقع الأسود من فوق هذا الوجه القمري، أرسل الإمام جمال الدين الذى كان من كبار أئمة مرو برسالة طالبا الأمان، وبعد أن اطمأن قلبه بالعود والأفعال رتب الكثير من الهدايا مع عدد من الحيوانات التى كانت بالمدينة من خيول وجمال وبغال وذهب إلى تولى، سأله تولى عن أحوال المدينة وأخبارها وتفاصيل أمور أغنياء المدينة وكبرائها فأعطاه مجير الملك قائمة بمن فيها من الأشخاص، فأمر تولى بإحضارهم، وكان لمطالبة هذه الجماعة زلزلة "زلزت الأرض زلزالها"^(١)، واستخراج ما أخفوه من نقود وأدوات زينة فعل "وأخرجت الأرض أثقالها"^(٢).

وبعد ذلك دخل الجيش المدينة وساقوا الخاصة والعامة من كرام ولثام إلى الصحراء، واستمر الناس يخرجون من المدينة طوال أربعة أيام بلياليها، ثم أحاطوا بهم جميعا، وفصلوا الرجال عن النساء.

وا أسفاه، لقد أخرجوا الكثير من السنوات من أحضان أزواجهن، وفصلوا الأخوات عن إخوتهن، وانتزعوا الأبناء من أحضان أمهاتهم وكثيرا ما ألحقوا الأذى والضرر وأدخلوا الحسرة فى قلوب الآباء والأمهات لاغتصاب العذارى والأبكار من بناتهم، وأمر بتعيين ما يزيد عن أربعمئة شخص من الحرفيين، اختيروا من بين الرجال، وساقوا بعض الصغار من الفتيان والفتيات أسرى ثم قتلوا جميع المواطنين بما فيهم النساء وأولادهن، ولم يبقوا على أرضها من الإنس نيارًا، وقسموا أهل مرو على الجيش والجيش الأمامى. وما يمكن قوله إجمالاً واختصاراً أن كل فرد من أفراد الجيش قد قتل ثلاثمئة أو أربعمئة شخص. وأقدم أرباب سرخس على الانتقام من قاضى الإسلام كما لو كان شخصا لا علم له عن الإسلام ولا خبر له به، وبالغوا فى إذلاله وإخضاعه وقتلوا الكثير من الناس ليلا حتى أضحت الجبال كثيبا مهيبا^(٣) واصطبغت الصحراء بدماء الأعداء والأحباب.

(١) سورة الزلزلة، الآية ١.

(٢) سورة الزلزلة، الآية ٢.

(٣) يذكر القزوينى أن قول الجوينى "وأصبحت الجبال تلالا" لا معنى له وأن الصواب: كوها يعنى كوديبها - أى الحفر، ورأى بويل أن هذا الاقتراض ليس ضروريا ومن الممكن ترجمتها على النحو التالى: وأصبحت الجبال تلالا.

فرضنا بأرض لم يدس فى عراسها سوى خد خود أو ترائب أغيد
وأصدر أوامره حتى خربوا الحائط وسووا القلعة بالأرض وأضرموا
النار فى مقصورة المسجد التى كانت مخصصة للأحناف أصحاب الإمام
الأعظم أبى حنيفة رحمة الله عليه. وكان ذلك انتقاما للحريق الذى أشعله
بعض المتعصبين للمذهب الحنفى فى المسجد الجامع الذى شيده شمس الدين
مسعود الهروى وزير مملكة السلطان تكش لأصحاب الإمام الشافعى رضى
الله عنه.

وحينما فرغوا من أمر النهب والأسر والاغتيال تلقى الأمير ضياء
الدين على - الذى كان من أكابر مرو والذى أبقوا عليه لأنه كان من سكان
الخلوة - تلقى أمرا بالذهاب إلى المدينة ليصبح أميرا وحاكما على الجماعة
التي تتجمع من الزوايا والخبايا مرة أخرى وترك المغول برماس شحنة
عليهم.

وحينما غادر الجيش المدينة عاد مرة أخرى كل شخص كان قد اختبأ
فى الجحور والزوايا ونجا بنفسه.

فتجمع خمسة آلاف من الخلق مرة أخرى، وفى أثناء ذلك وصلت
جماعة أخرى من المغول كانت متخلفة عن الباقين، وأرادت أن تتال نصيبها
من النقتيل فأمر "برماس" أن يحمل كل شخص قدرا من الغلة للمغول، ولهذا
السبب وقع فى بئر الفناء كثير من المواطنين الذين نجوا منهم قبل ذلك،
وتوجهت تلك الجماعة من هناك إلى نيسابور وقتلت كل شخص صادفهم فى
الطريق كان قد فر من المغول أو هرب من الصحراء.

وبهذه الطريقة قتل خلق كثير، وبعد هذا وصل طويس الذى هرب
وارتد عن يمه نوين إلى مرو، فوضع بدوره مرهما على جراحهم، يضاف
إلى هذا أن الجماعة المغولية قتلت كل شخص وجدته حيا وأذاقته شراب
الفناء.

نحن والله فى زمان غشوم لو رأيناه فى المنام فرعنا

أصبح الناس فيه من سوء حال حقٌ من مات منهم أن يهنا^(١)

كان سيد عز التشابه من كبار السادات آنذاك وكان مشهورا بورعه
وفضله، وقد استمر مع آخرين فى إحصاء عدد القتلى ثلاثة عشر يوما
بلياليها، وبلغ مجموع ما كان ظاهرا من القتلى بخلاف الذين ضمتهم الجحور
والأوكار والقرى والصحارى ألف ألف وثلاثمائة ألف قتيل أو يزيد.

وفى هذا المقام انطلق لسان عز الدين منشدا رباعية لعمر الخيام
ومناسبة لهذه المقام:

أن مكونات الكأس التى انصهرت معا

لا يستطيع ثمل كسرهما وقصمهما

وكثير من الرءوس والأقدام العاشقة

قد جمعها على محبة وفرقها على حقد وكراهية

وظل الأمير ضياء الدين وبارماس مقيمين فى مرو حتى سمعا بأمر
الفتنة التى أثارها سرخس بهلوان أبو بكر ديوانه بن شمس الدين، وحينما
توجه الأمير ضياء الدين مع عدد من الرجال لإخماد الفتنة والقضاء عليه
أخرج برماس الحرفيين وغيرهم من أهالى مرو عاقدا العزم على التوجه إلى
بخارى فنزل بظاهر المدينة، وظن جمع الناس الذين امتلأت كنوس أعمارهم
وتنكر الحظ لهم أنه قد أقبل للشحنة من طرف السلطان وأنه مستعد للفرار
والهزيمة، فى الحال دقوا الطبول وأعلنوا التمرد والعصيان. وفى آخر أيام
رمضان سنة ٦١٨ وصل برماس إلى باب المدينة وأرسل جماعة لاستدعاء
معارف المدينة فلم يتوجه إليه أى شخص ولم يعامله أى منهم باحترام
وتقدير، فقتل جميع الناس الذين لقيهم على باب المدينة مبالغة فى الانتقام

(١) هذان البيتان نسبهما الثعالبي فى يتيمة الدهر جـ ٢ ص ١١٨ إلى ابن الحسن محمد بن حمد المعروف بابن
لنكك البصرى- القزوينى.

والشقي، ومضى مع الجماعة التى كانت فى مصاحبته، وكان الخواجة مهذب الدين باسنادى من تلك الزمرة، ومضى فى مصاحبته حتى وصل إلى بخارى، حيث ترك نائباً، عنه وبقي أرباب مرو هناك، وحينما عاد ضياء الدين دخل المدينة تحت ستار الاستعداد والتجهيز ووزع الغنائم التى كانت معه على المواطنين وأرسل إليهم ابن بهاء الملك قائلاً إنه ابنه. أما هو فلم يتعامل معهم، أعلن العصيان عليهم وعمر القلعة والجدار مرة ثانية واجتمع حوله جمع من الناس، وفى تلك الأثناء وصلت جماعة من المغول رأى من الواجب رعايتهم ومعاملتهم معاملة طيبة وحافظ على بعضهم.

وحينما وصل كشتكين بهلوان من حشم السلطان مع جمع غفير وقام بمحاصرة المدينة أعلن جمع من العامة مخالفته وذهبوا إلى كشتكين وانضموا إليه، وحينما أدرك ضياء الدين أنه لا يمكن إنجاز أى عمل ما مع اختلاف الآراء والأهواء اتجه مع جماعة المغول التى كانت ملازمة له إلى قلعة مرغة، ودخل كشتكين المدينة وأراد أن يضع أساساً جديداً للتعمير وتطوير الزراعة فأقام سداً للمدينة. أرسل جماعة من المواطنين خطاباً فى الخفاء إلى ضياء الدين حرضوه فيه على العودة إلى المدينة وشجعوه على ذلك، فلما عاد ونزل إلى بوابة المدينة دخل واحد من خدمه إليها وأخبر أحد الناس بوصول ضياء الدين فوصل هذا الخبر فى الحال إلى سمع كشتكين وخصومه فأرسلوا جماعة قبضت عليه فطالبه بالمال فقال ضياء الدين: لقد أعطيتها للفاحشات. فسأله: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الأبطال والتقات الذين اصطفوا أمامك الآن هم من اصطفوا أمامى من قبل وحينما دقت ساعة العمل تخلوا عني وتركوني وعلقوا سمات الغدر على نواصيهم. وحينما علم أنه لا فائدة من وراء ضياء الدين ولا طائل منه ولا مال عنده أدرك كشتكين أن حياته تكمن فى قتل ضياء الدين وظن أن فناءه بقاء لملكه... هداً خاطره واستراح باله بعد وفاته وتوجه للتعمير والزراعة ورحم مجرى النهر وأصلحه وأقام سداً للنهر وكانت مياه آبار البوار قد خربت عمره وأغرقت ماء حياته فى بئر بواره، وفى أثناء تلك الغفلة وصل إليه خبر وصول قراجه نوين إلى

سرخس مع ألف فارس من الأبطال فادار له ظهره مع ألف فارس من الأبطال تحت جناح الليل متخذاً طرق سنك بست فمضى قراجة فى أثره ولحق به فى سنكبشت وقتل غالبيتهم، بينما بقى نوابه لتولى أمور الحكم فى مرو، وبعد ثلاثة أو أربعة أيام وصل إلى مرو مائتان من فرسانه كانوا متوجهين نحو قنفونوين فسار نصفهم لقضاء المصلحة التى كان قد كلف بها واشتغل نصفهم الآخر بمحاصرة المدينة، وأرسل رسلهم على الفور إلى سكان مرو فى نخشب بغرض وصول جيش ترباي وقبار على الفور .

وكان الغرباء المقيمون فى الزوايا والأطراف فى الولايات والأطراف البعيدة قد ولوا وجوههم شطر مرو لخصوبتها ووفرة نعمتها وألقوا بمواطنيها الذين دافعوا عنها بعقيدة حب الوطن فى غيابة الجب، وفى خلال خمسة أيام وصل ترباي مع خمسة آلاف رجل ومعه همايون سبهسالار القائد الملكى الذى كان يلقب آق ملك واستولى على مرو فى ساعة واحدة وسلسلوا المؤمنين كالجمال المكمة المخرومة وقطروهم عشرة عشرة وعشرين عشرين فى حبل واحد وألقوهم فى طغار من الدم واستشهد منهم ما يزيد عن مائة ألف، وقسموا المحلات على الجيش فخرّبوا أكثر الدور والقصور والمساجد والمعابد، وعاد الأمراء مع الجيش المغولى تاركين آق ملك مع قوة صغيرة من الرجال للقبض على كل شخص تسول له نفسه التمرد، كان قد اختفى وهرب من السيف البتار ولجأ إلى الزوايا فقام بالتجسس والحيل كلما أمكنه ذلك قيام وتحايل رجل لا يخاف الله، فلما أعيته الحيلة انفق مع رجل من أهل نخشب كان موالياً لهم فأذن للصلاة داعياً إليها فخرج لسماع صوته كل شخص كان قد اختبأ فى الجحور فقبضوا عليه وسجنوه فى المدرسة الشهابية، وفى النهاية يلقونه من أعلى المدرسة إلى أسفلها، وبهذه الطريقة هلك كثيرون آخرون. واستمر على مداومة هذا العمل طوال واحدا وأربعين يوماً ثم عاد من حيث أتى ولم يبق فى المدينة بأسرها أكثر من أربعة أشخاص، ونظرا إلى أنه لم يبق بمرو وما يجاورها أى أثر للجيش فقد توجه إليها كل شخص كان قد لجأ إلى قرية من القرى أو سلك سبيل الصحراء، وتولى إمارة مرو مرة أخرى ابن أحد الأمراء ويدعى أرسلان واجتمع حوله العامة من الناس، فلما وصل خبر مرو وما حدث فيها إلى نسا كان هناك

تركمانى فجمع حوله عددا من التراكمة ثم توجه إلى مرو فانضم إليه كثير من المواطنين حتى اجتمع إليه عشرة آلاف رجل، وظل أميرا عليها لمدة ستة أشهر وأرسل قوات إلى مرو الرودو پنج ديه والطالقان لسرقة مئونة المغول وسوق ماشيتهم، وفي تلك الأثناء فإن التركمانى رغبة فى الاستيلاء على نسا توجه إلى هناك مع أكثر قواته وحاصر المدينة التى كان يحكمها نصرت. واستمر فى ذلك حتى سقط عليها فجأة بهلوان من يازر فبدأ فى الهروب، وفى أثناء الطريق لحق به حاكم القلعة وقتله، وفى تلك الأثناء كان قراجة نوين قد أتى من حدود الطالقان قاصدا مهاجمته فوصل إلى مرو فجأة مع ألف من الفرسان والمشاة ومرة أخرى وضع الملح على المحروق وقتل كل من صادفة وأطعم غلالهم للجياذ ووصل فى أثره فتقنونيون مع مائة ألف من الناس فبدأ فى عقابهم والتمثيل بهم ثم بدأ فى مضايقة الخلجيين والغزنويين والأفغان الذين كانوا انضموا إلى الجيش الأمامى عقابا لم ير أحد مثله من قبل، فألقى بعضهم فى النار وقتل بعضهم بتعذيب آخر ولم يبق على أى مخلوق، واستمر على هذا النحو طوال أربعين يوما ثم غادروا المدينة ولم يبق فى المدينة والقرية مائة شخص لم يبق معهم من الطعام ما يفي بحاجة هذا العدد المحدود من الضعفاء، وبالإضافة إلى تلك الحوادث فإن شخصا باسم شاه مع بعض العامة والسفهاء قد بقوا فى الجحور والكهوف. وقتلوا كل ضعيف صادفوه، فتفرق الضعفاء الذين كانوا قد بقوا سوى عشرة أو اثنى عشر من الهنود الذين استقروا فى ذلك المكان منذ عشر سنوات ولم يكن هناك أى ديار فى تلك الديار:

جميع سقاك الله صوب عماد

وعين النوى مكحولة برقاد

وصيرهم شتى بكل بلاد

ليالى مرو الشهاجان وشمئنا

سرقناك من صرف الزمان وريبه

تنبه صرف الدهر فاستحدث النوى

ذكر واقعة نيشابور

إذا كان من الممكن أن تقارن الأرض بالأفلاك، فإن بلادها بمثابة
النجوم لها، فإن نيشابور هي زهرة السماء بين كواكب الزهرة، وإذا مثلت
بالنفس البشرية فإنها من الممكن أن تكون عين الإنسان لما تتمتع به من
نفاسة وعزة:

وماذا يصنع المرء ببغداد وكوفان
ونيشابور في الأرض كالإنسان في الإنسان^(١)

يا حبذا مدينة نيشابور التي إذا كانت على الأرض جنة كانت هي، فإذا
لم تكن هي لم يكن على ظهر الأرض جنة.

وتوجه السلطان محمد من بلخ قاصدا نيشابور، وقد اضطربت أحواله
واستولى عليه فزع اليوم الأكبر وظهر الخوف والجبن في أقواله، ذلك أن ما
يحدث على وجه الأرض من أمور هو من تأثير الأفلاك، إلا ما تخيلتها
الجبال لحظة واحدة زلزلت أجزاؤها أبد الدهر زلزالها، وانحلت أوصالها.
ضبت على مصائب لو أنها صبت على الأيام صرن لياليا

وتراكت عليه بالإضافة إلى تلك الأحوال حوادث وهمية من أمثال
الرؤى والتفاولات حتى استولى عليه العجز والقصور كلية وعجزت قواه
الفكرية ومخيلته عن التفكير والتدبير واستعمال الحيل.

(١) من أبيات لأبي الحسن محمد بن عيسى الكرجي وكان من نتماء السلطان محمود الغزنوي، ذكرها الثعالبي
في تكملة اليتيمة في حديثه عنه.

وذاث ليلة رأى السلطان فى منامه أجسادا نورانية، شعث الوجوه، شعورهم مبعثرة مغبرة، يتشحون بثياب سوداء كمعزيات ربطن رعوسهن وأخذن فى النواح والعيول، فسألهم: من أنتم؟ فأجابوه: نحن أهل الإسلام وتكشفت له أمور كثيرة".

وفى تلك الأثناء، وبينما كان ذاهبا لزيارة مشهد طوس، رأى فى دهليز ذلك المشهد قطنتين تتعاركان إحداهما ببيضاء والأخرى سوداء تمثلان حاله وحال أعدائه، فتفاعل بهما ووقف ناظرا إليهما، فلما غابت قطة الخصم وقهرت قطته انطلقت منه أهات الحسرة ومضى فى طريقه.

أهاجك والليل ملقى الجران غراب ينوح على غصن بان

يحق لعينيك أن لا تجف دموعهما وهما تقطران

ففى نعبات الغراب اغتراب وفى البان بين بعيد التدانى

ونتيجة لاستيلاء جيوش الهم والغم عليه تحول ليل الشباب إلى صباح الشيوخة وقد ثارت على الكافور من الغالية المسك وغطى الجرب سائر أعضائه لما احتواه فى باطنه من حمى وآلام، فظهرت حبيبات فوق جسده كأنها فقاعات طافية فوق سطح ماء يغلى.

حكى والدى: إن السلطان حينما هُزم، وفى أثناء توجهه من بلخ، صعد ذات يوم إلى ربوة عالية ليستريح من عناء ما حدث، وأخذ يتذكر مفاخر أعماله ويتعجب مما فعله الزمان به، ثم نظر إلى جدك شمس الدين صاحب الديوان وتنهى حسرة وألما وقال: إن الشيوخة والإدبار والصمم قد اجتمعوا وأحاطوا بنا وولى الشباب والإقبال والصحة وأداروا ظهورهم لنا، فما البلمس الشافى لتلك الآلام التى هى ثمالة كأس الزمان؟ ومضى إلى حدود نيشابور كاسف البال حزينا، ودخل المدينة فى الليلة الثانية عشرة من صفر سنة سبع عشرة وستمائة، وكان لشدة خوفه وهله الذى استولى عليه يبث الرعب من

جيش التتار فى قلوب جميع الناس، ويتأسف على تخريب القلاع التى شيدها إبان أيام السعادة والهناء ظناً منه أنها من الممكن أن تكون عوناً له فى وقت المحنة، وكان يحرض الناس على الجلاء ومفارقة البلاد، ويقول: إن كثرة الجموع لا يمكن أن تكون مانعاً ودافعاً لجيش المغول. وحقا إن هؤلاء القوم إذا ما وصلوا إلى هذا المكان الذى هو مفخرة كل البقاع وسكن صدور هذه المملكة فإنهم لن يُبقوا على أحد حياً، ويحصدونهم جميعاً بسيف الفناء، ويقع نساؤكم وأبناؤكم فى ذل الأسر وشرك الهوان، عندئذ لن يكون هناك مفر أو مهرب، فإذا تفرقوا الآن كتبت النجاة لأكثرهم أو القليل منهم، ولما كان جلاء بنى آدم عن أوطانهم - نتيجة حبهم الشديد لأوطانهم - بمثابة خروج الروح من البدن، فقد ذكر الجلاء فى القرآن المجيد فى مقابل العذاب الشديد حيث قال فى محكم آياته وهو أصدق القائلين: "ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا"^(١)، ولما كانت يد الأجل قد أطبقت عليهم وأمسكت بخناقهم وأصبح لها حكمٌ "وهو أقرب إليكم من حبل الوريد" عرضوا عن التفرق، وحين أدرك السلطان أن نصيحته لهم لم تلق أذناً واعية، أمر بترميم السور وتعمير الحائط رغم أنه كان يعلم أن قوة العضد لن تفيد، وتحصين المكان لن يفلح، فاشتغل الناس بتعمير ما أمر، ولم تكن أخبار الجيش المغولى تترى فى تلك الأثناء، بل انكسرت حديثها فظن السلطان أن الجيش المغولى لن يعبر النهر قريباً، ولجأ إلى الهدوء والسكون، وأرسل السلطان جلال الدين إلى بلخ للمحافظة عليها، ولكنه لم يكد يقطع منزلاً واحداً من منازل الطريق حتى سمع بعبور يمه وسبتاي للنهر واقترابهما، فعاد مرة ثانية، أما السلطان - خوفاً من بث اليأس فى النفوس - فقد امتطى صهوة الجواد زاعماً الخروج للصيد، وشق طريقه، وترك أكثر تابعيه هناك.

عنها غضارة هذه النعماء

أيامهن تنقل الأفياء

رحل الأمير محمد فترحلت

والدهر ذو دول تنقل فى الورى

(١) سورة الحشر ، الآية ٣.

فترك فخر الملك نظام الدين أبا المعالى كاتب جامى وضياء الملك عارض زوزنى مع مجير الملك كافى عمر رضى لإدارة نيشابور ورعاية مصالح أهلها بالاتفاق فيما بينهم، وحين غادر السلطان المدينة توجه شرف الدين أمير المجلس - الذى كان خادما، وركنا ركينا من أركان السلطان - من خوارزم إلى نيشابور حيث عُيِّن حاكما عليها.

ولكنه بعد أن قطع ثلاثة منازل من الطريق أدركته المنية، فأخفوا خبر وفاته حتى لا يسرق الغلمان خزانته وأمواله. خرج مجير الملك مع جيش متعللا باستقباله، وأحضرهم إلى المدينة، ولكن الغلمان رغبوا عن الإقامة بها ومضوا فى أثر السلطان، وفى اليوم التالى وكان التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة وستمائة وصل طايسى مقدمة جيش يمه وسبتاي إلى المدينة، فساق منهم أربعة عشر فارسا، ساقوا أمامهم قطعانا من الجمال، وسمعوا بخبر غلمان شرف الدين، فعدا بعض الفرسان فى أثرهم، ولحقوا بهم على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة، فقتلوه جميعا وكانوا ما يقرب من ألف فارس، وجدّوا فى البحث عن أحوال السلطان سائلين كل شخص صادفوه، مستخدمين فى سبيل ذلك شتى صنوف العذاب والإيلام، ودعوا أرباب المدينة للاستسلام فأجابهم مجير الملك قائلا: إني حاكم هذه المدينة من قبل السلطان وإني رجل هرم ومن أهل القلم، وأنتم ذاهبون فى أثر السلطان فانطلقوا إليه، فإن أدركتموه ، وانتصرتم عليه، فالملك لكم، وأنا عبد لكم.

وأعطوا الجند ما يلزمهم فى ذلك اليوم من طعام، ثم انصرفت تلك الجماعة، وكان الجيش يصل يوما بعد آخر، يأخذ مئونته ثم يرحل حتى وصل يمه فى غرة ربيع الآخر استحضر القاضى وشيخ الإسلام والوزير حتى يرتبأ لهم ما يلزمهم من مئونة وخدمات، فأرسلوا إليه ثلاثة أشخاص من أواسط الناس فى هذه الأثناء فأعطاهم خطابا مكتوبا بالخط الأويغورى وأوصاهم بتقديم الطعام لكل شخص يصل إليهم، وأن ينقصوا الجدر ثم انصرف.

وتركوا جمالهم في كل موضع أعلن الاستسلام لهم وتركوا شحنة عليه من قبلهم، ونظروا إلى أن الجيش المغولي فترت همته قليلا وأصبح سيره وثيدا فقد شاعت الأراجيف وذاعت مرردة خبر انتصار السلطان في العراق، ووضع الشيطان الوسواس بيضة الخلاف في رعوس الناس، فأرسل شحنة طوس - الذي عينه المغول - الرسائل عدة مرات إلى شادياخ طالبا الاستسلام ونبذ أحاديث الخصام.

كانوا يجيبونه إجابات قاسية، وفي تلك الأثناء فإن قائد الجيش الأمامي الذي جُمع من طوس الملقب بسراج الدين، وهو أخرق يبعد عنه العقل بمقدار ألف فرسخ، قتل الشحنة الذي كان عليهم وأرسل رأسه إلى نيشابور، ولم يعلموا أن قتل ذلك الرأس قد تسبب في قطع رقاب الكثيرين وأثارا شرا مستطيرا من غفلته، وكما يقولون "شرُّ أهرُّ ذو ناب".

هرب سيد بوتراب - الذي عينه سيده على سادة طوس - إلى أسنوا خوفا من أرباب طوس وقادتها، وأخبر قشتمور - الذي تركوه مع ثلاثمائة فارس للإشراف على الدواب - بقتل الشحنة والثورة التي اندلعت، فأرسل رسولا إلى الأمراء لإخبارهم بما حدث، وتوجه من أسنوا إلى طوس مع ثلاثمائة فارس وهاجم سراج الدين - الذي كان قد تولى الإمارة في طوس وبجانبه ثلاثة آلاف رجل - فجأة فقتل أكثرهم وخرب قلاع المدينة قبل أن يصل الجيش الكبير، وحين وصل تغاجار كوركان^(١) - وكان صهر جنكيز خان - ومعه الأمراء الكبار على رأس قوة تضم عشرة آلاف رجل كمقدمة لجيش "تولى" أسرعوا في سيرهم حتى وصلوا إلى نيشابور في أواسط شهر رمضان.

ولكن أهل نيشابور أعجبتهم كثرتهم، وغرهم عدد الجيش المغولي القليل فلم يمعنوا النظر في أمرهم وخرجوا إلى المغول وقاتلوهم حيث تقفهم.

(١) كوركان بمعنى صهر - حاشية القزويني، صفحة ١٣٧.

ونظرا إلى أنهم قد يؤسوا من الحياة فقد صار عوا الأسد ، وركبوا تهكما
وسخرية مع التماسح فى سفينة، حتى إذا حل اليوم الثالث اشتد وطيس القتال
من ناحية برج قراقوش وانهالت السهام الدائرية وسهام القضاء من الحائط
والسور، ولسوء الحظ، ولهلاك الناس جميعا، انطلق أحد السهام فأصاب
تغاجار فى مقتلته فأرداه قتيلا، وفرغ أهل مدينته من أمره ولم يعرفوا بأمر
مقتله.

وحين انسحب الجيش وقام مقامه توركاى نوين^(١) قسم الجيش قسمين
وتوجه بنفسه إلى سبزاور، واستولى عليها بعد قتال عنيف استمر ثلاثة أيام
بلياليها وقتل جميع من فيها، حتى قدر من دفن منهم تحت أديم الأرض
بسبعين ألفا من البشر، وتوجه نصف الجيش الآخر إلى طوس لمعاونة
قشتمور، ففتح بقية القلاع التى عجز جيش قشتمور عن فتحها.

وعلى الرغم مما أبداه أرباب نوقان وقار^(٢) من مقاومة عنيفة وشجاعة
فائقة، فقد تمكن فى النهاية من الاستيلاء على المدينتين، وقتل جميع سكانهما
وتم الاستيلاء على نوقان وسمرقند فى الثامن والعشرين من شهر رمضان^(٣)
وقتل جميع من فيهما.

وكان أهالى نيشابور يعلنون التمرد والعصيان وكانوا يرسلون جماعة
من الرعاى للقبض على أية فرقة من الجيش المغولى تظهر فى أى مكان.
وارتفعت أسعار الأشياء فى نيشابور فى ذلك الشتاء، ومنع المواطنون
من الخروج ولهذا أصاب الناس قحط شديد وأصبحوا مستضعفين أذلاء.

(١) يذكره بارتوك Bwrakay ويذكره النوى Borke وذكر هودلس yerke p. 175/ Boyle.

(٢) يذكر Boyle أننا من الجائز أن نقرأ قار Fash أو Faz وهى بلدة وك بها الفردوسى.

(٣) الموافق ١٦ من نوفمبر سنة ١٢٠١.

وحينما حل ربيع سنة ثمانى عشرة وستمئة وفرغ تولى من أمر مرو توجه إلى نيشابور دون أن يعلم أحد بقدمه، وأعد جيشا كثيفا أرسله إلى ولاية طوس فتمكن من الاستيلاء على جميع قراها دفعة واحدة، وقتل كل من نجا من حد السيف من المواطنين والحقهم بأخوانهم.

وأرسل فى المقدمة جيشا جرّاراً إلى شاد ياخ مجهزاً بالآلات المنجنيق والأسلحة، ومع أن نيشابور منطقة جبلية فإنهم حملوا حجارة من مناطق تبعد عنها عدة منازل وأحضرها معهم، وجمعوها فى أكوام وتلال كأكوام المحاصيل ولم يُستخدم عُشرها فى القذف والرمى.

وحينما رأى أهالى نيشابور أن الأمر جد وأن هذا القوم ليس كمن رأوا من قبل، ومع أنهم كانوا يمتلكون ثلاثة آلاف آله من السهام المعدة للعمل فوق الجدار، ونصبوا ثلاثمائة من المنجنيق وآلات القذف وجهازها بما يلزمها من أسلحة ونفط، فقد اضمحلت قوتهم ووهنت عزائمهم وأصابهم الهلع وعجزوا عن فعل أى شىء سوى إرسال قاضى الممالك ركن الدين على بن إبراهيم المغيشى إلى تولى، فلما وصل إليه طلب الأمان لأهل نيشابور وقبّل دفع الجزية، ولكن هيهات أن يجاب مطلبه، فقد ضاعت أقواله سدى ولم يُسمح له بالعودة كذلك.

وفى يوم الأربعاء الثانى عشر من شهر صفر ملأوا كأس الصبوح على الصباح بالحرب والقتال، واستمر الحال فى هذا المنوال حتى صلاة الجمعة فاشتد وطيسها وحمل أوارها، وكان المغول فى أثناء ذلك قد أطموا الخندق فى عدة مواضع، وأحدثوا بالجدار تصدعا، ونظروا إلى أن الحرب كانت ضارية على بوابة الجمالة وبرج قراقوش، وكان بجوارهما كثير من رجال الحرب الأشداء، فقد رفع المغول علمهم على جدار سركوشك، وصعد الجيش المغولى ودخلوا فى حرب مع الرجال الذين كانوا فوق الجدار بينما دخل جيش آخر من بوابة "شتربانان" الجمالة.

واستمروا طوال اليوم حتى المساء يصعدون الجدر ويبعدون الناس عنها، حتى إذا ما حل مساء السبت امتلأ الحائط والفصيل بالجنود المغول، وفي هذا اليوم وصل تولى على بعد ثلاثة فراسخ من جنكيز، فدخل الجنود من البوابات وبدأوا أعمال القتل والنهب، وكان أهالي المدينة المختفون فى الدور والقصور والزوايا يحاربونهم، وطلب المغول مجير الملك وجدّوا فى البحث عنه حتى أخرجوه من أحد الملاجئ، وحتى لا يخرجوه من ربة الأحياء سريعا فقد حدثوه حديثا قاسيا ألما حيث يميتونه ذليلا كسيرا مهيبض الجناح.

وساقوا من بقى من الناس رجالا ونساء إلى الصحراء وأمروا انتقاما لتفاجار بأن يخربوا المدينة فتركوها أرضا صالحة للزراعة، ولم يتركوا بها ديارا أو نفسا ينبض بالحياة حتى الكلاب والقطط، كل هذا قصاصا لمقتله.

ودخلت ابنة جنكيز - وكانت زوجة لتفاجار - إلى المدينة مع فرسانها وقضوا على كل شخص كان قد بقى حيا بها سوى أربعمئة فرد من المهنيين فقد أخرجوهم وحملوهم إلى تركستان، ويوجد الآن من نسلهم بعض الأبناء، وفصلوا رعوس القتلى عن أجسادهم ثم جلسوا وفصلوا الرجال عن النساء عن الأولاد.

وحين عزم تولى على الذهاب إلى هراة، ترك عليها أميرا مع أربعة^(١) من التاجيك حتى يلحقوا من يحدوه حيا بالسابقين، وأقاموا الولائم للذئاب والذئاب من صدور الصدور والأعيان، وعيئت الصقور على قمم الجبال بلحوم الغيد الحسان، ورتبت النسور الولائم والاحتفالات من نحور الحور.

(١) فى النسخة أربعمئة.

فكانهم كانوا لها أرواحا

ماتت لفقد الظاعنين ديارهم

تساوت الأماكن والمساكن بالثرى، وأطرق كل إيوان كان يطاول
السماء علوًا وارتفاعًا رأسه ذلة وخضوعًا وابتعدت الدور عن العمارة
والسرور، وأصبحت القصور بعد العز والإباء ذليلة في أحضان القبور
والهوان، وصار الحمام موقدًا وتنوراء، وأضحت صفوف البقاع قاعا صفصفا.
بنى استعبده الحادثات فأصبحت خواشع تعداد السجود رباه
وعهدى به كالمندل الرطب عوده يبيسا، وكالمسك السحيق ثراه

ذكر جلوس سلطان العالم قاً آن على عرش المملكة وتوأييه مقاليد السلطة

حين امتحن الحق - تقدست أسماؤه وعظمت نعمائه - عباده بدلالة
الآية الكريمة" ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال
والأنفس والثمرات" (١) وصهرهم فى بوتقة تجربة العناء والبلاء...

إنك نقذف بى فى نار البلاء كالطين، وتختبرنى على حجر الامتحان
كالذهب، ونال كل واحد منهم جزاءه نكالا حسب خبث فعالة، وتذوق كل
واحد منهم شرابا وببلا جزاء لسوء أعماله ورجس خصاله، وشرب كأس
"جزاء سيئة بمثلها" (٢)...

وطبقا لما هو مقرر بأن لكل أمر غاية، ولكل بداية نهاية، وإذا تم أمر
دنا نقصه، وقال عليه الصلاة والسلام: لن يغلب عسر يسرين...

نتيجة لهذا كله فقد وجب عقلا ونقلا أن تفتح من جديد خزائن رحمة
البارئ جل جلاله، وأن تعم من جديد أسباب الرفاهية والراحة عباده، وأن
تسبق نعائم بره ورحمته الواسعة أنواع عذابه وعقابه، وفقا للحديث القدسى:
"سبقت رحمتى غضبى"، وأن تلحق أولياتها بأخرياتها.

حينما أصل إلى فترة اليأس من عمرى ويحمل جسدى أحمالا من الذنوب
فإنى لن أياس من رحمة الخالق، فذرة واحدة من رحمته تصل الخلائق جميعا
وتغسل ذنوبهم.

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٥.

(٢) سورة يونس: الآية ٢٧.

ويظهر أثر ذلك بالتدرج وتتضح سماتها، وتشيب هذه المعاني وتركيب هذه المباني منبئ بالحديث عن انتقال الملك إلى ملك ملوك وسلاطين العالم أوكتاي قا آن ومنكوقا آن، وطبقا للترتيب والولاء فسأبدأ أولا بالحديث عن جلوس قا آن وسألتزم في ذلك أسلوب الإيجاز والاختصار، حتى لا تنتهم الجماعة التي تتكرم بمطالعة هذه الكتاب مؤلف هذه الحكايات بأنه ترثار مكثار، ويقفوا على الهدف من ثبثها وذكرها، ويعلموا كيف ضبط القا آن الأمور ورعى صالح الجمهور وكيف عامل الأقاليم الأخرى التي توقفت بين اليأس والرجاء، وكيف أخضع بعضها بالتخويف والوعيد والأخرى بالإيناس والترغيب، فانتقادت لحكمه وأذعنت لأمره وانضوت تحت سلطانه، وكيف أقام منكوقا آن - بعد وفاة أوكتاي - صرح العدل بعد ما أصابه من ميل وانحراف وكيف رفع لواءه وشيده، منحه الحق تعالى توفيق الصدق وصواب الكرامة.

كان اسم القا آن قبل توليه مقاليد السلطة هو أوكتاي، وكان جنكيز خان قد استدل من أفعاله ونوادر أقواله على استعداده للحكم والعرش وإدارة الجيش، وكان ينظر بإعجاب إلى قدرته على حل الأمور وعقدها ورتق الأمور وفتقها، ويوما بعد يوم ظهرت آثار شهامته وصرامته في إدارة دفة أمور الدولة فكان جنكيز خان يتنبأ بقدرته على حفظ الدولة وصونها من يد أعدائها وتفرس فيه تلك المقدرة، فكان يجد وكان يغرس بذرة تلك المصلحة في أعماق ضمائر كل واحد من أبنائه.

حتى إذا ما رجع جنكيز خان من الممالك الغربية إلى مخيمه الشرقي القديم، وتوجه من هناك إلى ولاية التتجوت^(١)، وبعد أن طهر تلك النواحي من شر الأعداء واستسلمت له قيادتها وسلس قيادها له، زادت عليه وقت

(١) ينكر جورسيه Gorousse صفحة ٣٠٩ أنه توجه لمحاربتهم لتقاسمهم في إمداده بالجيش اللازمة له في أثناء حروبه مع الدولة الخوارزمية، وأشار التاريخ السري للمغول إلى ذلك فقال إن أحد الأشراف التتجوت قد رد على طلب جنكيز بقوله: لو أن جنكيز لم يعد بملك الفترة التي تلزمه للحرب فهو لا يستحق الملك.

انصرافه وطأة المرض الذى داهمه نتيجة عفونة الجو فى تلك الأنحاء واستفحل خطره وأصبح علاجه ميئوسا منه، فاستدعى إليه أبناءه جغتای وأوكتای وألغ نوین^(١) وكلكان وجورجتای وأورجان^(٢)، وقال: " لقد تجاوز المرض الحد الذى يمكن فيه معالجته، وفى الحقيقة يجب على واحد منكم أن يحافظ على العرش ويمسك بناصية السلطة، ويقبض على يد الملك، وأن يرفع القاعدة التى أحكم بناء أساسها".

يكفيه إن نحن متنا أن يسب بنا وهو إذا ذكر الآباء يكفينا

ذلك أنه إذا كان الأبناء جميعا يريدون أن يكونوا ملوكا وحكاما ولا يريد آخر أن يكون محكوما يكون مثلهم كمثل التتين ذى الرأس الواحدة، والآخر المتعدد الرعوس التى جرى ذكرها فى أول الكتاب.

فلما فرغ من أمر هذه الكلمات والنصائح التى تنظم أمورهم وتتفد أوامرهم - على النحو الذى سبق- نهض الأبناء المذكورون وجثو على ركبهم وقالوا:

الوالد^(٣) هو السلطان ونحن عبيده، وقد أحنينا الرعوس إذعانا لحكمك وامتنالا لأمرك ورأيك.

عندئذ قال جنكيز خان: "إذا كنتم راغبين فى أن تعيشوا فى نعيم ودلال وتمضوا حياتكم فى عز وهناء وتمتعوا بالملك، فرأى الذى أسمعته لكم الآن هو أن يخلفنى أوكتای على عرش السلطة لما يتميز به بينكم من راحة عقل وصواب رأى، كما أنه يستطيع بيمين رأيه وحسن تدبيره أن يرعى الجيش والرعية ويحافظ على ثغور المملكة.

(١) لقب تولى خان - حاشية القزوينى.

(٢) أورجتای، مع حذف حرف القاف، وحذف حرف الحلق الذى بالوسط قاعدة مطردة فى اللغة المغولية.

(٣) الشاهنامه، الفردوسى.

ولهذا كله فإني أعينه وليا للعهد خلفا لى، وأضع مقاليد الحكم فى قبضته الصارمة وكفاءته النادرة، فما رأيكم أيها الأبناء فى هذه الفكرة؟".

فجثوا على ركبهم مرة أخرى مقرين ومذعنين وأجابوا بالطاعة والقبول قائلين: "من يستطيع الاعتراض على قول جنكيز خان؟ ومن له القدرة على الرد عليه.

فتح الفلك السبعين، وأرهف الزمان الأسماع

استعدادا لتنفيذ كل حكم يقره رأيك ويأمر به

وصلاح أمورنا وأمور حشمنا منوط بتنفيذ رأى الذى يقره جنكيز خان، وصواب الأمور مفوض باتباع إشاراته".

فقال جنكيز خان: إذا كانت النية موافقة للقول وما يقر به اللسان وينهج به مطابقا لما يحتويه القلب بين ثناياه فيجب أن تقرروا وتعرفوا كتابة باختياركم أوكتاي سلطانا عليكم من بعدى، وأن يكون حكمه نافذا وساريا بينكم سريان الروح فى الجسد، وأن لا تغيروا أو تعدلوا شيئا مما تقررون به اليوم أمامى، ومن المصلحة أن لا تحيدوا عن رأى.

فامتثل جميع إخوة أوكتاي للأمر وأقروه كتابة... وتوفى فى الرابع من رمضان سنة أربع وعشرين وستمائة^(١) بعد أن اشتدت وطأة المرض عليه وتغذر عليه النهوض من مقامه.

تحرك الأبناء كل إلى موضع إقامته عاقدين العزم على الاجتماع فى العام الجديد ذلك الاجتماع الذى يسمونه باللغة المغولية قوريلتاي، ووصل كل منهم إلى معسكره واستعدوا لهذا الاجتماع الكبير ، قوريلتاي ، فلما انكسرت حدة برودة الهواء وخفت شدة البرد وتحسن طقس البقاع والرباع لهبوب نسيم الصبأ وأضحى الجو جميلا والنسيم عليلا وزينت ريح الصبأ دار الدنيا بالخضرة واكتسى وجه الأرض ببساط سندسى...

(١) يذكر Grousset أنه مات فى هذا التاريخ الموافق ١٨ من أغسطس سنة ١٢٢٧، وينقل عن بليو رأيه القائل إنه بهذا يكون قد مات فى الستين من عمره، ويضيف أنه توفى قبل أن تسقط عاصمة التتقوت، صفحة ٣٠٩.

أضحت الدنيا نموذجاً لجنة العقبي وريح الصبا بتحقيق معجزة إحياء الأرض بعد موتها، وتكون قد سرقت جميع معجزات عيسى عليه السلام.

وأرسل الأبناء السابق ذكرهم والأقرباء الرسل تترى لنشر خبر وفاة جنكيز خان في أطراف العالم فشاع الخبر ، وأشاروا إلى ضرورة عقد اجتماع كبير لبحث حالة البلاد خشية أن يقع فيها ما يسىء إليها ويشيع الخلل والاضطراب في أوصالها وحتى يقرروا ما فيه مصلحة المملكة فتحرك كل واحد من معسكره ومضوا لحضور القوريلتاي، فوصل من ناحية القفجاق^(١) الأبناء توشي وهردو وباتو وشييقان وتكوت وبركة وبركجار وتغاتيور.

وتوجه جغتاي من قناس، وأوكتاي من إيميل قوناق، ووصل من ناحية المشرق أعمامهم أوتكين وبيلكتاي نوين^(٢) وإيلجنای نوين ويكو Yeku ويسونيج Yesungei^(٣)، ووصل كبار الأمراء وصغارهم من كل ناحية كانوا فيها.

وأما ألغ نوين^(٤) وإخوته الصغار فقد كانوا في معسكر جنكيز خان.

اجتمعت الجماعة السابق ذكرها بتمامها في ذلك المعسكر المقام بكرلان، ولما كانت الدنيا قد أضحت ضاحكة لحلول الشمس في منزل الحمل، وبكى الهواء من خلال عين السحاب المدرار...

ورد الربيع بحسنه وبهائه فحكى هوى العشاق طيب هوائه

وتفتحت الرياحين والورود في الخمانل، وتغزلت الفاختات طيب هوائه

(١) ينكر Boyle أنهم من الأتراك وقد سيطروا على مناطق الإستيس في جنوب روسيا لمدة ٢٠٠ عام قبل الغزو المغولي The history of the world conqueror p. 183، وكان القفجاق في نزاعهم مع المغول قد استعانوا بالروس وكانت بينهم مصاهرة فكان هناك جيش روسي مكون من ٨٠ ألف جندي روسي على مقربة من المعارك Grousset p. 308.

(٢) الأخ الخامس لجنكيز خان -جامع التواريخ ج ٢ صفحة ١٠٠.

(٣) في نص القزويني الاسمان غير واضحين فنقلتهما عن Boyle.

(٤) لقب تولى بن جنكيز خان.

وغنى الحمام وشدت البلابل بمائة من الأنغام والأغنيات بألف من الألحان
إعجابا بالخمائل والجنات ومدحا لها.

والآن يجب أن نحتسى خمرا سائغا شرابها، فرائحة المسك تتبعث من
النهر.

وامتلأ الهواء بالصراخ والأرض بالحركة والاضطراب، وسعيد ذلك
القلب الذى ينعم بالشراب، واجتمع أبناء الإمبراطور وكبار الأمراء
وصغارهم، مع جيش كثيف ضاقت بهم الأرض بما رحبت واكتظت بهم
الصحراء وعجزت مع اتساعها عن احتوائهم.

إذا خاض بحرا لم يبقَ صدوره لإعجازه فى البحر بغية شارب
وإن رام برا لم يدع سرعانه لساقية فى البر وقفة راكب

وأقاموا فى بداية الأمر الاحتفالات والولائم التى استمرت ثلاثة أيام بلياليها
قضوها جميعا فى فرح وسرور مبرأة ضمائهم وسرائرهم من شوائب الغل
والحسد.

وجنوا زهرة التصايب وأدنوا شجر الوصل يانع الثمرات
فى محل سقوا به رغد العي ش وعز الهوى وطيب الحياة

وبعد عدة أيام تحدثوا فى أمور الملك وناقشوا وصية جنكيز خان،
وأعادوا الاطلاع على الوثيقة التى كان الأبناء قد كتبوها ثم أقرروا لأوكتاي
بالسلطة وأقرروا تلك المصلحة، واتفق الأبناء جميعا اتفاقا لا يشوبه خبت أو
نفاق وقالوا لأوكتاي: إنك امتثالا لأمر جنكيز خان، والمؤيد بالعون الإلهى،
يجب أن تحكم القبضة على السلطة - تضع القدم فوق يد السلطة - حتى
تخضع لك جميع الرقاب وتقر لك بالانقياد والطاعة، وتمثل العين والأذن
لإشارتك وتصبح رهن أوامرك.

فأجاب أوكتاي: "مع أن كل ما أمر به جنكيز قد نفذ فإن هناك الأخ
الأكبر والأعمام الذين هم أكثر استحقاقا منى بهذا العمل والتزاما بهذا الأمر.

وطبقا لقانون المغول فإن الابن الأصغر من البيت الأكبر هو القائم مقام والده ووريثه فى الحكم ، وألغ نوين هو الابن الأصغر من المعسكر الكبير، وكان ملازما لجنكيز خان ليلا ونهارا فى كل وقت وحين صباحا ومساء ورأى وسمع هذه العادات والقوانين ويعلم كيف تولى مقاليد السلطة على الرغم من وجودهم وحضورهم".

وأمضوا فى ذلك اليوم حتى المساء فى تشاور تغلفه الغبطة والسرور واستمروا على هذا النحو أربعين يوما يرتدون فى كل يوم ثوبا جديدا ذا لون مختلف ويشربون كنوس الخمر، وكانوا يبحثون أمور الملك فى أثناء ذلك وكان أوكتاى يلتزم بهذه المعانى فى كل يوم ويكررها فى عبارة دقيقة... وحينما انتهت الأيام الأربعون وتبسهم ثغر يوم الحادى والأربعين وأشرق صباحه...

حينما أشرق الصباح بالقال الحسن ، وارتفع علم الدنيا المضىء

وتكشر وجه الحبشى وتقطب جبينه وخرجت مرآة العين من العين

وانتظمت عقود اجتماع الأمراء والأحرار والعبيد، واستقامت أمور الاحتفال وأقبل الأمراء عن بكرة أبيهم متفقين صوب أوكتاى وقالوا: إن جنكيز خان قد فوض إليك هذا الأمر من بين الأبناء والإخوة، وأوكل إليك النظر فى حل الأمور وعقدها وأناط برأيك نقضها وإبرامها، فكيف يتسنى لنا إجراء تغيير أو تبديل فى هذا القول؟ وكيف نجيز لأنفسنا نقضه؟ واليوم بإجماع المنجمين ورجال الدين الشامانى^(١) يوم مسعود ، ووقت مبارك ومحمود، فيجب عليك أن نتبوا مكانك على العرش بعون البارئ عز اسمه، وأن تزين الدنيا بالعدل والإنصاف وحميد الأعمال.

(١) لقامان رجل الدين الشامانى الذى يعرف السحر، وقد عاشت الشامانية بين المغول قبل عصر جنكيز خان وبعده. ويقول Bawden : ومن المؤكد أن الشامانية ما زالت موجودة بين المغول حتى يومنا هذا .

وبعد إلحاح من جانب الأمراء والأعمام وإعراض وصدود من ناحية أوكتاي رأى من الواجب الالتزام بما أوصى به والده وأقره الإخوة والأعمام. وطبقا لعاداتهم القديمة فقد رفعوا قلائسهم من فوق رؤوسهم وقذفوها خلف ظهورهم، وفي سنة ٦٢٦ أمسك جغتاي بيده اليمنى وأوتكين بيده اليسرى وأجلسوه على سرير السلطة مؤيدا بالحظ الشاب السعيد وبرأى الشيخ المجرب السديد، وأخذ ألغ نوبين كأسا طاف بها ثلاث مرات على جميع الحاضرين داخل الحضرة وخارجها، الذين جنوا على ركبهم ضارعين داعين له قائلين: بارك الله ملكه بحكمه وسلطته.

وإذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا
وتزیدین أطیب الطیب طيبا أن تمسيه أين مثلك أيننا؟!

وأسموه القا آن، ووفقا للمألوف من عاداتهم فقد ركع الأمراء للشمس ثلاث مرات خارج المعسكر خضوعا للقا آن وتعظيما له، ثم عادوا إلى داخل المعسكر مرة أخرى وعقدوا مجالس الطرب واللهو، وشذبوا ميادين النشاط من أشواك الوحشة والبغضاء.

ارتقى السلطان مالك العالم سلم الحظ السعيد مؤيدا موقفا ودخل الأمراء الحضرة السلطانية عظماء كالجوزاء قبل شروق الشمس بعظمتها واقتدارها، وعلى يسار كل واحد منهم حسناء فائقة ذات ملاحه ويسار كأنهن الأزهار لفرط ما ينعمن به من طراوة ونضارة وكأنهن لما ظهرن به من لطافة ونظافة خضرة الربيع السندية.

ووجهها الذى يشبه روضة الورود، ربيع عالم الروح

ووجهها كبستان، جعل رقبتة صبرا وضافته كالدرع

وحاجبها الذى يشبه الكمان هلال وجه السماء

وذؤابتها التى تنفث العنبر جمال وجه الحسن

وكل شخص شاهد ذلك المجلس أخذته الدهشة واستولى عليه العجب العجاب لكثرة ما رآه من حور وولدان، ووفير الخمر والألبان، وكان لفرط دهشته يقول: إذا كان هذا هو الحال فكيف تكون جنة الخلد؟ ويستطيع الإنسان أن يعرف عظمة جنة الخلد إذا قيست بتلك.

واستضاءت عين الزمان بمكان القا آن، وأضحت الدنيا بنفوذه وسلطانه خالية من الحقد والغضب.

وانتعشت البلاد وأضحى الملك ناضرا فقد توتى الأمور راع مثلك
وثقلت الريح بثبات عزمه ورأيه وخفت الأرض بحلمه وعطفه

وارتوت وترعرعت أشجار الأمن والأمان بعد ما أصابها من ذبول، واستعاد وجه الآمال نضارته ونعومته بعد الذى أصابه من خدشان اليأس والقنوط، وعم النهار سكون الليالى الجميلة ورواؤها، وأضحت الليالى لما نعمت به من أنس نارِ الخمرِ وضياؤها نهارا.

وأمر القا آن بفتح ودائع الخزائن التى جمعت لجنكيز خان قبل ذلك- من بلاد الشرق والغرب، والتى لم تدوّن حصيلتها فى بطون السجلات والدفاتر، وكمم أفواه اللاتمين بالإعراض عن نصيحتهم، وقسموا هذه المبالغ على جميع الأقارب والعساكر والمقانب والعشائر من شريف ووضع، ورئيس ومرعوس، سيد أو غلام، كل بحسب همته وعمله، ولم يترك للغد فى الخزائن شيئا قليلا كان أو كثيرا، ولم يُبق نقيرا أو قطميرا.

ولن يدخرَ الضرغام قوتا ليومه إذا ادخرَ النمل الطعام لعامه

وبعد أن انتهت أمور الاحتفال وفرغ من أمر توزيع الهدايا والهيئات وسيرا على قاعدة "إنا وجدنا آباءنا على أمة"، فقد أمر بإعداد موائد الطعام من أجل روح جنكيز خان ثلاثة أيام متتالية، واختاروا من نسل الأمراء وأبناء الملك الذين كانوا ملازمين لجنكيز خان أربعين من الفتيات الحسنات فانتات الوجوه، لطيفات المنظر جميلات المخبر، رائعات الجمال مليحات

الدلال، ذوات حركات ظريفة وسكنات لطيفة كأنهن اللائىء، و"وعد المتقون"، وأمدوهن بالكثير من الجواهر والحلى والحلل، وألبسوهن أفخر الثياب واختاروا لهن أصيل الجياد وأرسلوهن لروح جنكيز خان.

وحينما فرغ من هذه الأمور بدأ النظر فى أمور الرعية ومناقشة أحوال البلاد، وكان أول أمر سنَّه أن تظل القوانين التى أصدرها جنكيز خان سارية المفعول كما هى وأن تظل بعيدة عن مفاصد التغيير والتبديل وأن تصان من أى خلل. ثم قال: "لقد عفوت وبسطت مهاد الصفح على كل ذنب أو تقصير صدر عن أى شخص ما قبل يوم جلوسى". وكان هذا ردًا على ما تقدم به الهمازون والمشاعون بالنميمة عن كل واحد من الأمراء والحكام فى كل طرف من الأطراف، وإذا أقدم أى شخص على عمل يخالف أحكام الياسا القديمة فسينال ما يستحق من عذاب وعقاب. وبعد إصدار هذه القوانين عين الجيوش لأقاليم العالم، ولم تكن الفتنة والثورة فى خراسان والعراق حتى ذلك الوقت قد هدا أوراهما وخفت حدتها، فقد كان السلطان جلال الدين لا يزال نشيطا يثير المتاعب فسيّر إليه جوزماغون مع عدد من الأمراء على رأس جيش من ثلاثين ألفا من المقاتلين الأشداء وأرسل كوكتاي^(١) وسنتاي بهادر على رأس مثل هذا العدد من الجنود إلى قفجاق وسقسين والبلغار، ومثل ذلك إلى التبت وسلنكاى^(٢).

وعين قوات تزيد عن ذلك أو نقل وقرر أن يتوجه بنفسه ومعه إخوته إلى بلاد الختاي. وسيرد ذكر ذلك بالتفصيل فى عقب هذا حتى تتضح كيفية وأوضاع كل واحد منهم إن شاء الله العزيز.

(١) كوكتاي هو الذى اشترك فى بعثة غازان خان إلى البابا بونيفيس الثامن .

(٢) Singay شمال كوريا أو كوريا الشمالية. المصدر السابق صفحة ١٩٠.

ذكر تحرك سلطان العالم القا آن إلى بلاد الختاي وقتجها

حينما وضعوا التاج الكسروى على رأس سلطان العالم وأجلسوا عروس الملك فى أحضان كفاعته وسيرّ الجيوش إلى إقليم الربع المسكون صمم على الاتجاه بنفسه إلى إقليم الختاي، ومضى إخوته جغتاي وألغ نوين^(١) والأبناء الآخرون فى ركابه مع جيش كثيف من الرجال كأنهم التماسيح حتى بدت الصحراء بجميع أطرافها لما يتخللها من أسلحة ناصعة لامعة وخيول صاهلة متعاركة بحرا متلاطم الأمواج لا يحد البصر طولها أو عرضها ولا يلاحظ الطرف شواطئها وعمقها، صحارى تطاول الهضاب علوا وارتفاعا لما تزخر به من أفواج الكتائب وأمواج البشر، وتلال منهارة تكاد تتساوى بالثرى لكثرة ما وطئتها نعال الفرسان وأرجل الجياد.

يقود الخميس الحر غص به الفلا وأصبح هام الأكم وهو مشدّخ

ووصلوا فى بداية الأمر إلى مدينة يطلقون عليها اسم "خوجا تبوسقين" وحاصروها من شواطئ نهر قراموران.

ومع الحصار الشديد الذى طوقوا به المدينة، فقد أقاموا عدة جدر محصنة أخرى وقاتلوا قتالا عنيفا طوال أربعين يوما، وأخذ رماة السهام من الأتراك، الذين لو أرادوا أن يخيطوا أحداق الأفلاك لفعلوا، يصلولون ويجولون.

وكل سهم صوبوه من مسيرة الشهاب أصاب أهدافه.

وحينما غادروا تلك المدينة، أرسل ألغ نوين وكيوك فى المقدمة مع عشرة آلاف رجل، ومضى هو فى عقبهم فى تؤدة وأناة، وعلم آلتون خان

(١) لقب تولى خان.

حاكم ملك الأقاليم بأمر الجيش المغولي، فأرسل اثنين من قادته هما "قداي رنكو وقمرنكود" مع مائة ألف من أفضل الرجال المصطفين لمواجهةهم، ونظرا إلى أن جيش الختاي كان أكثر قوة وغلبة وجيش المغول أقل عددا فقد أصابه الغرور وحاصر الجيش المغولي والتف حوله حلقة في إثر حلقة وظن أنه سيقوده مطوقا على هذا النحو إلى حاكمهم حتى ينظر حصدهم وصيدهم ويتم هو بنفسه هذا الأمر.

وحينما أدرك ألغ نوين أن نطاق المقاومة قد ضاق عليه، وأنه يستطيع مواجهة ذلك بالمكر والخداع، والحرب خدعة، وأن يطفئ شعلتهم وقديلم برياح الاحتيال والخداع...

كان بين صفوف الجيش المغولي قنقلى، وكان قنقلى خبيرا فى علم الياى^(١) يعنى استعمال حجر المطر^(٢)، فأمر ألغ نوين بإجراء تجارب هذا العلم، وأمر سائر الجنود بارتداء المعاطف الواقية من الأمطار فوق ملابسهم الشتوية، وأن لا يفارقوا ظهور جيادهم طوال ثلاثة أيام بلياليها، واشتغل قنقلى بأمر تجارب الياى، حتى انهزم المطر خلف المغول وازدادت حدته وتبدلت فى اليوم الأخير إلى تلوج صاحبها رياح قارسة باردة، فاستولت الحيرة والدهشة على جيش الختاي لشدة برد الصيف الذى داهمه ولم يحس بمثله فى الشتاء قط، بينما كان جيش المغول يصيح فرحا وانتصارا، حتى إذا ما حل الوقت الذى ظهرت فيه الجوهرة الحمراء، الشمس، فى الصباح وتبين الأبيض من الأسود رأوا جيش الختاي كأنه قطيع من الخراف يضع أحدها رأسه فى ذيل الآخر، وقد تجمعت لشدة برودة الهواء وفرط البرد جماعات وزرافات، وجلسوا كالقنفاذ واضعين رءوسهم بين أرجلهم وغطت الثلوج أسلحتهم "فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية"^(٣).

(١) يذكر Boyle أن الياى هي الكلمة التركية، وأما جادا أوجدا Jada فهي الكلمة المغولية، ويذكر صاحب التاريخ السرى للمغول S143 أن النايماي حاولوا استخدام هذه الطريقة ضد قوات للمغول بقيادة جنكيز خان ولكن العاصفة الثلجية لتى كونوها انقلبت عليهم.

(٢) يقول القزويني فى حاشية ص ١٥٢ إن حجر المطر كما يزعم الترك والمغول نوع من الحجارة له خواص خارقة للعادة، ينتج عن استعمالها واصطكاكها بطريقة خاصة أمطار وتلج ويطلقون على صاحب هذا العلم يايچى وجهه جى ويده جى، وكانت هذه الحكاية شائعة بين أمم الترك والمغول .

(٣) سورة الحاقة الآية ٧.

وترك اليايجى ممارسة علم الياى، وانطلق الجيش المغولى من بين أرجلهم وانقض عليهم انقضاض الصقور على أسراب الحمام، بل الأسود على قطعان الغزلان، وتوجهوا إليهم رافعين رءوسهم وقد اشرايت أعناقهم كرقاب الغزلان، واتسعت حدقات عيونهم كعيون البقر الوحشى، مختالين فى سيرهم خيلاء الطاوس فى مشيته، وأطبقوا عليهم من كل جانب.

وأمسك الصقر بمنقار العنف جناح الحمامة، وحطم الأسد بمخلب القهر رقبة الغزال ولم يلوثوا سيوفهم بدمائهم، بل أرسلوهم بحراهم وهم فوق ظهورهم إلى نار سقر.

فأصبح جسم الجامد القلب منهم بقلب الحديد الجامد القلب ذائبا

وانطلق القائدان المذكوران^(١) ومعهما خمسة آلاف من الرجال هاربين وألقوا أكثرهم فى الماء بسهامه وأحلوهم دار البوار وأسكنوهم باطن الأرض الأسود.

وأما هذان التعيسان اللذان يتقدمان مائة ألف من الجنود كأنهم الشياطين فقد عبرا النهر كالريح المرسله، أما الجيش الذليل الذى كان قد عبر قبل ذلك فقد أشعلوا فيه نار الدمار، وأمر غالبية الجيش بمضاجعتهم مضاجعة قوم لوط ووفقا لما رأوه مناسبا.

إنى ودونك من سمر القنا أجم مرّ الشجاع بها فاتصاع مسنوتا^(٢)

وأقاموا تلا عاليا من الأذن اليمنى لهؤلاء القتلى وأرسلوا الرسل والسفراء إلى حضرة القا آن مبشرين بهذا الفتح، وحينما وصل بدوره مسرعا ولوا وجوهم شطر آلتون خان الذى كان يقيم آنذاك فى مدينة نامكينك^(٣) ففاضل نضالا شديدا لمدة أسبوع.

(١) يقصد قداى رنكو وقمر نكود قائدى جيش آلتون خان .

(٢) من قصيدة لإبراهيم بن عثمان الغزى، وقد مر من قصيدته هذه بيت فى (حاشية القزوينى) .

(٣) ذكرها صاحب التاريخ السرى وهى العاصمة الجنوبية للصين، وتعرف اليوم بـ "كايفونج" .

وحينما علم أن لبنة الحظ قد انهارت وولت وأن أغلب جيشه قتل، دخل مع جماعة من النساء والأبناء الذين كانوا معه إلى أحد البيوت الذى أمر بإحاطته بالأخشاب وأشعلوا فيها النار فاحترق "خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين"^(١)، وحينما دخل المغول المدينة...

مدوا إلى النهب أيديهم وأعينهم وزادهم قلق الأخلاق تثبيتاً^(٢)

فنهبوا وأغاروا وقتلوا خلقاً لا تعد ولا تحصى، وغنموا مغانم شتى وفتحوا عدداً آخر من المدن، وأسروا الكثير من الصغار حسان الوجوه من الرجال والنساء الذين عمرت بهم أطراف العالم، وخربت قلوب الرجال.

وتركوا عزيز يلواج^(٣) فى بلاد الختاي وعاد من هناك منصوراً مؤيداً إلى معسكره وأرسل الجيوش إلى متزى وسلنكاى وغيرهما من بلاد التتقوت والتبت وسو ومغول كما سيجرى ذكر ذلك.

ولكنه خشى تجمع قواده الموالين لوالدته، فلم يتخذ أسلوب الهجوم.

(١) سورة الحج: الآية ١١.

(٢) بيت آخر من قصيدة الغزى المذكورة يصف فيها الترك.

(٣) يقصد محمود يلواج .

الحديث عن (القوريلتاي) - الاجتماع الموسع - الثاني

حين انتهى الملك الحاتمي العطاء المليكى المعاشرة من الاستيلاء على إقليم الختا عاد إلى مقر عرشه سعيداً وأرسل الأمراء أبناء الملك إلى أطراف الربع المسكون.

وحين حققوا كل ما أراده الملك فى كل مكان ذهبوا إليه، فقد اقتضت همته السامية ورأيه السديد أن يستدعى أولاده وأقاربه مرة أخرى وأن يناقش معهم أمور الياسا (قانون جنكيز) والأحكام قديمها وحديثها وأن يبعثوا بالجيوش إلى الممالك التى يرون المصلحة فى فتحها، وأن يحظى جميع الأبناء والجند، الشريف منهم والوضيع، بنصيب من سجل سره ومكرمته الفياضة كمطر الربيع، فأرسل السفراء لاستدعائهم وتحرك كل واحد منهم من محل إقامته وولوا وجوههم شطر حضرته.

وحين كان عام...^(١) فى الوقت الذى كانت فيه الدنيا جنة إرم وأمطرت السماء بسحبها على الأرض وابلاً سخياً سخاء ملك الجود والكرم واكتست الأرض بحلّال مختلف ألوانها وارتوت الأشجار والأغصان بمياه النضارة :

من جَوَّهَرِ الْأَنْوَارِ بِالْأَنْدَاءِ	نَسَجَ الرَّبِيعُ بَرَبْعَهَا دِيْبَاجَةً
فَغَدَّتْ تَبَسُّمٌ عَنْ نُجُومِ سَمَاءِ	بَكَتِ السَّمَاءُ بِهَا رَدَّاذَ دُمُوعِهَا
حَدَّكَ الرَّبِيعُ بِحُلَّةِ صَفْرَاءِ	فِي حُلَّةِ خَضْرَاءِ نَمْتَمَ وَشِيْهَا

(١) نقاط فى المتن الأصلي، عددها أ - للقزوينى بعام ٦٣٢هـ - لأن مملكة الختاي كانت قد فتحت ٦٣١، كما ذكر ذلك رشيد الدين فى كتابه جامع التواريخ ص ٢٦ - ٢٧، حاشية للقزوينى ص ١٥٥.

(قد يكون المراد بـ "حَدَّكَ" الباذرودج وهو الحبق أى الفودنج).

وصل أبناء الملوك إلى حضرته، فتحلقت نجوم الثريا السعيدة حول
البدر المنير وتزين المجلس بأبهى حلله:

جمعوا شملهم بشط الفرات بعد شط النوى وبُعدِ الشَّتات

فأعادوا مرعى النسيب خصيباً ورياض النَّشِيب خُضر النَّبات

كما توافدت جموع الأمراء -نوينان- وأرباب الأشغال وأصحاب
الأعمال، وأحسن ملك العالم استقبالهم، مستقبلاً أولاً إخوته الكبار وأعمامه
وحباهم بالاحتشام والإعزاز والاحترام، وحبا إخوته الصغار وأبناءهم الذين
هم فى منزلة أولاده وأفلاذ أكباده بفنون العطف وفرط الرأفة، واستمر لقاء
الأحبة شهراً كاملاً عمت فيه المحبة والصفاء، ودارت أيدى السعاة بالأقداح
والكنوس صباح مساء غداة وعشاء، قاصدين التمتع من زهرات هذا الزمان
وثمرات الوقت الواهى باستيفاء جميع أنواع الملاهى، وأمضى الحاضرون
جميعهم أياماً عمها الرخاء والسعادة فى ظل كرم الملك صاحب المنزلة
الأولى الإلهية والقدرة العالية قا أن ثم أمر بإنهاء الاجتماع والاستماع لهذه
الرباعية التى سمعوها فى قراقورم.

يا أيام العمر أصدقينى، كم من ملوك الأرض مروا بك

اغتنم أيام عمرك ما استطعت فستمضى تلك الأيام مهما كثرت

وعلى عادة القا أن المعروفة وشيمته المألوفة فتح أبواب خزائنه التى
لم توعد مطلقاً أمام أى شخص، ووزع (نثر) ما جاءه من أموال قد تم
جمعها بعد الاجتماع الأول على جميع الحاضرين من الأقارب والغرباء
صغاراً أو كباراً كما تنتثر الأنواء قطراتها على الكلا والأشجار فى فصل
الربيع.

فاضت بناتك فى النوادى بالندى فاستصرخت غرقاً بنو الغبراء

وعاد التجار وأصحاب الانتجاع وطلاب الأعمال والأشغال من سائر الأطراف ظافرين بتحقيق مقاصدهم ونجاح آمالهم وآربهم، بل وبأضعاف ما كان في ضمائرهم، فكم من فقير أضحى ثريا وكم من مفلس صار غنياً وكم من خامل ذكر صار صاحب مقام عليا! وعلى هذا النحو حين انتهت مراسم الاحتفالات تفرغ الملك للاهتمام بمهام الملك وترتيب الجيوش (الجنود)، ولما كان كثير من الأقاليم لا تزال تلعب برعوسها رياح التمرد والطغيان، عين لكل ناحية من النواحي واحداً من أقاربه، وعزم أن يخرج بنفسه مرة أخرى قائداً للجيوش. وبعد أن استقر الرأي على هذا، ظهر من بين الحضور "مونكا قا آن"، ومع أنه كان في أول مرحلة الشباب فإن عقله ووقاره جعلاه يبدو في مرتبة الشيوخ وأصحاب الخبرة (والمجربين) وقال: نحن الإخوة والأبناء رهن الأمر والإشارة من الملك، ونضع نصب أعيننا وآذاننا، تنفيذ المهمات والتصدى للمعضلات، هادفين أن يسعد الله قلوبنا وأن يلتذ بعيشه وتحقيق مراده، وأن يريح نفسه من عناء الأسفار ومكابدة الأخطار، وإلا ما الفائدة من كثرة الإخوة والأقارب والجند التي لا تحصي؟

ثاناً فلو ج الشمس لا يتحرك

وحين استمع الحاضرون لهذا الكلام على لسان الأمير الأوحـد أيده الأمراء والقاده وامتثلوا لأمره، ونفذ كل واحد منهم المهمة الموكولة إليه، واتجه بجيشه الوجهة المخصصة له شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً.

وإذ كانت أقوام "القفجاق وكلارا" لم تخدم ثورتهم بعد فقد زاد في الاهتمام بأمرهم وعين للقضاء عليهم من الملوك "باتو" و"منكو قا آن" و"كيوك" وسير مع كل واحد منهم جيشاً جرأراً من أبناء التاجيك والترك وحدد لهم بداية الربيع موعداً لتحركهم وعادوا إلى مخيمهم لإتمام الاستعداد لهجومهم والرحيل لملاقاة أعدائهم، في الموعد المحدد.

ولم يول آلقا أن بعد ذلك أى اهتمام بأمر من الأمور واستدعى على الفور العمال والكتبة وعين لكل واحد منهم وجهته من المناطق الحساسة وأغمد السيوف وأوصد الأبواب أمام أقدام الظلم والجور، ويسط يد العدل والعطاء، وأصدر أوامره السلطانية للكتاب لإيصال تلك الأوامر إلى الأطراف المختلفة، طالبا عدم التعرض لأى شخص وأن لا يعتدى القوى على الضعيف، فسكن غبار الفتنة والأحداث وأضحى الناس آمنين وانتشرت وصيته كالنسيم المعطر بريح الشمال فى سائر الأنحاء، وعم عطاؤه وعدله الآفاق كالنسر المعلق:

بَلَدٌ أَقَمْتُ بِهِ وَذَكَرْتُ سَائِرَ يَشْنَأُ الْمَقِيلَ وَيَكْرَهُ التَّعْرِيسَ (١)

وتمثل بجميل حديثه أصحاب (حكام) الأطراف مع رعيته برغبة صادقة، ورأوا سعادتهم فى متابعتة ومطاوعته، ولهذا أكثروا من إرسال الرسل محمّلين بالتحف إلى حضرته وتحدثوا عن عجيب صفاته فى أقاصى البلاد وكان حديثهم عن الملوك السابقين أشبه بالأساطير، وتسابق الخلاق إلى حضرته، ومضت الأيام على هذا النحو حيث الاستمتاع بالاستمتاع للأغنى والاجتماع مع الغوانى والمداومة على احتساء الشراب الأروانى.

ما العمرُ ما طال به الدهور العُمُرُ ما عم به السرور
أيام عزى ونفاد أُمُرِ هى التى أحسبها من عُمُرِ (٢)

واستمر الحال على هذا المنوال طوال باقى العمر حتى هاجمه فجأة فى الخامس من جمادى الآخرة سنة ٦٣٩ تسع وثلاثين وستمائة، هادم اللذات وأصابه سهم الأجل من مكن القضاء.

ها هى دائماً عادة الفلك الداكن حين يفاجئ السعداء بالزوال
فنكدر مشرب الحياة بترابمنية المكدر
إذا حصلت على وردة بلاشوك فاغتم لذة الحياة كلها
فمساكن حياتنا العتيقة هذه جميلة ما لم يعكرها الموت المائل خلف الأبواب

(١) هذا البيت للمتنبى، حاشية المتن ص ١٥٨.

(٢) طردية لأبى فراس، حاشية المتن ص ١٥٨.

ذكر نتائج أعمال الـ "قآن"

منذ أن وضع فى أنمله القادرة خاتم المملكة، كما سبق القول، وأرسل الجيوش إلى الأطراف والأقطار وعادت بعد أن ظهرت أكثر الأقاليم من المخالفين، وشنفت أعماله وأقلايص عدله وإحسانه الآذان، وقلدت أياديه وعوارفه الأيدي والسواعد كالسوار، غدا بلاطه ملاذا للعلماء وأضحت حضرته سكنا ومأوى للعالمين، وأضاءت أنوار صباح عدله بعده منيرة بلا غبار وبلغت مساحة مملكته ممتدة من أقصى ديار الصين والماجين حتى أقصى بلاد الشام، وعم جوده جميع الخلائق دون انتظار لعام أو لشهر، وكان وجوده وجود جوادى (فرسى) رهان، وذاته وثباته رضيعا لباناء، فتلاشى بكرمه فى أيامه كرم حاتم الطائى، وأضحى حلم أحنف بالنسبة إلى حلمه لا شيء وأصبحت الدنيا فى عهده دنيا راحة وأمان، وأطاعت له صعاب الفلك، وغدت خانية فى زمانه...

كان قويا خضعت له الجياد الجامعة وعاشت هادئة تحسب سلطانته، وأملا فى رحمته ورأفته اطمأنت القلوب، وعاش أمانا من لم تحصده السيوف، ورفرفت رايات الإسلام خفاقة حتى أقصى بلاد الكفر وديار الترك التى لم يكن قد وصل إليها روائح دين الإسلام، وبُنئ فى محاذها معاهد الأوثان مشاهد الرحمن، وصيت عدله قيد الشوارد، وأنغام بذله موجب الصيد للأوبد، خضعت لهيبته الفئات المتمردة وخضعت له الرقاب من فرط سطوته وعملت أوامره عمل السيف، وحملت صحائف كتبه بريق صحائف كتائبه:

يَقْلَهُمْ بِالرَّعْبِ قَبْلَ طَرَادِهِمْ^(١) ويَهْزِمُهُم بِالْكَتْبِ دُونَ الْكَتَائِبِ^(٢)

وَجَهَّزَ الْجِيُوشَ وَالْعَسَاكِرَ إِلَى مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، وَشَارَكَهُمْ فِي
الْغَزْوِ بِنَفْسِهِ لِأَن:

نَصَفَ الدُّنْيَا نَتِيجَةَ التَّوْفِيقِ وَالنَّصَفَ الْآخَرَ نَتِيجَةَ السَّمْعَةِ الطَّيِّبَةِ

فَإِنْ لَنْتَ فَلْتَ الْقِيُودَ عَنْكَ وَإِنْ شَدَدْتَ غُلَّتْ بِهَا

وَمُخَالَفًا أَقْوَالَ النَّاصِحِينَ وَلَوْمَ اللَّائِمِينَ فَإِنَّهُ:

إِذَا غَدَا مَلِكٌ بِاللَّهُوِ مُشْتَغَلًا فَاحْكَمْ عَلَى قُلُوكَ بِالْوَيْلِ وَالْخَرَبِ

فَقَدْ كَانَ أَكْثَرَ مِنْ مَدِّ بَسَاطَةِ السَّعَادَةِ وَالْمَرَحِ وَدَاوَمَ عَلَى مَدَاوِمَةِ الشَّرَابِ
وَالْمَدَامِ وَمَنَادِمَةِ الْحَسَنِ وَأَفْرَطَ فِي هَذَا، وَمُنَحَ الْمُسْتَطْعِينَ بِإِسْرَافٍ حَتَّى
وَصَلَ الْقَاصَى وَالِدَانِي. وَصَلَتْ عَطَايَاهُ إِلَى الْجَمِيعِ دُونَ تَثَبُّتٍ، وَقَدْ دُونَتْ
حِكَايَاتُ الْمُلُوكِ الْقَدَمَاءِ فِي الْبَذْلِ وَالْعَطَاءِ وَكَانَتْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَفْعَالِهِ حَشْوًا،
فَقَدْ فَاقَهُمْ كَرَمًا وَعَطَاءً وَلَمْ يَرْجِعْ سَائِلٌ مِنْهُمْ خَالِي الْوَفَاضِ وَلَمْ يَسْتَمِعْ أَى
وَاحِدٍ مِنْهُمْ لَا أَوْ لَمْ:

لَا فِي الْجَوَابِ تَقْصُّ أَجْنَحَةَ الْمُنَى وَلِأَجْلِ هَذَا تَشْبِهُ الْمَقْرَاضَا

يَقْدُ إِلَيْهِ أَصْحَابُ الْحَوَائِجِ مِنَ الْأَطْرَافِ فَيَعُودُونَ دُونَ أَنْتَظَارِ مَقْضِي
الْأَوْطَارِ، وَالْمُنْتَجِعُونَ وَالسَّائِلُونَ يَغْنَمُونَ بِتَحْقِيقِ أَمَانِيهِمْ.

وَصَوْتُ الْمُقْتَنَى أَحْلَى وَأَشْهَى عَلَى أَذْنِيهِ مِنْ نَغَمِ السَّمَاعِ^(٣)

وَكَانَ يَصِلُ إِلَى بَابِ حَضْرَتِهِ الْعَصَاةِ مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ وَكَانَ يَغْدُقُ عَلَيْهِمْ
الْعَطَاءَ أَكْثَرَ مِنَ الْقَادِمِينَ مِنَ الدِّيَارِ الْقَرِيبَةِ. لَمْ يَعُْدْ مِنْ مَقَامِ حَضْرَتِهِ يَأْنِسُ أَوْ
مُخْذُولٌ، وَكَانَ كِبَارُ رِجَالِ دَوْلَتِهِ يُلُومُونَهُ أحيانًا عَلَى إِسْرَافِهِ وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ

(١) فِي مَاضِي النُّسخِ "طَرَادِهِمْ": الْهَامِشُ ١٥٩.

(٢) الْبَيْتُ لِأَبِي الْفَتْحِ الْبُسْتِي - بَيْتِيَّةُ الدَّهْرِ لِلنَّعَالِيِّ ٤ / ٢١٤.

(٣) هَذَا الْبَيْتُ لِأَبِي تَمَامٍ ، الدِّيْوَانُ ط بَيْرُوت: ١٩٤، مَعَ اخْتِلَافٍ .

عبيده ورعاياه أولى بهذا الإنعام والعطاء، وكان القا أن يجيبهم: أنتم لا
تتحلون بزينة العقل والحكمة، وكلامكم باطل لأمرين:

الأول أن سمعة سيرتنا ومنهجنا تصل إلى جماعة العصاة المتمردين.

فلا بد أن تميل قلوبهم إلى طاعتنا والإنسان عبيد الإحسان

وبهذه الرحمة تخف أتعاب جنودنا من لقاء الجيوش والرعايا وتنتهى
المكابدة والمشقة.

والثانى أكثر وضوحا، فالمعلوم أن الدنيا غير وفيه بالإنسان، فتعصف
به جراء إحسانه، فعلى المرء أن يتحلى بنور العقل ليترك له اسمًا خالداً.

أقبل لتخطى الدينا السيئة ولنعمل جميعاً عملاً طيباً

فإذا متُ بسمعة طيبة فيجب أن يبقى اسمى خالداً

وإذا جرى ذكر أسلاف الملوك وعاداتهم ورسومهم وإذا تطرق الحديث
إلى ذكر ما يكنزون من ذهب وفضه إلى الجماعة التى دفنت الكنوز الثمينة
تحت الأرض فإنهم قد حرموا من نعمة العقل السديد والرأى الرشيد، فلم يكن
عندهم قدرة على التمييز بين التبر والتراب ولم يمكن استغلاله والإفادة منه
فى دفع الضرر وتحقيق الفائدة وأضحت كنوزهم التى دفنوها كالقضاء الذى
حل بهم سواء فى استعبادهم أو فى إغلالهم.

أين الأكاسرة الجبابرة الألى كنزوا الكنوز فما بقين وما بقوا^(١)

نريد أن نضع كنزنا من السمعة الطيبة فى حنايا قلوب العالمين،
وسوف لا نترك أى شىء للغد.

(١) هذا البيت للمتنبى.

إن سلاطين الزمان لن يروا فى المنام ذلك المال الذى هو عشر ما لدينا من أموال

لقد أعطينا ذهب العالم وفضته للناس، لذا فإنه لا خطر علينا من سخاء أكفنا.

ما ذكرناه مجمل لأفعاله، ويمكن للمستمعين والمطالعين أن يأخذوا علينا ما فى هذه المعانى من قبيل "أحسن الشعر أكذبه" لأننا قدمناه على سبيل الإيجاز المصون من عوارض البهتان والمجاز، فقد رأينا أن عدة حكايات تكفى للاستدلال والبرهان على ما ورد فى هذا التاريخ مع أنه ليس سوى قليل من كثير وليس سوى واحد من آلاف.

فقد ذكر فى الياسا "القانون المغولى" أنه لا يجوز فى فصل الربيع والصيف أن ينزل أى شخص إلى الماء وأن لا يغسل شخص يده من جذول ولا يرفع شخص الماء من النهر فى أوان من الذهب والفضة وأن لا ينثر ثوبا مغسولا فى الصحراء لأنهم كانوا يعتقدون أن هذا يسبب رعدا وبرقا، وكانت منازلهم ومكان إقامتهم منذ أول الربيع حتى آخر الصيف أكثر الأوقات نزولا للمطر وتصادم الرعد اصطكاكه بشدة إلى الدرجة التى تجعلهم حين يسمعون "يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت" ويشتد البرق إلى الدرجة التى معها "يكاد البرق يخطف أبصارهم"، وكان المشاهد أنهم يصمتون صمت الموت حين ترعد السماء وتبرق، وفى كل عام كان البرق يصيب شخصا منه، فكانوا يخرجون قبيلته وأسرتة من منازلهم، ويظل هذا الإبعاد لمدة ثلاث سنوات لا يستطيع خلالها العودة إلى معسكر الأمراء، ويطبق ذلك على أنعامهم وقطيعهم، وإذا أصاب البرق إحدى الدواب تبعد عدة أشهر أيضا، وإذا أصاب البرق شخصا فإنهم لا يأكلون من طعامه ما بقى من الشهر، وكذلك الحال فى مراسم عزائهم فإنهم يظلون حتى نهاية الشهر فى غبطة وسرور وصراخ.

وذات يوم، حينما كان القا آن وجغتاي عائدتين من رحلة صيد، رأيا مسلماً يستحم فى النهر وسط النهار (فاستشاط جغتاي غضباً)، وكان جغتاي يحرص حرصاً شديداً على تطبيق قانون الياسا، وكان لا يبقّى على أى شخص ينحرف عن قانون الياسا حياً. فحين رأى هذا الشخص فى الماء استشاط غضباً وأراد قتله والنقض على حياته فاستمهلته القا آن وقال: اليوم متأخر، نحن الآن فى نهاية اليوم ونحن قد تعبنا، فلنترك عقاب هذا الفرد حتى الغد، فننظر فى أحواله وندرس ونقف على أسباب مخالفته لقوانيننا. وأمر الحاجب أن يتحفظ عليه حتى الغد ليحكم عليه بالبراءة أو الإعدام، وأمر حاجبه سرّاً أن يلقوا مكان استحمام هذا الرجل عملة فضية وأفهموه أنه حين السؤال عليه أن يقول: إننى رجل فقير قليل المال كثير العيال وكل ما أملك هذه الصرة من المال لهذا تجرأت ونزلت إلى الماء. وفى اليوم التالى دُعى الرجل المتهم للحضور للسؤال والاستجواب، فشرح له ما علمه إياه الحاجب، ولقى من الملك القبول.

وبعث الملك على سبيل الاحتياط شخصاً إلى ذلك النهر واستخرج الصرة من الماء، عندئذ قال "القا آن": إن كل من يخالف أحكامنا ويضمّر عداً لقانوننا يطاح برقبتة. ولكنى نظراً إلى أن هذا الرجل ضعيف الحال قليل المال كاد يضحى بحياته من أجل صرة من المال فقد أمرنا أن يعطوه عشرة أضعاف ما كان فى الماء إضافة إلى الصرة الأولى وأن يأخذوا عليه تعهداً على أن لا يعاود ذلك مرة أخرى، وإلا فقد روحه وسحب ماله. لهذا عفى عمن ارتكبوا هذه الأعمال فإن الكنوز الباقية أفضل.

وحكاية أخرى: فى بداية أمرهم (المغول) أنهم أصدروا أمرهم بأن لا يسمّى أحدهم (أى يقرأ البسملة) حين الذبح، وعليهم أن يشقوا صدر الذبيحة، اشترى مسلم خروفاً من السوق وحمله إلى منزله وأحكم إغلاق الأبواب وبسمل وذبح الخروف، وتصادف فى أثناء الشراء أن شاهده واحد من القفجاق وتعبه خفية وصعد إلى سطح منزل يراقبه كيف يذبحه، فما إن

وضع "المسلم" السكين على رقبة الخروف وقطعها حتى قفز عليه وأمسك به وأحضره إلى حضرة ملك العالم، وحين شاهد "قا آن" هذه الحالة أرسل كاتبه ليرى حقيقة ما حدث، فحكى له كل ما حدث، وعندئذ قال الملك إن هذا الرجل الفقير لم يخالف القانون المغولي (الياسا). وعفا عنه وأحسن إليه وكرّمه وأمر بتسليم القفجاق إلى الجلادين.

إذا مرت نسايمك اللطيفة في خميلة أخذت صرة غزال تترى من فم الأسد

وحكاية أخرى: كان قد قدم لاعبون من الختا وقدموا ألعاباً من ألعاب الختا العجيبة التي لم تكن قد شوهدت من قبل، فقد كانوا يخرجون من خلف الستارة أشياء من بينها صور تمثل كل الأقوام، ويخرجون في أثناء ذلك رجلاً شيخاً أبيضت لحيته وعمامة فوق رأسه وخلفه جواد يسأل قائلاً: صورة من هذه؟ قالو: صورة مسلم عاص متمرد. فأمر الجنود أن يطردوا أمثالهم من سائر البلاد، وأمر الملك أن يقفوا هذه الألعاب وأخذوا من الخزانة أنواعاً من الجواهر من خراسان والعراقين كالعل واللؤلؤ والفيروز^(١)، وعدداً من أنواع النسيج والألبسة المزركشة والمطرزة بالذهب وأخذوا الجياد العربية والأسلحة من بخارى وتبريز وما يستولون عليه من الختا من ثياب رخيصة قليل بالمقارنة بذلك، وقال: إن لدى أفقر فرد من المسلمين عدداً من العبيد الختا، وليس لدى كبار أمراء الختا مسلم أسير واحد، وهذا من لطف الخالق فهو يعلم مرتبة كل قوم ومنزلته، وقانون جنكيز خان القديم (ياسا) يوافق هذا، فقصاص المسلم أربعون بالشا وصرة من الفضة أو الذهب^(٢)، في حين أن قصاص الختا يعادل حماراً، فكيف تستخفون بأرباب الإسلام (بالمسلمين)، وهذا إنم وجرم يقع عليكم ويوجب عقابكم، ولكني أهب لكم حياتكم (أعفيكم من هذا الجرم) فعودوا إلى بلادكم ولا تعودوا إلى مثل هذا.

وهذه حكاية أخرى، (رشيد الدين في كتابه جامع التواريخ ط بلوشيه ص ٦٤ يذكر أن أحد ملوك إيران أرسل إليه رسولا يقدم له فروص الطاعة

(١) هذه الجملة تمت ترجمتها بتصريف فهي غير سليمة في المتن الفارسي (المترجم).

(٢) البالش تعادل ثمانية مقالات، والفضى أقل من الذهبى.

والولاء، ومن بين التحف المرسلّة مع (الرسول) الطير، ياقوتة مسطحة، كانت قد آلت إليه من أيام الفتوح من الآباء والأجداد نقش في أعلاها "محمد رسول الله" وكتب تحتها أسماء آبائه بالترتيب فأمر الخطاطين أن يبقوا اسم "محمد" تبركا ويثمنوا وأن يمحووا أسماء السلاطين ويضعوا اسم "قا أن" في نهاية اسم الرسول عليه الصلاة والسلام واسم مرسلها.

وحكاية أخرى: كان هناك فقير عاجز عن كسب قوته، ولا يحسن أية حرفة، وكان يقطع الحديد على هيئة رايات ويعلقها على قطعة من الخشب، ويترصد مرور مواكب القا آن، فوق بصره المبارك من بعيد على هذا الفقير، فأرسل أحد مرافقيه إليه يستطلع حاله، فحكى له الفقير ضعف حاله وقلة ماله وكثرة عياله، وأعطاه الرايات.

ولما كان الرسول قد شاهد العلم ولم يحسن تقديره فإنه لم يستطع أن يحسن تقدير هذه الرايات، وعرف القا آن ذلك وأمر بإعادة الرايات إليه ومنحه عن كل راية بالشا وأن يقدموا له يد العون فهو جدير بهذا.

حكاية أخرى: قصة رجل مُسنّ طحن قوته تعاقب الأيام والليالي، جاء إلى حضرة (القا آن) طالبا مئاتي بالش من الذهب ليشارك بها التجار في تجارة، فقال أحد أفراد حاشية الملك: إن هذا الرجل قد أوشكت شمس عمره على الغروب، وليس له أبناء ولا أحفاد ولا مأوى ولا مسكن، مثل هذا الرجل لا يعلم عنه أحد شيئا. فقال "القا آن": لقد كان هذا الرجل طوال عمره يحلم بأن يكون تاجرا ذات يوم وها هي الفرصة قد واثته، فليس من اللائق أن يعيده الخان مايوسا محروما ولا ينال شيئا من علو همته، ولا يليق بملك أعطاء الله كل هذا أن لا يجيبه إلى ملتمسه قبل أن يحل أجله.

أعاذل إن الجود ليس بمهلِكِي ولن يخلدِ النفسَ الشحيحةَ لومُها
وتذكر أخلاقُ الفتى وعِظامُة مُعَيَّبة في اللحدِ بالِ رَمِيمِها^(١)

(١) منسوب لحاتم الطائي: حاشية جهان كشاي ج ١، ص ١٦٦.

فلا يجب أن نحرمه من تحقيق حلمه.

وحظى من فيض عطائه كثير من الأشخاص وقصده كثيرون.
دلّ على إنفاقه حينه كالبحر يدعوك إليه الخريف

وحكاية أخرى: وفد عليه شخص طالبا خمسمائة بالمش ليتاجر بها، فأعطاهما له وانصرف، فتحدث إليه المقربون له من حاشيته قائلين: إنه رجل حقير مُفلس فكيف تقرضه كل هذا المبلغ؟ قال "لما آن": ضاعفوا العطاء حتى يكون له نصف هذا المبلغ رأس مال له، ويدفع النصف الآخر لغريمته:

هى المكارم لا عقبان من لبن^(١)

أخرى: وجدوا رسالة عن كنز، تشير إلى وجود كنز فى مكان معين وضعه أفراسياب، وتذكر رسالة الكنز أن الدواب لا يمكنها أن تصل إلى هذا المكان، فقال: ما احتياجنا إلى كنز قد وضعه غيرنا؟ إننا نؤثر غيرنا من عباد الله وأتباعنا بكل ما نملك.

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

جاءه تاجر وطلب منه خمسمائة بالمش ليتاجر بها، وبعد أن أخذ المال رجع بعد فترة معتذرا لنفاد ماله، فأمر بإعطائه المبلغ (مرة أخرى)، ثم عاد فى العام التالى أكثر إفلاسا عن المرة الأولى، وقدم اعتذارات أخرى فأعطوه خمسمائة بالمش أخرى، وحين رجع للمرة الثالثة خشى الكتبة عرض الأمر (على لما آن) مخافة أن يأمر بقتله (بقتل هذا الرجل المسرف) وأخبر الملك أن شخصا من أحد البلاد يتلف ما يأخذ من أموال بإعطائها للوباش وينفقها فى المأكّل والمشرب، فقال لما آن: من أين يأتى بالأموال؟ فقالوا إنه يحصل على الأموال (من الحضرة السلطانية). قال: أعطوه مثلما اعطيتموه من قبل

(١) صدر بيت لأمية ابن أبى الصلت (الأغاني ١٦ / ٧١) وعجزه شيئا بماء فعادا بعد أبوالا.

فهو ينفقها على رعبتنا، وقولوا له أن يحجم عن إتلاف ماله:
وَبَلَوْتُ قَاتِيهِ مَعًا فَوَجَدْتُهُ فِي الْعَوْدِ أَكْرَمَ مِنْهُ فِي الْإِبْدَاءِ^(١)

أخرى: في إقليم الختا بلدة تسمى "طانمفو"^(٢) طلب أهلها قرضا جماعيا مقداره ثمانية آلاف بالمش ليوزعوه على الدائنين الذين يطالبونهم ويلحون في طلبهم، أو فليأمر الغرماء بتأجيل مطالبتهم حتى يردوا لهم مبالغهم حين يستطيعون وإلا تفرقنا في البلاد، فقال: إذا أمرنا الدائنين أن يسامحهم فإنهم سيعذبونهم أكثر، وإن تركناهم هكذا أخرجوا من ديارهم وتشرّدوا. ثم أمر مناديا ينادى في تلك البلدة قائلا: ليعلم القاصي والداني أن كل من عليه دين فليأت بحجة ودليل، أو فليحضر الغريم، وليأخذ ما عليه من خزانتنا نقداً، وباب الخزنة مفتوح للجميع. فتوجه الناس إليه وأخذوا الأموال (بالش)، وكان كثير من هؤلاء لا قروض عليهم واتخذوا لأنفسهم غريماً أخذوا الأموال باسمه، وأخذ آخرون ضعف ما عليهم:

فإذا فاض جوده خجل القطر ... وفاض الفرات، أين الفرات؟

وأخرى: أتاه شخص في موضع صيده وأحضر له بطيختين أو ثلاثاً، وحين قدمها لهم لم يعطوه شيئاً من "البالش" أو من الثياب، وكانت موكا خاتون موجودة بينهم، فأعطته لؤلؤتين كالفرقدين تفوقان القمر المنير في لمعانهما، كانت تحلى بهما أذنيها، وأمرت بأن يعطاهما هذا الرجل، ولا يضمن بهما عليه، فقال أحدهم: إن هذا الرجل لن يحسن تقدير قيمة هاتين

(١) البيت لابن العميد (بتمية الدهر دمشق: ١٨/٣).

(٢) هكذا أوضحها بلوشين في تحقيقه لكتاب جامع التواريخ لرشيد الدين ص ٦٦، جهان كشاي ص ١٦٧ ج١.

اللؤلؤتين! والفرق عنده بينهما كالفرق بين الزعفران والحمار، وإذا أمرت يتم استدعاؤه غدا ونعطيه البالش والثياب. فقالت: هذا الرجل فقير وليس فى مقدوره الانتظار حتى الغد، وحيثما ذهب فإن هاتين اللؤلؤتين ستعودان إلينا حتماً:

فأعطى ولا تبخل إذا جاء سائلٌ مفدى له عقل وقد زاحت العِلل^(١)

وأعطى الرجل اللؤلؤتين كما أشارت وعاد الفقير سعيداً، فباعهما بأبخس الأثمان كالفرق بين الدينار والألفين، وسُر الشارى قائلاً فى نفسه: لقد حصلت على جوهريتين نفيستين، ربما ما لدى الملك من تحف أقل منهما. وذهب إلى الملك بهما، وكانت موكا خاتون حاضرة آنئذ، فتناولت اللؤلؤتين وقالت: ألم نقل إنهما ستعودان إلينا؟ إن هذا الفقير (الدرويش) لم يعد خائباً مئوساً من عندنا وحصل على ما كان يريد، وعادت إلينا اللؤلؤتان. وخصت صاحبهما بكثير من الإكرام:

ومن قال إن البحرَ والقَطَرُ أشبهَا نَدَاكَ فقد أثنى على البحرِ والقَطَرِ

أخرى: أحضر شخص غريب سهمين إلى الملك، وركع على البعد منه، فقال الملك: انظروا ماذا يريد هذا الرجل وما حاجته. فقال: إن حرفتى تقليم النبال، وقد اقترضت سبعين بالشا واضطربت أحوالى نتيجة ذلك، فإذا تكرّم الملك بدفع هذا المبلغ فإننى على استعداد أن أسلم عشرة آلاف نبل سنوياً. فقال حاتم الزمان: إن هذا المعدم بحاجة إلى مال لاصلاح حاله وإنقاذ روحه، وإن هذا المال البسيط الذى طلبه لا يكفى لتقليم عدد من النبال؛ أعطوه مائة بالش نقدًا ليصلح ذات نفسه. وحين جىء بالمال لم يستطع صانع

(١) شرح الحمامة طبعة بولاق ج ٤، ٦٤، ١٢٣.

النبال المسنّ أن يحمله، فأمر الملك أن يُمنح بقرة ليحمله عليها، وضحك وقال:

وَأُنْقَلَتُهُ بِالْمَالِ وَهُوَ الَّذِي بِهِ تَخِفُّ عَلَى طَاوِيِ الْفَلَاةِ الْمَرَاجِلُ^(١)

أخرى: فى الوقت الذى أمر فيه ببناء "قراقورم"^(٢) ، وكان اهتمام الملك كله محصوراً فى إنجاز البناء، دخل ذات يوم إلى الخزانة رأى فيها توماناً أو تومانين، أى عشرين ألف بالش، فقال: أى راحة تعود علينا بالمحافظة على هذا المال؟ عندئذ أمر بأن ينادى المنادى قائلاً: كل من لديه رغبة فى الحصول على المال عليه أن يأتى وليأخذ ما يشاء. فأسرع الناس من المدينة واتجهوا نحو خزانة المال وأخذ الناس جميعاً سواء الغنى منهم أو الفقير، الشريف أو الوضيع، الشيخ أو الرضيع... أخذوا جميعاً ما يريدون ثم عادوا شاكرين الملك وداعين له:

إِنَّا إِذَا اجْتَمَعْتُ يَوْمًا ذَرَاهِمُنَا ظَلَّتْ إِلَى طُرُقِ الْمَعْرُوفِ تَسْتَبِقُ^(٣)

أخرى: حين اشتدت البرودة انعدمت الزراعة حول قوراقورم، ولكن فى عهده بدأ الناس الزراعة، وكان هناك شخص يزرع الفجل، وكان ذلك أمراً نادراً، وكلما نبت الفجل عنده أحضره إلى الملك.

كان الملك يأمر بعد الفجل وأوراقه فإذا بلغ تعداد ذلك مائة، يأمر بأن يعطى مائة بالش:

إِذَا وَجَدَ قَلْبَ وَيدٍ كَالْبَحْرِ كَانَ ذَلِكَ قُلُوبَ الْعِظْمَاءِ وَأَيْدِيهِمْ^(٤)

أخرى: بنوا على بعد فرسخين من قوراقورم قصرًا على طرف من التل، يزوره فى وقت ذهابه إلى مشتهاه وفى أثناء عودته منه، ثم توسع المكان

(١) من قصيدة لإبراهيم بن عثمان الغزى.

(٢) قوراقورم فى جميع المواضع.

(٣) ديوان الحماسة.

(٤) البيت للأبورى فى مدح السلطان سنجر.

وسمى "تزغو باليغ" أى مدينة "تزغو". زرع أحد الأشخاص أسفل التل بضع شجيرات من اللوز والصفصاف، ولم يغرس أحد قبله شجرة فى هذا المكان، لذا لم نشاهد شجرة خضراء، ونمت الأشجار وأخضرت، فأمر الملك أن يمنح الرجل على كل شجرة بالشأ:

وكاذ يحكيه صوب المزن منتكبا لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا^(١)

أخرى: عندما استقر على كرسى الملك وانتشرت سمعته العطرة فى الوجود، توافد عليه التجار من كل صوب وحذب يعرضون عليه بضائعهم، فكان يختار وينتقى، ويدفع أكثر مما يطلبون، وحين أبصر أقمشتهم ولم يعرف قيمتها سألهم عن سعرها، فراح بعضهم يضاعف القيمة عشرة أضعاف، وآخرون يسمون الصدق دراً، وحصل الجميع على ما طلبوا... ثم عاد التجار إليه مرة أخرى وفتحوا أحمالهم وأفرغوها كما لو كانوا يفرغونها فى بحر عمان، وكانوا ينالون قيمتها، وطلب الملك منهم بضائع أخرى، وسيمنحهم عشرة أضعاف قيمتها.

و ذات يوم حدثه أركان دولته قائلين: إن دفع عشرة أضعاف الثمن فى غير موضعه ليس أمراً واجباً، بل الواجب هو دفع قيمتها فقط وهذا هو العدل، فقال: هذه هى الفائدة التى يجنيها من يتعاملون مع خزانتنا وما نرجوه لهم من النفع والخير وما ينتفعون به من الالتجاء إلينا، فإذا رأيتم تلك الجماعة وأنت إليكم فادفعوا إليهم حتى لا يعودوا خاسرين:

وما ثنأك كلام الناس عن كرم ومن يسد طريق العارض الهطل؟^(٢)

أخرى: أحضرت جماعة من الهنود ضرسين (نابيين) لقيلى فسألهم عن قيمتهما وما ملّتهم فقالوا دون تردد: خمسة آلاف بالش. عندئذ أمر بإعطاء المبلغ لهم فأنكر رجاله المبلغ واستكثروه، وأضافوا إلى ذلك أن هؤلاء

(١) بيت لبديع الزمان الهمذاني.

(٢) البيت للمتنبى.

الرجال من بلاد متمرده، فقال: ليس هناك من يتمرد على:

يَبَالِغُ جَاهِدًا فِي الْجُودِ حَتَّى يُنِيلُ نَوَالِ كَفِيهِ الْأَعَادَى

أخرى: حين انتشى من شرابه وثمل من كأس مدامه وسعد وقته جاءه شخص بقلنسوة من قلانس خراسان وطلب مائتي بالش في مقابلها، فأمر الملك له بذلك، ولكن رجاله وقفوا دفع المبلغ إليه ظنا منهم أن الملك قد أمر بذلك وهو في حالة سكره، وأمهلوا الدفع إلى يوم آخر، وحين قدم الرجل عرضت على الملك موافقته السابقة، فأمر أن ترفع إلى ثلاثمائة وطلب أن لا يعودوا إلى مثل ذلك مرة أخرى، ثم أمر بأن يضاف له مائة بالش عن كل يوم انتظر فيه. فحسبها له الكتبة فكان أن نال الرجال ستمائة بالش، ثم جمع الأمراء والكتاب وساءلهم: أمن الممكن أن يبقى الفساد أبد الدهر؟ فأجابوا: كلا، لا يمكن. فأشار إلى صاحب يلواج وقال: إن هذا الكلام غلط، لأن الاسم الحسن والسمعة الطيبة باقياں أبد الدهر. ثم اتجه إلى الكتاب وقال: إنكم أعدائي الحقيقيون لأنكم لا تريدون أفعالي الطيبة وأثاري الحسنة أن تشيع ولا يبقى خبر عن أفعالي الخيرة باقيا، إنكم تظنون أنني أمنح وقت الشراب (وقت سكرى) وأمتنع عند صحوى فوقفتم الرجل ومنعتموه من حقه.

ما لم تقدروا أفعالي هذه فلن تستفيدوا:

غَيْرِي طَوْغُ اللَّحَاةِ غَيْرِي يَسْمَعُ لِلْأَثْمِينَ أَمْرًا
معصية الأثمين فيها لَهْي (١) وكلاتهما وتمرا

أخرى: في الوقت الذي كانت فيه مدينة شيراز لم تخضع للمثول له جاءه شخص من أهلها وركع وقال: قدمت من شيراز حين علمت بكرم الملك وبره، وأنا صاحب عيال، كثير الدين، قليل المال، ألتبس خمسمائة بالش هي مقدار ما أنا مدين به، فقال أعطوه ملتسمه، وزيدوه مثلها. ولكن رجال الخزانة توقفوا عن الدفع قائلين إن في الزيادة إسرافا، فقال: لقد طوى هذا

(١) دية القصر (٢/ ٧٨٦) عجز البيت (فهى...) وبهذا يستقيم المعنى. البيت الثانى لأبى بكر القهستاني، أما البيت الأول فلم ينكره البخارزى، (النونجى ص ٢٠٠).

المسكين عدداً من الفياقي والجبال وتعرض للحر والبرد، وما أعطيته لا يكفيه مصاريق عودته، وقرضه وحده لا يكفي، وإن لم نزده ظل محروماً، فكيف يعيش بعد ذلك؟ وهذا المسكين سيدخل على أهله وأولاده فهل يدخل عليهم مأبوساً خائفاً؟ وأعطى الرجل ما أشار به على الفور وعاد إلى أهله سعيداً داعياً للملك ومثيلاً عليه.

إذا المقتفى وافى من البعد سائلاً
يراه حراماً ردهً وهو عائل^(١)
وأخرى: جاء درويش إلى حضرته وقد لف عشرة جلود على قطعة خشبية ولسانه يلهج بالدعاء للملك، ووقف بعيداً، وحين وقع عليه نظره المبارك سألوا عن حاجته فقال الرجل: في منزلي عنزة أطعمت عيالي لحمها وهيات جلدها لأصحاب السلاح وأحضرتها.

أمسك الملك الجلود بيديه، وأمر أن يُعطى مائة بالمش وألف رأس من الخراف، فأعطوها إياه، ثم قال: إذا جاء الرجل ثانية أعطيناه:

قد غذا سنيّه رَسِيلَ الغَوادي
ورسول الأرزاق والأقوات
وأخرى: أخضر أحد الأشخاص عظمة كبيرة وطلب قيمتها منة من البالشات فأمر له بذلك.

وأخرى: كان معتاداً أن يقضى فصل الشتاء كله في الصيد، وما بقي من فصول السنة، أي تسعة أشهر، يمضيها على النحو التالي: بعد تناول طعام الغداء يجلس على كرسي خارج البلاط، يوزع ما يُقدِّ إليه من الأقطار على الناس، المسلمين والمغول، وأمر بأن يتناول ضخام الجثث ما يريدون بالنظر إلى أحجامهم، وذات يوم قدم شخص من هذا النوع من الأحجام وحمل قطعة ثمينة من القماش تكفي لعدة أشخاص، وفيما كان عائداً سقطت قطعة منها على الأرض، وأعيدت إلى مكانها من موضع القماش، ثم عاد الرجل يطلبها ثانية فلم يُعطها! فقال لها الآن: كيف تمنعونه عنها؟ اتركوها له حتى لا يتألم، ويستطيع العودة مرة أخرى.

لو كان حاتم حياً ورأى جودك، فليس هناك شك في أن يقدم الطاعة لك.

(١) البيت لإبراهيم بن عثمان الغزي، وهو تابع لبيت سبق ذكره.

وأخرى: أحضر شخص مائتي عصا (سوط) مُهلكة غير ما كانوا
يستخدمونه في تلك الأنحاء وطلب بالشا عن كل سوط:
فصار المجتدون إليه طراً
والفقوا من يديه ما تمنّوا
وبشّرهم نداه بالمُعَادِ

أخرى: أحضر شخص ثلاثة من هذا النوع من المتاع فأعطاه مائة
بالش ثمنها لها.

أخرى: فى بداية مراحل بناء قراقورم مرّ يوماً بالسوق فوَقَّعت عيناه
على دكان عَنَاب، فاشتاق إليه، وحين دخل بلاطه طلب من دانشمند حاجب
أن يأخذ من الخزانة بالشا ويشتري له عنباً منه، حمل الحاجب طبقاً من
العناب، فأعطاه ربع بالش، وهو أضعاف قيمة ما اشترى، وحين وضع
الطبق أمام الملك قال: لقد حصلنا على عناب كثير مقابل بالش واحد، فقدم
الحاجب بقية البالش للملك قائلاً: إن قيمته أقل من ذلك بكثير، فتألم الملك
وقال: من المؤكد أنه لن يلقى شارباً مثلنا بقية عمره، أعطوه عشرة بالشات.

واذكر صنائعه فَلَسَنَ صنائعاً
لَكُنَّهِنَّ قَلَائِدُ الأعناقِ^(١)

أخرى: عزم الملك الخروج إلى الصيد ومر في طريقه بمنزل محمود
يلواج (صاحب الرسائل)، فمدوا له مائدة، فقال حكاية سليمان والنمل وساق
الجرادة، ولما كان المكان نزهاً (روضة)، وغمره النشاط من كثرة الشراب،
ومال قلب موكا خاتون إلى الخواتين الأخريات، فسمحت لهن بمجاملتها، نثر
صاحب الرسائل خارج الخيمة أنواعاً من الأقمشة المنسوجة والمطرزة

(١) اليهودى أى الأعناق ومفردها هادية، والبيتان لأبى على الفضل بن محمد الطرسى ذكرها الثعالبي فى تنمة
البيتمة (نسخة المكتبة الأهلية ببائس عد ٢٣٠٨ ورق ٥٦٣ وبعدها:
يُبَالِغُ جَاهِذاً فى الجودِ حتى يُبَيِّلُ نَوَالِ كَفِّهِ الأعداى

حاشية القزوينى على متن الكتاب ص ١٧٣.

(٢) البيت لأبى الحسن البستى (تنمة البيتة، ورقة ٥٧٥) وهو من أبيات الإجازة أى نصف له ونصف لغيره
(النونجى حاشية ترجمة الكتاب ج ١ جهان كشاي ٢٠٢).

بالذهب، ورمى داخل الخيمة عدداً من عقود اللؤلؤ، وحين جلسا على سريرهما (العرش) عاد صاحب الرسائل فنشر اللآلئ الملكية على رعوس الحضور ابتهاجا بهما.

ولو كنت أنثر ما تستحقُ نثرتُ عليك سُعودَ الفلّك^(١)

وأمضى الملك ذلك اليوم منتزهاً سعيداً ووزع على كل من كان حاضراً ثياباً وجوذاً، وفي اليوم التالي أمر بأن يخصوا صاحب الرسائل - يلواج - بمزيد من التكرم والإنعام، وأضافوا إلى ذلك أربعة آلاف بالمش:

"عَمَّ الرعيّة والرعاة نواله"^(٢)

أخرى: أمر أن يعطى فقير مائة بالمش، فقال القائمون على إدارة البلاط: لعل هذا الرجل الفقير لا يفرق بين بالمش والدرهم. ثم وضعوا بين يديه مائة بالمش، فسألهم: ما هذا؟ قالوا: بالمشات الفقير. فقال: ضاعفوها له أيها الحقراء. فضاعفوها وأعطوها إياه :

قَبِلَ أَنَامَلَهُ فَلَسَنَ أَنَاملاً لِكَنَّهُنَّ مَفَاتِحَ الْأَرْزَاقِ^(٣)

أخرى: جرت صفقة تجارية على مائة بالمش بين رجل وبعض الأمراء، فأمر القا أن يدفع للرجل ماله نقداً... ووقف فقير ذات يوم على باب قصر الخان، فوقع بصره عليه، فظن أنه الرجل الذي كان يجب أن يدفعوا له مائة بالمش، فأمر أن يدفع لهذا الرجل المال فوراً، ولكن الرجل ظل واقفاً في مكانه، فعاد الرجال إلى الخزانة ثانية وأحضروا للرجل مائة بالمش، فقال الرجل الفقير: ولم كل هذه بالمشات؟ فأجابوه بأنها قيمة البضائع، ولكن الرجل كان في كل مرة يردّ المال، فقال الملك: وكيف تردّون مالا خرج من خزانتنا؟

(١) قصيدة مذكورة في كتاب سعدى الشيرازي: "الكلمات" إلى الروضة.

(٢) البيت لأبي الفتح البستي يتيمة الدهر، ٩٨/٣.

(٣) فريثي.

فرجعوا مرة أخرى وأعطوها لهذا الدرويش:

وَتَحَكُمُ فِي مَالِي حَقُوقُ مَرْوَةٍ نوافلها عند الكرام فروض

أخرى: بينما كانت فتاة هندية تمر بباب القصر، كان قا آن عائداً من الصحراء، فرأها على حالها هذه، فأمر خازنة أن يدفع لها خمسة بالمشات، وحين اقترب الخازن منها وضع واحداً في جيبه وأعطاهم أربعة، وأدركت المرأة أن واحداً قد نقص من العطاء، فطالبت به، فسأل القا آن: ماذا تقول المرأة؟ فأجاب الخازن: إنها تطالب بأكثر من ذلك لكثرة ما لديها من العيال (الأولاد) وتدعو لك. فسأل الخان ثانياً: وهل لها من تعولهم؟ فقال: طفلان يتيمان. وحين دخل القصر استدعى الفتاة الهندية، وأدخلها الخزانة وطلب إليها أن تحمل ما تستطيع حمله من هذه الثياب، فاختارت ما طاب لها من الثياب الغالية وهي تدعو لهذا الرجل الثرى:

وَتَكْفُلُ الْيَتَامَ عَنْ آبَائِهِمْ حتى وددنا أننا أيتام^(١)

وأخرى: قدم بازيار^(٢) (مربي الصقور) إلى الملك وعلى يده صقر (باز)، فسأله: ما هذا؟ أجاب البازيار "مربي الصقور": باز عليل وعلاجه لحم الطيور. فأمر خازنه أن يدفع له بالشاء، وأخذ الخازن إلى الصراف ليدفع له، ولكنه أخذ يماطله، وحين لقي الخان الخازن سأله عن أمر البازيار، فقال: لم ندفع له بعد. فغضب وقال: لقد وضعت بين يديك أموال العالم، التي لا يمكن أحصاؤها أو عدها، ألا يكفي لدفع ما أمر به؟ إن كل من يطلب مني شيئاً يريد أن ينتفع به لا تعطونه، في حين أن أشخاصاً لا يقدمون شيئاً ولا يطلبون يأخذون، أعرف كل من يمد شبাকে ليكسب مني، وهذا ليس خافياً علي، لكنني أريد أن ينال حقه كل من جاعني بطلب أو بشيء. وأمر أن يعطى صاحب الباز الكثير من البالشات.

(١) البيت لأبي تمام في مديح المأمون (الديوان ط بيروت: ٢٨٠).

(٢) بازيار: مربي البزاة، صاحب الباز.

أخرى: كان هناك رجل يمتن مهنة صناعة الأقواس وكان يصنعها بصورة سيئة واشتهر بذلك في قراقورم، ولم يرغب أحد في الشراء منه، ولم يكن يعرف مهنة أخرى، فأصابه الفقر واضطربت أحواله، ولم تكن أمامه وسيلة أخرى فحمل عشرين قوساً وعلقها على عصي (عصا)، ووقف على باب المعسكر، وحين خرج الخان من المعسكر ورآه أرسل شخصاً يستفسر عن أحواله فأخبره: إنني صانع أقواس ولم يشتر أحد مني قوساً وليست لي حرفة أخرى أعيش منها وأصابني الفقر فأحضرت للقا أن عشرين قوساً. فقال: خذوا أقواسه وأعطوه عشرين بالشا^(١).

أخرى: أحضروا للقا أن حزاماً نفيساً مرصعاً، وحين تفحصه بنظره المبارك لاحظ أن في وسطه مسماراً بارزاً، فطلب من واحد من خاصته أن يصلحه له، فأعطاه الأمير لصانع اسمه رشيد وهو تاجر، فأخذه الصانع وباعه، وكان الأمير يطلب الصانع به كل يوم، ويتعلل الصانع في كل مرة بعة وبأخرى، وحين طالبت المماطلة عن حدها أخبر الأمير الموكل (صاحب الشرطة) بالأمر حتى يُعيد الحزام.

وبدا أن الأمر يؤدي إلى ضياع الحزام، سيق إلى الملك وعرضوا عليه حكاية إنكاره للحزام، قال القا أن: مع أن الإثم عظيم فإن ارتكاب مثل هذا الإثم دليل على عجز وضعف وفقر. وأمر باطلاق سراحه لأن الأمر لا يحتمل كل هذه القسوة، وأمر بأن يعطى من الخزانة مائة وخمسين بالشاً ليصلح بها أحواله، على أن لا يعود إلى مثل ذلك:

"إذا أصبح لطفك بمقدار الجود، فإن الجسم صورة لهذه الروح"

(١) البالش: كان آنذاك عبارة عن خمسمائة مثقال من الذهب أو الفضة، ومصطلح بالش يفيد بالش الفضة. حاشية جهان كشاي للزروني ص ١٧٧.

ما جاد بالوفّر إلا وهو مُقْتَدِرٌ وما عفا قَطُّ إلا وهو مُقْتَدِرٌ^(١)

أخرى: أحضر شخص كأسا حلبية (من الصفيح) وأخذها منه جماعة من رجال القصر دون أن يُدخلوا صاحبها القصر، وعرضوها على الملك، فقال: لقد تعب حاملها حتى جاعنا بهذه الكأس الدقيقة الصنع من بلاد بعيدة. فأمر بإعطائه مئاتي بالمش، وكان صاحبها جالسا على باب المعسكر يفكر ويتسمع هل وصلت أنباء هذه الكأس إلى يد الملك أم لا، وفجأة خرج الحجاب يبشرونه بذلك، وأعطوه في نفس هذا اليوم مئاتي بالمش، كما سمع في نفس ذلك اليوم أيضا كلام خادم حبشي، فأمر أن يسأل الصانع: هل يرضى أن يكون واحدا من خدمنا؟ فأجاب الصانع: هذا هو عملي. فأمر أن يُعطى مائتي بالمش أيضا، وخرج يشترى وينفق على نفسه ما يجعله مثالا للخدم، ولكنه ذهب ولم يرجع نهائيا، ولم يتعرف أحد على مسكنه و منشئه:

وإني لأسدى نعمتي ثم ابتغى لها أختها من أن أعلّ وأشفقا

وأخرى: عاد شخص من حضرته مأيوسا إذ لم يستمع إليه، فراح يُعلن للناس من "مالين باخرز"^(٢) يعرف الجميع: إنني حصلت على كنز ثمين، ولن أبوح عنه بشيء حتى تكتحل عيناى بجمال القا آن. وكلما جاءه رسول يستفسر منه عن الكنز لم يغيّر جوابه، وفي النهاية وصل أمره إلى مسامع القا آن، فأمر بإحضاره، وحين مثل بين يدي حضرته سألته عن كلامه الذي شاع عنه فقال: كنت أبحث عن وسيلة ما توصلني إليك وأنعم برؤية وجهك فلم أجد سوى هذه الطريقة، والحقيقة أنني لا أعرف شيئا عن أى كنز. وكان منظر الرجل يدل على أنه لص ولم يكن من الممكن لأى شخص أن يعجبه مثل هذا الكلام وتلك الحركات إلا أنه قد بدا تغير في أحواله وغض الملك الطرف على ذلك وقال. ما دمت رأيت وجهنا فيجب أن تعود مرة أخرى. وأوصى رسله أن يأخذه وأن يوصلوه إلى منزله بسلام:

(٢) البيت لأبى غوث المنبجى (تتمة البيتمة، باريس، الورقة ٥٢٤).

(١) باخرز: بلدة في أقصى خراسان، مقدمه ديوان الباخري، ت المقنمة.

وما السحاب إذا ما انجاب عن بلدٍ ولا يَلُمُّ به يوماً بمذموم^(١)

أخرى: كان فى قراقورم شخص أنهكه الضعف والعوز، وكان يصنع كنوس الخمر من قرون الوعول الجبلية، وكان يترصد عبور موكب (الخان الملك)، وحين رأى موكب الخان قادما من بعيد، نهض من فوره وفى يده كأس قدمها له فأخذها الخان منه وأمر له بخمسين بالشا فطلب الكاتب أن يعيد الرقم الذى قال فقال: كم مرة طلبت منك أن تتفد ولا تستكثر ما أمر به؟ فالمال مالى فلا تستكثر ما أمرت به. وقال: أرفض نصائح اللائمين. وبهذه البالشات أصبح المعدم غنيا:

يا ملك الوقت والزمان ومن علا فى عظيم شان
ضدان ما استجمعا لخلق وجُهِك والفقرُ فى مكان^(٢)

أخرى: اقترض رجل مسلم من أحد الأمراء الأويغور أربعة بالشات من الفضة وعجز عن سدادها، فقبض عليه الأمير الأويغورى وهذده إما أن يترك دين محمد عليه الصلاة والسلام، ويدخل فى عبادة الأوثان، وإما أن يقوم بفضيحتة والمروور به فى سوق المدينة وضربه مائة سوط، فطلب منه هذا المسلم أن يُمهله ثلاثة أيام، وحضر إلى حضرة القا آن وأراه آثار السوط على رأسه، فأمر الخان بإحضار الأمير الأويغورى، وحين تحقق من صدق كلام المسلم لاهه على تعذيب المسلم وأمر أن يعطى زوجة الأويغورى ومنزله وأن يضرب هذا الأويغورى وسط السوق مائة ضربة، كما أمر بإعطاء المسلم مائة بالش:

بحرّ إذا حلت الوراد ساحتها لم ينههم علل عن القل^(٣)

(١) بيت لأبى زفافة المصرى، وبعده البيت التالى:

إن جُدتْ فالجودُ شىء قد عرفت به: وأن تجافيت لم تنسب إلى اللوم سَيِّئَةُ الْيَتِيْمَةِ نسخة باريس وفيه ٥٠٩.

(٢) البيتان لأبى وفيق الدمياطى فى عزيز مصر ذكرهما الثعالبى فى نَتْمَةِ الْيَتِيْمَةِ نسخة باريس ورقة ٥٢١.

(٣) بيت لأبى زفافة المصرى، وبعده البيت التالى: إن جُدتْ فالجودُ شىء قد عرفت به: وأن تجافيت لم تنسب

إلى اللوم - نَتْمَةُ الْيَتِيْمَةِ نسخة باريس وفيه ٥٠٩.

أخرى: كان هناك شخص من سادة قرية جرغ بخارى (قرية كبيرة على مقربة من بخارى يُنسب إليها قوم من أهل العلم قديماً وحديثاً -حاشية القزويني ص ١٧٩ جـ عن معجم البلدان)، يسمونه "العلوى الجرغى" أخذ من القا أن مالاً للتجارة، وحين حل وقت سداده قال: لقد سلمته. فسأله الكتاب عما يثبت سداده وإيصال تسليمه قال: لقد سلمته بيدي ليد القا أن. فأحضروه إلى حضرة القا أن، فسأله: فى أى وقت وبحضور من سلمتني المبلغ؟ فأنا لا أذكرك ولا أعرفك! أجاب: كنت فى ذلك اليوم وحيداً ولم يكن معك أى شخص. وبعد أن فكّر الخان قال: إن وقاحته واضحة وإفترائه بيّن وكذبه جليّ، وبما أنه قال هذا الكلام فلا يسمح له بأن يأخذ من الخزانة أموالاً مرة أخرى. وتركه... وفى ذلك اليوم كان قد حضر جمع من التجار ومعهم أقمشة فاشترأها منهم بأثمان باهظة، وفجأة سأل السيد: من أين جاءوا بك؟ لقد ضاق ذرعك حين أمرنا بعدم إعطائك مالاً وعدم شراء بضاعتك! فتضرع السيد إليه وبكى، ثم سأله الخان بعد ذلك عن قيمة بضاعته، فقال: ثلاثون بالشا، وإن أمرت بمنحى مائه بالش فهذا تكرم منك.

أخرى: أنت امرأة من قريباته وطلبت إليه أن ينظر إلى ما تزين به جواريه ومحظياته من ثياب ولآلى ومرصعات، فأمر صاحب "يلواج" آنذاك أن يحضر اللآلى المعدة، فأحضر صاحب الديوان اثني عشر صندوقاً من اللآلى كان قد اشترأها بثمانين ألف دينار، فأمر بإلقائها كلها بين يديها، ثم قال: اشبعي من اللآلى حتى لا تتظري إلى ما فى يد غيرك من النساء: سَلَكَ ابْنُ أَرْمَكَ فِي السَّمَاحِ مَسَالِكَا لَمَّا مَرَّ فِيهَا حَاتِمٌ لَمْ يَهْتَدِ (١) وَسَمَّا بِهَمَّتِهِ السَّتَى قَدْ ذَلَّتْ هَامَ السَّمَكَ وَفَرَنَ سَعْدُ الْأَسْعَدِ (٢)

وأخرى: أحضر إليه شخص رُمانة نادرة الشكل، فأمر أن تعدّ حباتها، وأن يكون لكل الحاضرين نصيب منها، ويدفع لصاحبها بالش عن كل حبة:

(١) بيت من قصيدة لأبي صالح سهل بن أحمد النيسابورى فى أبى سعد بن أرمك. تَمَّةُ الْيَتِيمَةِ ٥٨٨ .

(٢) سعد الأسعد: من منازل القصر.

فَلَذَاكَ يَزِدُّهُمْ الْوَرَى فِي بَابِهِ شَرَّوَى اِزْدِحَامِ الْحَبِّ فِي الرُّمَانِ^(١)

أخرى: قدم إليه عربي ملحد وقال: لقد رأيت في منامي جنكيز خان، وقال لي: قل لابني أن يقتل المسلمين جميعاً لأنهم قوم سيئون. وبعد أن أمهل نفسه ساعة للتفكير قال للمترجم: اسأله هل قال لك هذا الكلام أم قاله لنفسه؟ أجاب: قال هذا الكلام لنفسه وبلغته، فسأله: أتعرف التركية أو المغولية؟ قال لا. فقال: لا شك لدى في أن والدي لا يعرف لغة أخرى غير المغولية، وهذا دليل على كذبك. وأمر أن يقتلوه.

أخرى: يقال إن مسلماً كان في ناحية "تتكوت" بموضع يقال له "قراتاش"^(٢) أحضر إلى الملك طبقاً من المأكولات آملاً أن ينال حريته ويسمح له بالعودة إلى بلاده، فأمر أن يُعطى بالشا ويطلق سراحه.

أخرى: كان هناك أحد الأشخاص حضر احتفالاً ذات يوم، وانتظر حتى رأى الحرس وقد أصابهم السكر، فدخل القصر وسرق قدحاً ذهبياً ثم هرب، وفي اليوم التالي طلب القدح فلم يجده فأمر بأن ينادى في الناس أن من يجد القدح ويعيده فهو آمن ويعطى ما يتمناه، فجاء السارق في اليوم التالي ومعه القدح، فسأله. لمَ فعلت هذا؟ قال: حتى يأخذ القا آن (ملك العالم) حذره ولا يأمن لحراسه الذين يسمونهم طرفاقان (ومفردها طرفاق أى الحارس الليلي)، ولا يعتمد عليهم وإلا فقد الكثير من متاع خزانته. فقال جميع الأمراء: إنه يجب أن ينال جزاءه ليكون عبرة للآخرين ولا يقدم إنسان آخر على ارتكاب مثل فعلته.

عندئذ قال القا آن: لقد أعطيته الأمان من قبل، وإلا كيف سيصدقنا غيره؟ وإن مثل هذا الشخص يجب أن لا يقتل لأن قلبه ممتلئ ندمًا. وأمر له بخمسمائة بالش وخيل وثياب، وعيَّنه أميراً على عدّة آلاف وأرسله إلى الختا.

(٢) من قصيدة للغزّي.

(١) نكرها صاحب جامع التواريخ ط بلوشيه ص ٧٧ بهذا الشكل، ويعلق القزويني على ذلك بأن هذا قريب من الصواب. حاشية جهان كشاي ص ١٨١.

وأخرى: بعد أن نما الزرع برد الجو بردًا شديدًا وهبت عاصفة ثلجية حتى هلك الزرع، عندئذ ارتفعت الأسعار واشتد الغلاء في قراقورم، حتى بيع المَن الواحد بدينار ذهبًا، وكان ذلك أمرًا نادر الحدوث، فأرسل مناديًا ينادى: لا يتألم أحد من تلف مزروعاته ولا يعتره أى إحباط، وليحاول الزرع مرة ثانية هذا العام، فإن لم يجن المحصول الذى يريد، فإنه سيعوض عن ذلك من خزانة الملك وأهرائه. وما حدث هو أن الأرض قد غلت غلات كثيرة فى العام التالى، بحيث لم يعم مثل هذا الخير على المنطقة منذ زمن بعيد.

وأخرى: سبق ثلاثة أشخاص كانوا قد ارتكبوا جرمًا، وأمر أن يقتل الثلاثة، وحين خرج من البلاط رأى امرأة تُعفر وجهها بالتراب وتبكي، فسأل عن سبب بكائها فقالت: إن من حكم عليهم بالإعدام أحدهم زوجى والثانى ابنى والثالث أختى، فقال اختارى واحدا منهم نقيه لكى يحيا قالت: الزوج يُعوّض، والابن أيضًا مرجو، أما الأخ فلا سبيل إلى تعويضه. فأمر بالعفو عن الثلاثة^(١).

وأخرى: ذات يوم رغب فى مشاهدة مصارعة، كان يأتيه فى البداية جماعة من المغول والقفجاق والختا، وحين استولى على خراسان بدأ يفد عليه مصارعو خراسان والعراق، وأرسل رسولاً إلى "جورماغون" ليحضر إليه مصارعاً فأرسل من همدان بطلاً ضخماً كالفيل، وحين دخل على القا آن أعجب بمنظره وشكله وتناسب أطرافه مع ضخامة جثته، وحين وفدت إليه جماعة أخرى من المصارعين أمرهم ببء المصارعة.

وتمكن هذا المصارع من إنزال الهزيمة بالجميع ولم يستطع أحد أن يطرحه أرضاً ويلمس ظهره الأرض، فأمر أن يعطى هذا المصارع خمسمائة بالاش، ثم أمر له بجارية كالبدر فى تمامه كالطاوس فى مشيته حلوة الحديث،

(١) هذه الحكاية بنصها المذكورة فى مرزبان نامه، تأليف سعد الدين الوراينى، وقد ألف الكتاب قبل تأليف عطا الله لكتابه جهان كشاي بخمسين سنة، وتنسب هذه الحكاية إلى الضحاك، حاشية جهان كشاي ج ١، ص

ولكن هذه الفئة من الناس تعرض عن معاشرة النساء حفاظاً على قوتها
وكمال أجسادها، فاعتذر عن أخذ الجارية. وجاءت الجارية ذات يوم إلى
معسكر الملك وسألته عن عدم قبولها، وكيف يكمل العرب نصيبهم من
الذات، في حين أن هذا المزاج موجود بين المغول. في حين أننا نعلم أن
عضو الذكر عند العرب مشهور بكبره كما يقول الشاعر:

وَيَحْكُ يَا أَيْرَى أَمَا تَسْتَجِي تَفْضَحْنِي مَا بَيْنَ جَلَّاسِي
تَخْرُجُ عَنْ جَنِّبِي بِلَا حِشْمَةٍ وترفع المنديل عن راسي^(١)

وقالت الجارية: ولكنني مشتاقة إلى التمتع معه والسرور به دون غيره.
فطلب الملك البطل، وبحث معه الأمر فأجابه: لقد حظيت في حضرة الملك
بالشهرة، ولم يتمكن أحد أن يغلبني، ولا أريد من أجل النسوة أن أضعف
قوتي. فقال الملك: أن هدفي أن تتجب أطفالاً، وبعد ذلك نعفيك من
المباريات. طلب المصارع واسمه "محمد شاه" أن يرسل رسولاً يستدعي أبناء
حرفته، وحين وصلوا نازلهم جميعاً في ميدان وهزمهم جميعاً، ثم ركع هذا
الضخم على ركبتيه وقال: ها قد رأيت يا مولاي كل قوتي وأنا طوع أمرك،
فأمر بتزويجه بالجارية، وبعد خمسة أيام منحه من الأموال الكثير وأصبح
محل عنايته وأمر له بسبعمئة بالمش:

تَقْضِيضُ الْأَمْوَالِ حِينَ تَحُلُ فِي كَفَيْهِ أَنْ لَيْسَتْ بَدَارُ مَقَامِ^(٢)
وَأَقَامَ لِلْعُرُوسِينَ حَفْلَةً زَفَافٍ، وَأَجْرَى عَلَيْهِمَا، كَالْمَاءِ الْجَارِي، الثِّيَابَ
وَالْجُلُودَ وَالتَّحَفَ، كَمَا سَمَحَ لِهَمَا بِأَنْ يَخْتَارَا بِأَنْفُسِهِمَا مَا شَاءَ مِنْ أَنْوَاعِ
الْمَلْبُوسَاتِ.

حكى واحد من الأصدقاء والثقات قال: كنت في بلاد الروم في عهد

(١) البيهقان لأبي السَّمُطِ الرُّسْنَعِي أَيْ الْمُنْسُوبِ إِلَى رَأْسِ عَيْنَ ذَكَرَهُمَا الثُّعَالِبِيُّ فِي تَتْمَةِ الْبَيْتَةِ (نسخة باريس ورق ٥٢٠، نقلًا عن حاشية جهان كشاي جـ ١، ص ١٨٤).

(٢) هذا البيت لأبي الحسن علي بن محمد التَّهَامِي المشهور وقبله هذا البيت :
يَقْضِي بِحُكْمِ الْجُودِ فِي أَمْوَالِهِ وَقَضَى بِحُكْمِ اللَّهِ فِي الْأَيَّامِ
تَتْمَةُ الْبَيْتَةِ، باريس ورق ٥١١، نقلًا عن حاشية جهان كشاي جـ ١، ص ١٨٤.

السلطان علاء الدين كيقباد^(١)، وكان بين المنافسين (الناس) شخص مختل العقل وكان يحصل على قوته عن طريق السخرية، وكانت أقاصيص ملك العالم وكرمه الحاتمي حديث الناس، وأن ملكاً في المشرق من نسل المغول يستوى عنده التبر والتراب (أى التراب والذهب).

لدى مقدار همته العالية، يتحول النقد قليل العيار إلى سبعة نجوم".

وفكر هذا الرجل الماجن (المسخرة) في السفر، وانطلق في رحلته، ولم يمهده رفاقه بالزاد، واشترى حماراً ومضى في سبيله، وبعد ثلاثة أعوام وبينما هو سائر في السوق، رأيت راوى الرواية سيذاً عظيماً يملك الخيل والبغال والجمال والغلمان الخطا عن اليمين وعن الشمال، وحين رآني ترجل من فوره عن الحصان ورحب بي وأبدى سروراً كبيراً برؤيتي، ودعاني بإصرار إلى ضيافته، وقدم لي كل ما لذ وطاب من المأكولات والمشروبات في أوان من الذهب والفضة، والقينات والمغنون والسقاة يقفون في نظام حولنا، كما هي عادة أصحاب المروعة والفتوة في تلك الأيام، وألح على البقاء معه يومين أو ثلاثة محتفياً بي محاطاً بكرمه، دون أن أتذكره، حتى عرفني بنفسه قائلاً: أنا صاحب الحمار. فسألته عن أحواله: "إنني رأيتك سفيهاً فمتى صيرت فقيهاً؟" قال: حين سافرت من بلاد الروم معدماً على حماري، قصدت قصر ملك وجه الأرض، وكنت أحمل معي آنذاك قدراً من الفاكهة المجففة، وجلست أعلى تبة في طريق عبوره، وحين أبصرني أرسل شخصاً إليّ يسألني عن أحوالي، فشرحت له ما أنا فيه من الفقر المدقع، وقلت له إنني خرجت من بلاد الروم قصدت قصر الملك قاصداً الآلاف من نواله وعطاياه فلعل الملك السعيد طويل العمر يرفق بحالي ويحول حالي التعيس إلى طالع مسعود:

"إذا أراد أن يهديني إلى طريق النور، قدم لي النصيح، نصيح العجوز المشهور (المجرب)، وإذا هربت فاراً مثل السهم، فاقصد صاحب الدولة في القمة.

(١) علاء الدين كيقباد الأول، من سلاجقة الروم في تركيا، حكم (٦١٦ - ٦٣٤ هـ ت).

وفى أثناء الحديث وضعوا أمامه طبقاً من الفاكهة وإلى جانبه وعاء فيه ماء [ليغسل فيه الفكهة حسبما هو واضح فى حاشية ص ١٨٦ من المجلد الأول من جهان كشاي]، وأركان الدولة ينظرون إلى من طرف خفى، فوضع فى الطبق بضع حبات من الفاكهة، ثم اتجه نحو رجاله وقال: قدم هذا الرجل من بلاد بعيدة، ماراً ببلاد كان يمكنه أن يلقى لدى أمرائها العون الذى ينشده، وهم كذلك سيغنمون من مساعدته، لذا رميت عددًا من حبات الفاكهة فى وعاء الملك لأكل منها أنا وأولادى، وأترك بعضها منها تقسمونه فيما بينكم. وساق الجواد حتى وصل إلى المعسكر، عندئذ أخرج الفاكهة من الطبق وأحصاها، واتجه إلى دانشمند حاجب وسأله عن منزلى فأجاب: لا أعلم أين يسكن. ثم استدعاه مرة أخرى ثم سألنى: أى مسلم أنت؟ فقير قدمت إلينا من بلاد بعيدة، ولا تعرف ماذا ستأكل أو تشرب، وأين تنام وتستيقظ؟ اذهب أيها الحاجب إلى أهلك، وأحسن ضيافته وأكرم وفادته وهبى له مسكنًا مناسبًا. وهكذا أخذنى وأنزلنى فى السوق وأخذ يبحث يميناً ويساراً حتى أنزلنى فى منزل له.

وفى أحد الأيام طلب من دانشمند حاجب أن يحصى عدد الباشات فى الخزانة، فأخبره أن بالخزانة سبعمائة بالاش، جاءت من فتح "قیزی" (١) فأمر باستدعائى وأعطانيها كلها، ثم أمرنى أن أمر به بعد عدة أيام، فكان كلما جاءت عائدات البلاد منحنى إياها، وهكذا تحولت حياتى من ضيق ذات اليد إلى ثروة وغنى وسعة:

وإذا أتاه سائل
أبصرته بفنائيه
ربُّ الشؤون والبعير (٢)
ربَّ الخورنق والسدير

(١) هى الصين الجنوبية التى كانت تسمى "ماجين ومهاجين" أى الصين الكيزى ويطلق عليها المغول اسم "تكياس" - حاشية جهان كشاي ص ١٨٦ نقلاً عن بلوسيه.

(٢) البيتان لأبى بكر الخوارزمى (تاريخ يمينى طبع دهلئ: ٧٢) وقد نظمها على قصيدة المنخل البشكرى المشهورة والمذكورة فى (شرح الحمامة ٢ / ٤٥) ويروى أن القصرين بناهما النعمان بن المنذر فى الحيرة لبهرام كور، ومعنى الخورنق: القصر الصيفى العظيم، والسدير: القصر ذو القباب الثلاث .

وأخرى: كان مغولي يدعى سنقولى بوكا (توكا فى إحدى النسخ) كان يملك قطيعا من الخراف. فهجم على قطيعه ذات ليلة باردة ذئب فقتل منها الكثير وهرب بعضها، فجاء المغولى إلى الملك فى اليوم التالى وشرح له ما أصاب قطيعه من الذئب، وأخبره أنه فقد ألف رأس فى تلك الليلة، فسأله: إلى أين هرب الذئب؟ ومصادفة أتى إليه جماعة من الصيادين المصارعين المسلمين وأحضروا له الذئب حيًا وفمه مكمم.

فقال لهم: أشتري هذا الذئب منكم بألف بالش. وقال لصاحب قطيع الخراف: إن قتل هذا الذئب لا ينفعك فى شيء. وأمر له بألف خروف.

وقال: سادع الذئب طليقًا، ليخبر أصحابه عن هذه الحكاية. وما إن أطلق سراح الذئب حتى انقضت عليه الكلاب كالأسود، وطفرت به وقتلته، فتغير القا آن وغضب وأمر أن يقضى للذئب من الكلاب، ودخل المعسكر - البلاط - مفكرًا مهمومًا، ثم نظر إلى رجال قصره وقال: حين أردت إنقاذ هذا الحيوان أصر الحق تعالى أن يضع الحق فى نصابه، لأن هذا الحيوان نجس، وليس كما أخطأت وفكرت، وهكذا انتهت حياته. وليس خافيا على المفكرين أن الملوك ملهمون من عند الله، وقد ورد نظير ذلك فى الكتب، فيحكى أن المأمون أرسل طاهر بن الحسين وعليًا بن عيسى بن ماهان^(١) لمحاربة أخيه محمد الأمين إلى بغداد.

وفى تضاعيف القصة أن حمادًا الراوية كان من ندمائك، فقال حماد: كنّا اليوم ننتزه ونشرب، وفيما نحن كذلك رسا زورق فيه بعض الجوارى، فركبنا معهن وكان بينهن جارية جميلة من بين الجوارى اسمها قبيحة، ومن بين أسنانها سن ذهبية أكملت حسننها وجمالها، وكان فى يد الأمين كأس من

(١) هذا سهو وخطأ، فمن المعروف أن عليًا بن عيسى بن ماهان كان قائد جيش بغداد من قبل الأمين، وأن طاهر بن الحسين كان قائد جيش خراسان من قبل المأمون، فقتل على فى المعركة، ولم يكونا معا فى جيش واحد.

الياقوت حمراء نارية صنعت على هيئة السفينة، وتعدّ هذه الكأس من نفائس الدنيا ونوادر البلاط، وحين علا الصخب وعم السرور نهضت قبيحة من مكانها لأمر تقتضيه، فعلق ثوبها بحذاءها فسقطت على الكأس فانكسرت.

واصطدمت سنتها الذهبية بحافة الكأس فانكسرت وهي التي كان محمد الأمين مشغوفاً بها، فاتجه إلى حماد وقال: دنت نهايتنا، وهي كذلك نهاية الندماء. فدعا ربه أن يبعد عن محمد هذا التشاؤم. وبينما كان الحديث يجري بينهم على هذا النحو من التطير سمعوا هاتفاً يقول "قضى الأمر الذي فيه تستفتيان"، فقال محمد الأمين: أسمعت يا حماد؟ ولكن حماداً أصم أذنيه عن سماع الصوت، وعاد الهاتف ثانية يعيد الآيه، عندئذ قال محمد الأمين لحماد: عندئذ لم يعد هناك شك بعد الآن، انهض، وانتبه لأمرك، لقاؤنا أنا وأنت يوم القيامة.

أخرى: قدم رجل عجوز من حدود بغداد، وجلس في نهاية الشارع المؤدى إلى قصر الملك فوقعت عين الملك عليه في أثناء عبوره، فاستدعاه إليه فسأله: لم أنت واقف هنا في نهاية الشارع؟ أنا رجل مسن وفقير ولى من البنات عشر فتيات، ولشدة فقرى لم يتقدم لخطبهن أحد. فقال الملك: لماذا لا تذهب إلى الخليفة ما دمت أنت من بغداد؟ فأجاب: كلما طلبت من الخليفة صدقة منحني عشرة دنائير ذهبية، أصرفها على عيالى. فأمر الملك أن يعطى ألف بالش فضة.

فقال أركان دولته طالبين منه أن يكتب إلى حاكم ولاية الختا آمراً أن ينقده من الخزنة، وحين أحضروا البالشات من الخزنة، ووضعوها أمام هذا العجوز قال الرجل المسن: كيف أحمل هذا المال الوفير من هنا وأنا رجل ضعيف؟ واكتفى بأخذ بالش أو اثنين، فأمر الملك بإعداد حمار وأجوال وأن توضع الأموال في الأجوال، وأن يرافقه الحمال بالأجوال في سيره إلى بلده فقال العجوز: إننى لا أستطيع أن أصل والمال معى سالماً إلى بلدتى، فإن حصل فى الطريق واقعة ما، حرمت بناتى من أنعام الملك. فأمر الملك أن يحرسه فى طريقه اثنان من جنود المغول حتى ولاية "إيل"، وبينما كان

المغوليان يسيران مع العجوز فى طريقه إلى بلدة أزركته وافته المنية فى الطريق، فأخبرا الملك بذلك، فقال الملك: ألم يبلغنا الرجل بعنوانه؟ وألم يخبرنا العجوز أين تسكن بناته؟ فأجابه المغولان: بلى، قال لنا، فأمر الملك عندئذ أن يحملا المال إلى بغداد ويسلماه إلى بناته، وأن يقولوا: هذا المال صدقة الخان لزواجك.

أخرى: أعرست إحدى قريباته وأرسلت إلى زوجها، وأمر لها بصندوق مملوء بالؤلؤ يحمله ثمانية أشخاص زينة لها، وحين حملوا ذلك الصندوق إلى الملك كان الملك مشغولاً بالشراب والطرب، فأمر أن يفتح الصندوق، وكل لؤلؤة منه قيمتها دينار أو ديناران، ونثره على الحاضرين، فقال له أحد رجال حاشيته: كان هذا الصندوق معداً لجهاز الفتاة الفلانية. فقال: فى الخزانة صندوق آخر مثله، أرسلوه غدا إليها.

أخرى: أرسل أمير شيراز (أتابك) أخاه البطل إلى القا أن يحمل له بعض الهدايا ومن بينها قربتان مملوءتان ذهباً، بحكم الآية "كل حزب بما لديهم فرحون" متباهياً بما يقدمه، وأدرك قا أن ذلك، فأمر بصندوق حديدى كبير ملؤه لآلى كبيرة الحجم، فأصابته الدهشة الرسول والحاضرين، فقال القا أن: اشربوا واسعدوا. واقتسموا ما فى الصندوق فيما بينهم:

إذا حملت قطرة إلى البحر العميق ظنك الناس مجنوناً بهذا الاتجاه

لقد ذكرت هنا بعض ما يجب ذكره، راجياً من الله حلمه وعفوه وعطاءه وعدله وتربيته، وهذا قليل من كثير، وقصدت من هذا القول بأن لكل زمان صولة رجاله، كما فى سالف الأزمان حاتم وأنوشروان وغيرهما، وذكر كل واحد فى حياته حتى نهايتها كعين الشمس المشعة، وحكاياتهم ورواياتهم مذكورة ومسطورة، وفى كل ما قرن سدوم وجندب، ولو أنا نقصينا هذا الميدان لاطنبا، فاكتفينا بهذا المقدار من الاختصار، على أنى أختم هذا القول بحكاية تدل على قهره وصولته وسياسته وهيبته، وكما أوضحنا ما عرف عنه من فيض نعرض فى هذه الحكاية ما اشتهر به من السطوة والانتقام وكيف يذل ذلك كله:

له يَوْمُ بُؤْسٍ فِيهِ لِلنَّاسِ أُبُوسٌ وَيَوْمُ نَعِيمٍ فِيهِ لِلنَّاسِ أَنْعَامٌ
فِيَمِطِرُ يَوْمَ الْجُودِ مِنْ كَفِّهِ النَّدى وَيَمِطِرُ يَوْمَ الْبَأْسِ مِنْ كَفِّهِ الدَّمُ^(١)

كان في قبيلة "أويرات" أمير ألف، تناقلت فيه الأنباء أنه أمر أن يستولى بعض رجاله على بنات البلاد التي يفتحها، فاعتري أهل الفتيات الخوف وخطبوا أكثر بناتهم لخصومهم، وانتشر هذا الخبر وتناقلته الأفواه حتى وصل إلى سمع الملك، فعين عدة أمراء للذهاب إلى هناك والتحقق من النبأ، وحين جاءه الخبر اليقين أمر أن يجمعوا الفتيات اللاتي تعدين السابعة من عمرهن وأن يعيدوا كل شخص سلم بنانه إلى خصمه، ووجد أن عددهن قد بلغ أربعة آلاف كالأقمار في حُسْنِهِنَّ:

حين بدا حسنهما من وراء الستار خجل القمر وانخسف

وأمر في البداية أن يفصل بنات الأمراء منهن، ثم أمر الحاضرين أن يختلوا بهن، وكان من بينهن فتاتان في غاية الجمال، أما الباقيات الصالحات فقد أوقفوهن صفوفًا، ومن كانت لائقة أرسلوها إلى الحرم الملكي، وأشبعوا الفهود والجوارح من لحوم فئة منهن، وخصوا ببعضهن رجال البلاط والعاملين فيه، وحوكوا فئة منهن إلى منازل الرسل، ليؤدين الخدمات اللازمة، أما الباقي فيهن فكان بإمكان أي مغولي ومسلم أن يختار ويأخذ ما يشاء، في حين أن الآباء والإخوة والأقرباء والأزواج كانوا يرقبون هذا بعيونهم وقلوبهم تحترق كمدًا أو عجزًا وتنتفت، من غير أن يجرعوا على المعارضة. وهذا الحديث دليل واضح على قهره وتنفيذ أحكامه، وانقياد عساكره ورجاله لأوامره.

(١) البيهقي للحسين بن مظير الأسدي (شرح الحماسة ط بولاق: ٣/ ٢ - حاشية جهان كشاي ط ١٩٠).

ذكر منازل قا آن ومراحله

حين استقر حاتم الزمان وحاكم العالم على عرشه وارتاح خاطره من أمر الختا سعى إلى معسكر أبيه الكبير، الذى هو موضع إقامته فى حدود "إيميل"، أمر ابنه كيوك على بلاده ومقر إقامته، وهى الممتدة من حدود مياه "أرقوت" وجبال قراقورم، ولم يكن فى تلك المنطقة مدينة أو قرية، سوى أثر لحائط يطلق عليه اسم "معسكر باليغ" ووجدوا وقت جلوسه سورا حجريا مسجلاً عليه أن بانيه هو "بوقا خان"، وتفاصيل ذلك مثبتة فى أثناء الحديث عن بلاد الأويغور، وأطلقوا عليه اسم "مآو وباليغ"، وأمر الملك أن يبنوا أعلاه مدينة سموها "معسكر باليغ" ولكنها عرفت باسم مدينة قراقورم، واستقدموا من بلاد الختا أصحاب الحرف وكذلك جلبوا من بلاد الإسلام الصناع والزراع فبدأوا عمليات الزراعة.

ولكثر المياه وفيضان المواهب وغازاة الرغائب بدأوا العمل فى جميع المناحى وانتهوا من تشييد المدينة خلال فترة قصيرة وشيدوا له فى أعلى الجهة المقابلة بناءً وشيدوا لهذا البناء بوابة خاصة تقضى إلى ممر خاص للملك، وبوابة لأولاده وأقربائه، وثالثة للحريم، ورابعة لدخول العامة وخروجهم، وشيد الصناع الختا وسط ذلك قصر الملك، تتصل أبوابه ببوابات المدينة بحسب توزعها، وبنوا عرشاً بثلاثة أجنحة: الأول للملك، والثانى للملكة، والثالث للسقا والطباخين. وعلى يمين القصر وشماله منازل الإخوة والأبناء والحرس، وزينوا القصر والعرش والمنازل بنقوش وزخارف، ووضعوا فى مساكن السقا جراراً ضخمة لا يمكن حملها أو نقلها، كما بنوا كل ما يلزم للألات الأخرى أو لمرابض الفيلة والجمال والخيول، ومنازل مخصصة للمشرفين عليها، حتى إذا أقيم احتفال جىء بالأشربة والأطباق الذهبية والفضية المرصعة بسهولة.

وكان الملك ينزل فيه مرتين في العام: في الوقت الذي تحل فيه الشمس في برج الحمل، وحين تبتسم الدنيا، وتبدو فيه الأرض من بكاء سحب الربيع ضاحكة الأزاهير مندّاة بالظل، ويمضى فيه شهرا مستمتعا بالشمس، يقيم في العرش احتفالا، وحين تبلغ الأمطار مرتبة فيضه، يُنعم على الصغار والكبار فيتحول فقيرهم إلى غنى.

ما ضرَّ أهلَ الثغر إبطاء الحيا عنهم وفيهم يوسف بن محمد

وحين بلغ الربيع غايته من الجمال، وبلغت الأعشاب قمة نضارتها وخضرتها، بحث عن مُتَنَزِّه آخر أشرف على هندسته المهندسون المسلمون على الرغم من أن من بناه وأعدّه بناءون ختائيون، وسمّى هذا المكان قَرْشَى سوري^(١) وهو قصر جميل شاهق، محلّى بأنواع النقوش والفرش الملونة، وبنوا عرشه في صدر البناء، وفي مجلس الملك أنواع نادرة من الأواني والقذور الياقوتية الحجر، والمرصعة باللآلئ، وإلى جانبها ما يناسبها من أدوات وأوان، وفي القصر حوض وجداول فيها من الطيور (من بنات الماء)^(٢) السابحة عدد كثير، وكانوا يستمتعون بعيدها، ثم ينعمون بالشراب بعد ذلك، وبساط الكرم فيه لا يُغلق ولا يُطوى، ويوزع هباته وعطاياه كل صباح، طوال بقائه في هذا القصر، وكان يعيش سعيدا في هذا القصر، فيدمن

(١) قَرْشَى بالمغولية تعنى قصر الخان.

(٢) ابن ماء: طائر يكون بالماء وهو نكرة كابن أوبر ويجمع على بنات ماء (المزهر للسيوطي ج ١ ص

٣٤٨، ٣٥١-٣٥٢ وشرح الحماسة للتبريزي ج ١ ص ١٩٩ أن نقلاً عن حاشية جهان كشاف ج ١،

ص ١٩٤).

العشرة والشراب، فكانه سمع قول القهستاني^(١)، وانتصح به:

تمتع من الدنيا فأوقاتها خلّسْ	وعمرُ الفتى ملّيتْ أكثرهُ نفسْ
وسارِعْ إلى سَهْمٍ من العيشِ فائِزِ	فما ارتدَّ سَهْمٌ مرَّ قَطُّ ولا احتبسْ
وقضْ زمان الأُنسِ بالأُنسِ وانتبِهْ	لحِظْكَ إذ لا حظَّ فيه لِمَنْ نَعَسْ
ولا تتقاضِ اليومَ همَّ غَدٍ وذعْ	حديثُ غَدٍ فلاشْتَغالُ بِهِ هَوَسْ
هِيَ الروحُ كالمِصباحِ والراحِ زيتها	فدُونكَ عَنِّي إِنما الرأى يُقتبسْ
أُنبيكَ عن نَفْسِي وعَمَّا اختبرتُ لا	أحاديثُ تُروى عن قَتَادَةَ عن أنسْ

حين بلغ الربيع مرحلة الاكتهال، ونهاره آل إلى زوال، عاد إلى مصيفه، ولما كان طريقه يمر على القصر والبستان أقام فيه، على عادته أياما، حيث يأمر فيه بالمعروف، ثم يتجه من هناك إلى غايته التي تبعد ثلاثة أميال عن المدينة، وهناك قصر صغير بُنى على حافة تَل، يعود إليه كذلك حين يثوب مشتاه، وفي كل مرة يُمضى بضعة أيام في التجول والنزهة بين تلك الربوع.

ويمضى صيفه بين الجبال، حيث بنى له الختاتيون بلاطا جدرانُه خشبية متشابكة، ونوافذه مذهبُه، وسقوفه مغطاة باللباد الأبيض، واسم مصيفه "سيراردو"، وفي هذه البقعة مياه باردة، وأعلاف كثيرة، ويستمر في مصيفه حتى ينذر الثلج بالنزول، وهناك أيضا في تلك المتنزهات يعم سخاؤه وكرمه. وحين أشرف فصل الخريف على الانتهاء وبدأت بواكير فصل الشتاء انتقل إلى مشتاه وعاد إلى كل ما يوجب الفرح والسرور لمدة ثلاثة أشهر،

(١) يعني أبا بكر على بن الحسن القهستاني من أعيان شعراء السلطان محمود الغزنوي، وقصيدته المذكورة في تنمة الثعالبي، ورقة: ٥٧٤.

وفاضت فيها نعمائهم وعطاياهم وهباتهم، ويذكر في هذا الموضع بيتان من ذوات
الوجهين:

لقد حال دون الوردِ بردَ مطاويلٍ كأن سَعُودًا غَيَّبَتْ فِي مَنَاحِسِ
وَحُجِّبَ فِي الثَّلَجِ الرَّبِيعُ وَحُسْنُهُ كَمَا اكْتَنَى فِي بَيْضِ فِرَاحِ الطَّوَاوِسِ^(١)

وبحمد الله تعالى ما زالت هذه المنازل المباركة مسعدة الملك المبارك
ملك الملوك المشهور أنوشروان الزمان منكوفاً آن ومزينة بوجوده، والدنيا
مستظلة بسياسته وعدله، والربيع مزهرة بخيره، وهبه الله تعالى مزيداً من
العدل ونفاذ الرأي والأمر والنهي، وحباه الله عمراً مديداً، وقوى بسلطانه دين
الحق.

(١) البيتان لأبي منصور قسيم بن إبراهيم القافيني الملقب بزرجهر من شعراء السلطان محمود الغزنوي (تتمة
البيتية باريس ورقة ٥٦٣ ولباب الألباب لمحمد عوفى طبع بروان ج ١ ص ٣٣ نقلاً عن حاشية جهان
كشاي ج ١ ص ١٩٥).

ذكر توراكيينا خاتون

حين نفذ حكم الله تعالى ورحل ملك العالم وحاتم الزمان القا آن عن الدنيا ولم يعد ابنه الأكبر "كيوك" من حربه مع جيش القفجاق، فقد اجتمعت الخاصة والعامة على باب مقر زوجته "موكا خاتون" وهى التى ورثها عن أبيه جنكيز خان طبقا لعادتهم واستعانوا بها على تنفيذ الأحكام، ولما كانت زوجته الكبرى وهى "توراكيينا خاتون" أمًا لأولاده الكبار واشتهرت بذكائها ودهائها عن "موكا خاتون" فقد أسرع بإرسال السفراء والرسل إلى أبناء الملوك من إخوة القا آن وأبنائه، تشرح لهم ما حل بالبلاد من أحوال وما وقع فيها من حوادث، وتطلب منهم تحديد وقت لتعيين خان جديد، ويجب أن يكون حاكما ورئيسا يتعهد أمور الدولة بحزم ويرعى أمور الحكم ولا يهمل أمور الرعية، ويثبت دعائم الجيش والحشم، فأعلن جغتاي وغيره من أبناء الملك أن "توراكيينا خاتون" هى أم أولاد الخان الراحل وأكثرهم استحقاقا للخانية فإنها تتسلم إدارة البلاد حتى يحين موعد انعقاد "القورلتاي" الاجتماع الموسع لأبناء الملوك والأمراء" الرسمى العام - وسيساعدها أكفاء القصر حتى لا تختل القوانين القديمة والجديدة ولا يحدث انحراف عنها، وكانت توراكيينا معروفة بدهائها وكفاءتها.

وهكذا كانت، فقد أثبتت توراكيينا خاتون براعة فى متابعة حكم القا آن، فضبطت أمور الملك بالمهادنة والحيل والكياسة، وجذبت إليها قلوب الأقرباء بأنواع الحيل والهدايا والتحف، ومال إليها أكثر الأجانب والعشائر والأقارب، وانقاد الناس إلى أوامرها ونواهيها طواعية ورغبة، وانضوا تحت قوانينها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "جُلبت القلوب على حب من أحسن إليها وبُغض من أساء إليها"، ووقف الناس جميعا بجميع فئاتهم إلى جانبها، واتبعها جينقاي وخيرة رجالات بلاط القا آن وكذا ولاة الأطراف والأقطار.

وفى أيام القا أن كان لتوراكيينا خُصوم وحساد، واستطاعت بعد أن دان لها الحكم أن تضعهم فى موضعهم المناسب ولم يستطع أن يثبت أحد على منازعتها ومناقشتها، منتهزة فرصتها قبل فوات الأوان، بحكم القول: "بأدر فإن الوقت سيف قاطع"، وأرادت أن تتشفى فيهم وأن تكافئ كل واحد منهم على ما فعل، وأرسلت سفيراً إلى الختا ليستدعى صاحب "يلواج" كى يقبض لها على الأمير "جينقاي" ولكن "جينقاي" تفرس بذكائه وحذقه فأيقن أن سببا يخصه جعلها تستدعى صاحب الرسل ففكر فى النجاة بنفسه، لم يجد سوى الهروب وسيلة لتحقيق ذلك فولى وجهه شطر ابنه "كونان" ^(١) طلبا للحماية، وحين وصل السفير إلى صاحب يلواج تلقاه بالترحاب والإعزاز والإكرام، وكان كل يوم يتلقاه بنوع من أنواع التقدير، وحين مضى يوم أو يومان على قدوم السفير أعدّ العدة والجواد فى الليلة الثالثة ليلاً وفرّ مع بعض الفرسان، فأيقظ الحرس صاحب الرسل وأخبروه بهروب يلواج مع بعض الفرسان متجها إلى "كونان" ووجد عنده الأمان.

فأبّت إلى فهم ولم أك أنبأ وكم مثلها فارقتها وهى تُصغِرُ ^(٢)

وحين وصل الاثنان الكبيران إلى بلاط كونان وضمنا اللجوء إليه، وأمنهما أرسلت توراكيينا خاتون رسولا يطلبهما فأجاب ابنها: لقد احتمت بغاث الطيور بى هربا من مخالف الباز القوية، وهى الآن فى حمايتى، تتمسك بأهداب دولتى، وإرسالها مخالف ومحذور طبقاً لشروط المروءة والهمة وبعيد عن نهج المكرمة والفتوة ولا عذر فى ذلك لدى القاصى والدانى ولا عند الترك والتاجيك.

(١) كونان من أبناء أوكتاي قا أن ولمه توراكيينا خاتون.

(٢) هذا البيت من أبيات لتأبط شراً، شرح الحماسة ط بولاق ج ١ ص ٣٧ إلى ٤١؛ نقلاً عن حاشية جيهان

كشاي ج ١، ص ١٩٧.

وقريبا سينعقد الاجتماع الرسمي الموسع "قوريلتاي" وسنعرض ونناقش إجرامها وأنامهما ويناقش ذلك في حضور الأمراء والأقرباء، وسيحددان الحكم المناسب. وتكرر إرسال الرسل، وكان "كونان" يجيب نفس الإجابة السابقة، وحين أدركت توراكيينا خاتون أن استرجاعهما غير ممكن، اتفقت مع الأمير عماد الملك الختني الذي كان من رجال القا آن، وكان على اتفاق تام معهما منذ زمن على تليفيق التهم ضدّهما كي تتمكن من إصااق التهم بهما ووضع القيود في أرجلهما أيام محاكمتهما في أثناء الاجتماع الرسمي، وحتى تتم إدانتهم.

ولما كانت شيم العظماء تقتضى الوفاء والكرم، ولم تكن فى نفسه أحلام بعيدة المدى، فإنه لم يقبل بالوشاية ولا بسعاية، وقرر سجن نفسه اختياريا حتى ينفذه الله من هذه الورطة الهائلة بسبب ما جُبل عليه من عقيدته الطاهرة وغيرها من الصفات الحميدة، ولهذا كانت له مكانة كبيرة فى عهد "كيوك خان". وكذلك حين لاحظ الأمير مسعود بك هذه الأوضاع عن كثب، رأى من الصلاح أن لا يمكث فى ممالكه فى تلك الأثناء وفضل المبادرة بالرحيل إلى "باتو"، أما الأمير "قرا أوغول"^(١) وخواتين جغاتاي وقوربغاي فقد صحبوا الأمير "أرغون" رسولا إلى كوركوز^(٢) ليعيدوه إلى العاصمة.

وفى هذا الوقت كانت هناك امرأة تدعى "قاطمة" تمكنت تمكنا تاما فى أعمال بلاطها وخدمتها واستطاعت أن تسيطر سيطرة تامة على العديد من الأعمال الملكية مستفيدة من كفاءتها وحسن رأيها، فأقالت عبد الرحمن من منصبه فى بلاد الختا، وعينت مكانه محمودا^(٣)، وسيرد ذكر هذه المرأة منفصلا فى نهاية هذا الفصل. وحين قاد الأمير أرغون "كركوز" إلى توراكيينا خاتون حبسته لضغينة قديمة بينهما وعينت الأمير أرغون مكانه على خراسان، أما من كان على علاقة ودّ معه فكانت ترسل إليه الرسل محملين بالأموال والهدايا، إلا من كان من طرف "سرقويتى بيكى" وأولادها فإنها لم تقرض عليهم شيئا ولم تخضعهم لقانون معين.

(١) قرا أوغول أو قرا هولكو : حفيد جغتاي.

(٢) كان أميرا على خراسان.

(٣) هو نفسه محمود بلواج صاحب.

وكانت "توراكيينا خاتون" تستدعى السلاطين شرقاً وغرباً، وكذلك الأمراء والعظماء والملوك لعقد الاجتماع الرسمي مع أن كيوك لم يكن قد وصل بعد وساحة الخانية ما زالت خالية طبقاً للقول المشهور:

"من عَزَّ بَزَّ وعِزُّ الحُرِّ في طَلْقِهِ" (١)

فقد تهور أوتكين" (عم جنكيز خان أو ابنه أو أخوه في بعض الروايات) بسعيه للوصول إلى الخانية، فقد أعد جيشاً وتوجه به إلى معسكر القاآن، وحين وصل إلى هناك وجد أن الحفيد "منكلي أوغول" مع عدد كبير من أقوامه وأفواجه قد ترصد له، فأدركته الندامة لفكرته، وأعلن أنه قادم لتقديم التعازي، وعلى هذا الأساس قبل اعتذاره. في تلك الأثناء وصل خبر يفيد بوصول "كيوك" إلى معسكره على شاطئ إيميل، فازداد أوتكين ندماً.

وحين وصل كيوك إلى أمه لم يشرع في إدارة أمور الملك، بل اكتفى بتنفيذ أحكام أمه حتى استقر له الحكم بعد ذلك، فلم يمض شهران أو ثلاثة حتى قتلت فاطمة كما سيلي، وماتت كذلك الأم بدورها.

(١) صدر بيت للغزّي، ورقة ٥٨ وعجزه :

فإِذَا يُسْقِبُ الْهَرَمَاسُ أَنْفَهُ.

غير أن الديوان يذكر خلقه، مكان "طلقه".

ذكر فاطمة خاتون

حين استولى المغول على مشهد الإمام الرضا المقدّس، عليه أفضل الصلاة والتحية وقعت فاطمة في أيديهم أسيرة، وأتوا بها إلى قراقورم، وبيعت في سوق الدلالة على يد دلالة، فعلمتها هذه الدلالة كل فنون الذكاء والدهاء، وكانت تأتي بها كثيراً إبان حكم القا آن إلى معسكر توراكينا خاتون... وحين تغيّرت الأحوال، وعلا أمر الأمير "جينقاي" تقربت منه حتى أصبحت محرم أسرارهِ وموضع أسرارهِ الخفية (ومكمن ما خفي من أسرارهِ) وتمكنت من السيطرة عليه وحرمت أركان دولته من مباشرة أعمالهم وتهئية السبل أمامهم حتى ملكت مقاليد الأمر والنهي، فتقرب إليها العظماء من سائر الأطراف يطلبون ودّها، خصوصاً كبار عظماء خراسان وجمعا من سادات المهد المقدس الذين تقربوا إليها ظناً منهم أنها من نسل سلالة السادات العظام. وحين تولى كيوك خان السلطة كان هناك واحد من أهل سمرقند كانوا يقولون إنه علوى المذهب اسمه "شيره"، وادّعى ساقيه قداق^(١) أن فاطمة قد سحرت كوتان^(٢) قاصدة من وراء ذلك الغمز بعلاقتهم، ولهذا السبب أصابته العلة، وحين عاد كوتان، واشتد مرضه الذي ألمّ به، أرسل رسولاً إلى أخيه كيوك خان مبلغاً إياه أن ما أصابه من علة إنما هو من فعل سحر فاطمة، فإن أصابه مكروه فعليك القصاص منها. وفي أثر ذلك جاء خبر وفاة كوتان، وكان جينقاي قد تمكن من السلطة فأخبره بهذا القول وبذلك

(١) قداق : أمير من أمراء قبيلة نايمان، كان مسيحياً. كان أتابك كيوك ومريبه وقد وصل إلى مرتبة الوزراء في عهد خانية كيوك.

(٢) كوتان أخو كيوك.

الرسالة، فأرسل رسولا إلى والدته طالبا إحضار فاطمة ولكن الأم لم توافق على إرسالها متعللة أنها ستحضرها معها، وتكررت رسالة إحضارها عدة مرات، وتكرر اعتذار الأم عن إرسالها بأسباب مختلفة، مما سبب غضبا كبيرا وسوءا في علاقتهما (علاقته بأمه)، واستدعى سمرقندى حتى إذا طلب إرسال فاطمة وتم الاعتذار مرة أخرى، كلفه بإحضارها، وحين لم يعد للاعتذار مجال أرسلت فاطمة ولكن الأم ماتت عقب ذلك، واستجوب فاطمة وعارضته، عندئذ تركها عارية جائعة ظمئة عدة أيام وليال، وسامها أنواع التعذيب والتكيل والتعنيف والتهديد، حتى وصل بها الأمر في نهاية المطاف إلى الاعتراف بجرم لم ترتكبه وجرم لم تقترفه خضوعا للغماز الهماز والتزوير، وضاق بها الحال، عندئذ أمر بلفها داخل لباد وإلقائها في الماء :

أحضرت واحدا ونصبته ملكا عندئذ تكون قد ألقيت في البحر سمكة

عندئذ أمر بإعدام كل شخص كانت له علاقة بها. وأرسل السفراء والرسول إلى مشهد يستدعون كل من ادّعوا قرابتها وعذبوهم عذابا نكرا.

وفي تلك السنة التي خلف فيها كيوك أباه اتهم على خواجه أمير "إيميل" شيره بالتهمة نفسها، وهى أن شيره يسحر خواجه⁽¹⁾. فوقع شيره كذلك فى الأسر والقيد، وسجن عامين ذاق خلالها صنوفا من التعذيب والقيد، حتى يئس من حياته. وحين أيقن شيره أنه يعاقب - كما عوقبت فاطمة - أدرك أن هذه العقوبات "هذه بضاعتنا ردت إلينا" وأن الموت حتم مقضى ورحب بقضائه وقدره، أقرّ بما لم يرتكبه من ذنوب، وألقوه بدوره فى اليم، ولحقه أبنائه ونسائه الذين قطعوا رقابهم جميعا. قتلوا الكبار فبقى وحيدا ولم تقرأ الدنيا بدورها منشور قتله.

(1) خواجه : هو خواجه أوغول بن كيوك خان، وأمه أوغول غايمش خاتون.

وفى تلك السنة أيضا حل السعد المبارك وتسلم منكوكا أن مقاليد السلطة وعرش الخانية، وعين "بزنكو تاي"^(١) على ببش باليغ". وفى هذا الوقت استدعوا خواجه، وكان خواجه من أقرب المقربين إليه، فاستدعوه كذلك لأن شخصا ادعى على خواجه بالسحر السابق الذكر، وأمر أن يضرب من كل جزء من جسده حتى تكسرت جميع عظامه ومات، وأسروا أسرته كلها وعذبوها وأذلوها.

لا تسعد بما يصيب شخصا لا تسعد به لنفسك

وارتفع صوت القضاء قائلا : يَدَاكَ أَوْكَتَا وَفُوكَ نَفَخَ^(٢)

إن كنا حريرا فأنت غرلتَه وإن كنا شوكا فأنت غرستَه^(٣)

وقد صدق سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام حين قال :

قَتَلْتَ وَقُتِلْتَ وَسَيَقْتُلُ قَاتِلَكَ.

وقديما قيل :

وما من يد إلا يد الله فوقها وما ظالم إلا سيئلى بظالم^(٤)

وعلى العاقل الفطن أن يتبصر بنور هذه المعانى، ويتأمل ويتأنق بها.

ولم يعد خافيا أن عاقبة الخداع وقصارى المكيدة إنما تتجم عن خبث الدخيلة وفساد النحلة وهذا أمر مذموم، وخاتمته شؤم. والسعيد من اتعظ بغيره.

ولو علموا ما يُعقَّبُ البغى أهله

ولكنهم لم ينظروا فى العواقب

عافانا الله من أمثال هذه المقامات، والتخطى إلى خطط الخطيئات.

(١) ورد الاسم دون تنقيط فرأى المحقق (القزويني) أن يلفظ كما كتب فى المتن.

(٢) المثل فى مجموع الأمثال للميدانى (باب الباء).

(٣) البيت من أبيات الشاهنامه للفردوسى.

(٤) فى رواية أظلم.

ذكر جلوس كيوك خان فى جهاز بالش الخانى

فى ذلك العام الذى ودّع فيه القا آن حياة الدعة، وامتنع عن نعمة الدنيا الدنية أرسل السفراء إلى كيوك خان ليتسلم زمام الأمور، فبادر إلى تنفيذ الأمر بكل همة وعزيمة. وأسرع امتثالا لأمره فطوى المسافات طيا محاولا تدارك الأمر والمصيبة التى لحقت بالدولة، وحتى يرفع حجاب البائنة والمهاجرة ويرفع ما نزل من القضاء، إلا أن القدر لم يمهل له ولم يمنح الفرصة لأحد، ولا لقطرة تروى سكان البادية من زلال الوصل ولا أن تكتحل عينا أب بولده، وحين أبلغوا كيوك بخبر هذه الحادثة التى لا مرد ولا علاج لها رأى من الواجب أن يعجل كثيرا فى حركته حتى وصل إلى "إيميل" وسمع بحادثة "أوتكين" فتوجه مباشرة إلى معسكر والده فكان وصوله حسما وقضاء على أطماع الطامعين. وأقام إلى جوار أمه وأقر أمور السلطنة طبقا لرأى والدته "توراكيئا خاتون" وأصبحت كل أمور الحل والعقد طوع بنانه ملتزما بقوانين الياسا - التشريع المغولى المعروف - دون أن يتدخل كثيرا فى أمور الملك، أو يناقش أى أمر. ولما كان قد أرسل الرسل إلى أقاصى البلاد وأدناها داعيا الملوك والأمراء والسلطين والكتاب، فقد تحركوا جميعا كل من موطنه وبلده تلبية لأمره، ولما كان قد دار الزمن دورته وأقبل الربيع مبشرا بالخير، ووضع على النجوم قدم السعد ورسم قلم النسيان على صفحة البستان صورة إرم، وازدانت الوديان بأزهار فروردين ووفود الرياحين من جميع الألوان، وشكر فصل الربيع فضل البديع بالبراعم المفتحة ولهج السوسن مبهجا بكل لسان، وخسرت الحرائم المطوقة مداعبة العشق مع الفاختات، وغنت البلابل مع العصافير فى الفضاء هذا الغزل :

تصبت خيل الربيع خيامها في الرّبي فأصبح واجبا على المرء أن ينصب خيمته هناك، فليشرب من الصباح حتى العشي، وليقطف الأزهار من المساء حتى السحر".

وتسارع وصول الأمراء كل في خيله ورجاله وخدمه وحشمه، ودهشت أعين البشر من تنظيمهم وسهم في عين مخالفهم، فقد وصلت في بادئ الأمر "سرقويتى بيكى"^(١) وأولادها في موكب مهيب وعدة لم ترها عين ولم تصنع إليها أذن (بما لا عين رأت ولا أذن سمعت).

ووصل من الشرق كوتان مع أولاده، وأوتكين وأولاده، وإيلجتاي، والأعمام، وأبناء الأعمام. ومن معسكر جنتاي وصل "قرا"^(٢) وبيسو^(٣) وبورى^(٤) وبايدار^(٥)، ويسنبوقه^(٦) وصغار الأمراء من الأبناء والأحفاد. ومن بلاد سقسين والبلغار لم يأت بانو بل أرسل بدلا منه أخاه الكبير "هردو" [الابن الأول لتوشى] وإخوته الصغار: شيبان وبركه وبركجار وتقاتيمور، وعددا من الأمراء الصغار المعترين. وقدم من بلاد الختا الأمراء وكبار رجالات البلاط. ومن بلاد ما وراء النهر وتركستان وصل الأمير مسعود بيك يرافقة كبار رجالات الحدود. وقدم في صحبة الأمير أرغون مشاهير رجالات خراسان والعراق والور وأذربيجان وشروان. ومن بلاد الروم السلطان ركن الدين والسلطان باكور (تاكور)^(٧). ومن جورجيا [كرجستان] "الداودان" [أثنان]، ومن حلب شقيق حاكم حلب، ومن الموصل رسول السلطان بدر الدين لؤلؤ. ومن دار السلام بغداد قاضى القضاة فخر الدين وسلطان

(١) زوجة تولوى خان وأم منكولا قا أن وقوبيلاي قا أن وهولاكو خان وأريق بوكا. جهان كشاي حاشية، ص ٢٠٤.

(٢) هو قرا أوغول الذى سبق ذكره.

(٣) الابن الخامس لجفتاي وقد ورد اسم أجنادا تيسو منكوه.

(٤) بورى ابن ماتيكان بن جفتاي.

(٥) بايدار الابن الخامس لجفتاي بن حنكيز خان.

(٦) أخو بورى بن ساتيكان.

(٧) ملك أرمينيا.

أرضروم، ورسل من الفرنجة، ورسل كذلك من كرمان وفارس. ومن طرف علاء الدين حاكم الموت قدم شهاب الدين وشمس الدين حاكم قهتان، ومع كل واحد منهم ما يليق بالخان من الأحمال، كما وصل من الأطراف الأخرى رسل وسفراء عديدون، حتى بلغ عدد الوافدين قرابة الألفين".

وقد أعد لهم جميعا المكان المناسب الذى يلائمهم فأعدوا لهم ألفى حمل حمار. ووفد إلى المكان التجار من سائر أنحاء البلاد مشرقها ومغربها حاملين النفائس والطرائف. ومثل هذا الاجتماع لم يروا مثله فى حياتهم وليس له سابقة من التاريخ، وضافت عليهم الأرض بما رحبت وتعذر وجود مكان بجوار هذا المعكسر، كما تعذر وجود أماكن أخرى للقادمين :

فمن كثرة الخيام والرجال وستائر القصور لم يبق فى الصحراء مكان واحد

وغلت الأسعار وندرت الأعلاف، وقد اتحدت كلمة الأمراء وأبناء الملوك على الأخذ بتقليد الخانية وتفويض مقاليد المملكة إلى أحد أولاد القا أن.

عاد الهوس إلى رأس "كوتان" [الابن الثانى لأوكتاي قا آن] لأن جده أشار إلى ذلك يوما. إلا أن قوما آخرين كانوا يرون تولية "سيرامون"^(١) الذى كان قد كبر فى السن وكان قادرا على تولى أمور حكم البلاد. وكان كيوك من بين الأبناء أكثر غلبة واقتحاما وشططا وكان ذلك معروفا عنه، وهو الابن الأكبر سناً من إخوته وأكثر ممارسة لصعاب الأمور، فقد عركته الحياة بخلوها ومُرَّها وشاهد سراءها وضراءها. وبين أن "كوتان" مريض عليل، وأن "سيرامون" لا يزال طفلا. وكانت تواركينا خاتون تؤيده وتقف فى صفه، وبيكى - أى سرقويتى بيكى أم منكوقا آن - وأولادها موافقون على ذلك، ومعهم عدد من الأمراء والقادة. وهكذا استقر رأى على تعيين كيوك حاكما

(١) هو ابن كوجو بن قا آن. وكان ولى عهد قا آن ابنه الثالث (كوجو) ولكنه مات فى حياة والده، لهذا عين حفيده سيرامون وليا لعمده.

للبلاد. وكان من المعتاد أن يمتنع كيوك عن قبول ذلك، وبعد كثير من المحايلة والتشجيع والملاطفة يقبل ذلك حتى قبل أخيراً. عندئذ قام الأمراء جميعاً رافعين قبعاتهم تحية وإجلالاً، وفتحوا أحزمتهم وتناولوا كنوس الشراب. وأنهضه هردوا وآخر... وأجلساه على العرش وركع كل من كان في المجلس وخارجه ثلاث مرات، وأسموه ... "كيوك خان". وعلى عاداتهم تعاهدوا كتابة على أن يأتروا بأمره ولا يحدوا عن قوانينه، ودعوا له، ثم خرجوا من القاعة وركعوا للشمس ثلاث مرات.

وحين جلس الباز على عرش العز، أصطفَ عن يمينه الأمراء وعن شماله الخواتين. كان المنظر عجيباً بهيجاً لكثرة اللآلئ اللامعة والدرر الثمينة. وقام على أعمال السقاية كل غلام لطيف المظهر بنفسجي العذار، أحمر الخدين لامع الوجنتين سروي القذ زهرى الفم لؤلؤى الأسنان صبيح الطلعة :

فلو أنه في عهد يوسف قُطعت قلوب رجال لا أكفُ نساء
إذا نظر المشاهدون جمالهم قدم الزهاد إلى الفهد ينبركون

وربطوا أحزمتهم في وسطهم واستقبلوا هذا اليوم بكنوس الشراب وأقداح النبيذ :

إذا رقص الحبابُ بحافتيها رأيت الدرَّ في حُمر الحقائق

أخذت كوكبة الزهرة تتطلع إلى ذلك المجلس، وتشيع أنغامها على سقف القبة الخضراء، ففار القمر والمشتري فنشرا أشعتهما المنيرة على الأرض، وانطلق المغنون يُغنون في حضرة ملك العالم بنغمات "باربدية"^(١). وأغلق الحاضرون أفواههم هيبة وتقديراً، واستمروا في فرحهم ومرحهم على هذا النحو حتى انتصف الليل وهم فرحون ويشربون، والأمراء يحوطون الملك خاضعين له راعين له :

(١) نسبة إلى المغنى الفارسى الشهير "باربد".

"على أنغام الأوتار وعزف الناي، وقف كل غلام صبيح على خدمة
المليك، وكانوا يحتسون الخمر حتى انتصف الليل والمطربون يقدمون أعذب
الألحان^(١)، وحين أضحوا سكارى ركعوا أمام الملك ثناء ودعاءً، واستأنزوا
للخلود إلى النوم. وحين طرح النور نقاب السواد نهض الملك :

حتى إذا مد الصباح رواقه ومضى الظلام يجر فضل ردائه

وقدم أبناء الملوك والأمراء وعامة الناس إلى بلاط الملك يتبخترون،
منشرحي الصدور مستبشرين، وحين ارتفعت الشمس إلى كبد السماء،
ورغب الملك الجبار السعيد في أن يخرج من خلوته:

"ارتدى الحل الملكية الذهبية، وتقلد التاج الملكي، وبخيلائه وكبريائه
أقبل يتمايل من خلف ستائر القصر، تتبعه الرايات البراقة، وجلس على
عرشه في "جهار بالش" في بلاطه بحشمة ووقار. شرع يُنعم بالإذن للدخول
عليه للخاص والعام. وجلس كل واحد هادئاً في مكانه :

وأثنوا على البطل، بأنك يقظ وسريع سرعة خاطفة

فلتندم الدنيا تحت قدميك، ولتبق على عرشك على الدوام

وتمايلت الخواتين والمحظيات بثيابهن حين توافدت مواد السرور
وكاسات الخمر:

حييت خديك بل حييت من طرب وردًا بوردٍ وتفاحا بتفاح

وتمايل الرجال والنساء والبنون والبنات على طرف الشمال كنسيم
الشمال، وتدنثروا بثياب وشيت باللائى، فلمعت وبرقت وكأنها أنجم السماء
تتاثرت غيرة من تتاثر اللائى، ومتوا أيديهم إلى أقداح اللهو والسرور،
وأنصتوا إلى ميادين الطرب، ومتعوا أنظارهم برؤية الغوانى، وشفوا آذانهم
بالاستماع للأغاني وتواترت عليهم لذات الحياة، ففى يدهم الأقداح، وبين

(١) هذان البيتان من شاهنامه الفردوسى.

أناملهم صفائر الغيد الملاح. وهكذا مضى اليوم السعيد، وتبعته سبعة من الأيام، من المساء حتى الفلق ومن الصباح حتى الشفق. واستمتعوا بمعاطاة كنوس المدام من أيدى الحسنات جميلات الثياب أنيقات الهندام:

ونفخة شادن توحى يداه إلى الأوتار آيات اشتياق

حتى إذا تمت ليالى الحبور فتحت أبواب الخزائن ووزعت الأثواب والنقود والجواهر عن طيب خاطر وسرور، وفوضت "سرقويتى بيكى" بأمر التوزيع لأنها أحكم من فى المجلس، فرأت أن يكون النصيب الأول لأبناء الملوك الذين هم من نسل جنكيز خان وأرومته، ممن حضروا هذا الاجتماع من الرجال ومن النساء، مهما كانت مراتبهم، يليهم الأحفاد فأمرء العشرة الآف، فأمرء الألف، فأمرء المائة، فأمرء العشرة، ثم كل أعوان الملوك وأنصارهم وكتابتهم وأرباب أعمالهم والمتعلقون بهم كائننا من كان، ولم يحرم أحد ممن حضر هذا المجلس من نصيبه بل أخذ كل واحد منهم ما يليق به من العطاء ثم بدأ بعد ذلك فى استعراض أمور الملك ودراستها، وكان أول أمر ناقشوه قضية "أوتكين"، ورأوا ضرورة تقصى البحث عن موضوعه، واستقر رأى على التروى والتلطف عند بحث أمره إذ لم يجد أحد فى موضوعه جرما بعد أن استعرض الموضوع كل من "منكو" وهردو، وحين قتلوا الموضوع بحثا استقر رأى على الرجوع إلى قوانين الياسا فى حقه، ومضوا فى قضاياهم كلها على هذا النمط من البحث والفحص دون أن يبدى أى من الحاضرين اعتراضا على ذلك.

وتوفى جغتاي بعد وقت قصير من رحيل القا آن، فخلفه حفيده قرا أوغول، دون أن يعارض بيسو، ابنه من صلبه، ومع أن بيسو مع كيوك خان على صداقة وصفاء، فإنه تساءل: كيف يرث الحفيد مع وجود الابن؟ فى حين أن قا آن وجغتاي - إبان حياتهما - اتفقا على تعيين قراوغول وليا للعهد^(١).

(١) المصحح أن ماتيكان هو الابن الأكبر لجغتاي ولكنه قتل فى عهد جنكيز خان فى أثناء حصار قلعة "باميان". فاتفق أوكتاي قا آن وجغتاي آنئذ على تسليم ولاية العهد لابن ماتيكان وهو قرا أوغول (قرا هولاكسو) أى حفيد جغتاي. وحين تولى كيوك الحكم لم يرض بالحفيد وعين بيسو الابن الآخر لجغتاي. حتى إذا تسلم الأمر منكوبا أن أعاد الحكم إلى قرا أوغول ليكون ملكا على "الوس" وأمر بقتل بيسو.

وهكذا خلف ييسو أباه جفتاي وسانده وعضده فى حكمه. ولكن منذ وفاة
قا آن أقدم أبناء الملوك وغيرهم من العظماء على طلب تدوين عهودهم على
براءات مسجلة ومختومة بأمر من كيوك خان نفسه لإبرازها عند الضرورة
تصديقاً لما ورد فى القرآن الكريم "اقرأ كتابك".

كانت بيكى^(١) وأولادها موجودين، ولم يجرؤ أحد على مخالفة أمرها
(أى لم يكن لأى شخص حظ مخالف لما تنص عليه الياسا). وكان كيوك خان
يتخذها مثلاً يحتذى فى أحاديثه ويثنى عليها وعلى اهتمامها بالياسا وتطبيقها
على كل من يستخف بها، وأعلن منذ اليوم الأول لجلوسه أن كل قرارات القا
أن أبيه نافذه ولا تقبل التغيير أو التبدل، وأعلن أن كل مرسوم مهمور
بإمضاء أبيه ينفذ دون عرضه عليه ولا حاجة إلى توقيعه مرة أخرى.

وبعد تقديم هذه النصائح تشاوروا فى أمر ترتيب الجيش وإرساله إلى
سائر أكناف العالم، وحين اتضح أن "منزى"^(٢) التى تقع فى أقصى بلاد الختا
لم تخضع بعد لسلطانها اختار لفتحها "سبتاي بهادر" وجنان نوين، وأرسلهما
إلى هناك مع جيش جرار مزود بالعتاد، كما أرسل الجنود إلى تنكت
وسلنكاي، كما أرسل "إيلجيكتاي" على رأس جيش جرار نحو الغرب وأمر أن
يرافق كل أمير اثنان من عشرة ممن يخصونه، ويبقى الآخرون، ويذهب من
التازيك اثنان من عشرة للحرب، على أن تبدأ الحرب بالملاحدة، وقرر أن
يتحرك بنفسه فى أثرهم، ومع أنه أمر بأن يكون الجيش كله والعشيرة تحت
حكم "إيلجيكتاي" وأن يحارب الملاحدة فقد أضاف إلى مهامه بلاد الروم
والكرج وحلب والموصل وديار بكر حتى لا يفكر أحد آخر فى الدخول إليها،
وأضاف أن على ملوك تلك الديار وسلطينها أن يتصلوا به مباشرة، وسلم
أمور مملكة الختا إلى صاحب المعظم محمود يلواج، وبلاد ما وراء النهر
وتركستان وبلاد أخرى غيرها والتى كانت تحت حكم الأمير مسعود بك وأن
تضاف إلى سلطانه أيضاً.

(١) يقصد سرقوتى بيكى وأولادها منكرو قا آن وهولاكو خان وقوبيلاي قا آن ورليق بوكا.

(٢) الصين الجنوبية.

أما العراق وأذربيجان وشروان واللور وكرمان وفارس وجزء من بلاد الهند فتخضع للأمير أرغون، ومنح كل واحد منهم فرمانه مهمورا بختم رأس الأسد، أما سلطنة الروم فقد أبقى عليها السلطان "ركن الدين" لأنه "صالحه" وقدم إليه وعزل أخاه الأكبر، وعين داود ابن ملكة الكرج بعد أن حكم على داود الآخر. كما منح سلاطين باكور وحلب والسفراء مراسيم ملكية، أما وفد بغداد فبعد أن أكرمه وعززه ومنحه المرسوم الملكي فإنه عاد واسترجعه منه وحمله لومًا وشتمًا للأمير المؤمنين بسبب شكوى جاءت من سيرامون بن جورماغون، كما أعاد وفود "الموت" بالإذلال والإهانة. وأجابهم على مذكراتهم بما يليق من المعاملة السيئة الخشنة.

وبعد أن فرغ من مهمات الأمور وعظائم الأعمال، وبعد أن انتهت الأمراء من تقديم فروض الولاء للملك، عزموا العودة وأخذوا يستعدون لتنفيذ ما أمر به كيوك خان وتحدث فيه من حيث ترتيب الجيوش وإرسالها (إلى المناطق المختلفة) وتعيين الأمراء. فانتشرت أخبار، تولى كيوك خان العرش في كل مكان، ورافق هذا ما اشتهر به من خشونة وهيبة سياسية، سبقت شهرته تلك قبل أن تصل الجيوش إلى المخالفين، فتملكها الخوف والهلع حتى توجس خيفة منه الجريء والشجاع.

"وَجَهْ لَخْصَمَكْ سَهَامْ جِيْشَكْ الْجَرَّارْ، يُعْذْ جِيْشَكْ هِيْبَتَكْ وَيَضْعُهَا فِيْ حَصْنِ حَصِيْنٍ وَكُلِّ مِنْ سَمْعِ بَسْطُوْتِهِ وَصَوْلَتِهِ "يَبْتَغِيْ نَفَقًا فِيْ الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ". لَا أَرَى عَدُوًّا فِي الْعَالَمِ، لَا ظَاهِرًا وَلَا بَاطِنًا إِلَّا وَيَجِبُ أَنْ يَضْطَرِبَ مِنْ سَمَاعِ اسْمِكَ، إِنَّهُ لَا يَضْطَرِبُ فَحَسْبُ بَلْ وَيَفْقَدُ رُوحَهُ"^(١).

ولم يكن هناك مجال لأركان حضرته ورجاله المقربين وخاصته للذئو منه، ولم يستطيعوا التحدث في مواضعهم لعرض رغباتهم، حتى القادمون من بلاد قريبة أو بعيدة لم تكن لهم الجرأة على الاقتراب من مرابط خيوله

(١) هذان البيتان من شاهنامه الفردوسي.

بمقدار شبر واحد إلا ذلك الشخص التى اعترض من اليوم الأول ورجع،
والذى طبعه بهذه الطباع ورسخها فى تربيته كالنقش على الحجر قداق
المسيحي العقيدة، فقد كان مربيه منذ نعومة أظفاره، فعلمه أن يكون شديدا
قاسيا، وأضاف جينقاى على تلك الشدة قلعا، كأنه من القساوسة والنصارى،
وتعلم أيضا عنهم حسن الاستقبال، وحين ذاع صيته هذا بهذه السمات توافد
عليه القساوسة من ديار الشام والروم وبغداد وروسيا والآس. وكان يلزمه
كذلك كثير من الأطباء وكانوا من النصارى غالبا، وبسبب ملازمته لقداق
وجينقاى كان من الطبيعى أن يخليا طبعه من بغض وكراهية للدين وإنكار
للدين المسمى عليه أفضل الصلاة والسلام.

ولما كان الملل من طبع هذا الملك، فقد أسند أمور الحل والعقد فى كل
الأمور إلى "قداق" و"جينقاى"، كما أسند إليهما أمور الخير والشر والصلاح
والفساد، فارتفع أمر النصارى فى عهده، ولم يكن لأى مسلم كفل من ذلك.
وكان كيوك خان يريد أن يرجع فى كرمه ما كان عليه أبوه، حتى بلغ حد
الإفراط فى هذا المجال، من ذلك أنه أمر بتقويم البضائع التى كان التجار قد
أحضروها إلى والده من سائر الأقطار القاصية والدانية وكذلك النفائس
والطرائف وأن يكون تقويمها بقيمتها التى كانت عليها فى عهد والده، ودفع
قيمتها سبعين ألف بالمش، وأمر أمراءه فى المشارق والمغارب من بلاد الختا
حتى بلاد الروم أن يجمعوا هذه البضائع، ويسلموها فى يوم واحد، وقسموا
متاع كل إقليم إلى أقسام يضم كل قسم نوعا واحدا، وقال له أركان دولته إنه
يتعذر حمل ونقل تلك الأمتعة وأوكل أمر نقلها إلى خزانة قراقورم وأصر
الملك على ذلك قائلا إن المحافظة عليها واجب وإن الفائدة المرجوة من ذلك
لن تعود على الجنود والحاضرين فحسب، بل ستصل إلى الناس جميعا،
وقسمت البضائع على جميع العشائر من اليمين ومن الشمال والأطفال
والجماعات التى جاءت من قريب ومن بعيد من السادة ومن الغلمان، وفى
النهاية وجدوا أن ما أنفق لم يتجاوز ثلثى ما هو موجود، فأعاد التوزيع مرة
ثانية، ومع هذابقى بعد ذلك الكثير.

ذات يوم خرج من المعسكر فرأى فى الخزانة أموالاً كثيرة فقال : ألم أقل لكم وزعوا الأموال على الجيش والرعية؟ فأخبروه أن هذا المال الكثير هو ما بقى بعد أن أخذ كل شخص نصيبه مرتين، فقال لمن كان حاضراً أن يحمل ما يستطيع حمله من الأموال.

وبعد أن أمضى تلك السنة فى مشتاه، وأقبلت السنة الجديدة، وولى برد الشتاء، وحلّ الدفء، وتلونّت الأرض بألوان الربيع، وارتوت الأشجار والأغصان بجديد المياه، وهبت الرياح اللوآقح، وغدا الهواء كهواء العاشقين وتوردت البساتين كخود النساء واختلفت العصافير مع القواضم من الجوارح، وانتهر العاشقون أيام طربهم قبل أن يأتى فصل الخريف، واتخذوا هذا البيت دستوراً لهم :

انهض واحمل بمحبتك هدوء الياسمين كى نلتقى وقت ازهراره
تُقطف الورود من خد البستان الملون.. تُشرب
الخمير من الشفاه الياسمينه

عندئذ عزم كيوك خان على ترك مقر مملكته، وكلما مر بمزرعة وراه جمع أمر بإعطائهم الباشات والثياب ليزيحوا عن كاهلهم ذلّ الفقر والفاقة، ومضى على هذا النسق والهيئة محاطاً بالهيبة والقوة حتى وصل إلى البلاد الغربية، وحين وصل إلى سمرقند والتى تبعد عن "بيش باليغ" مسيرة سبعة أيام ، هناك فاجأه الأجل الموعود^(١)، وهكذا لم يمهلّه القدر قيد خطوة، ولم تتفعه سطوته ولم تمهلّه صولته، ولا خدمته جيوشه ولا عدّته. عجباً لهذا الفلك الجافى! "ما أكثر مما لم يتحقق من الأمال"، والأعجب من هذا أن المرء يرى ولا يتعظ من ذلك كله، بل ترى الناس يزدادون حرصاً وجشعاً ونهماً، وتزداد السطوة فى كل ساعة وهذه الحكمة البالغة ليس لها من سميع ولا مجيب ولا رادع من العقل.

(١) توفى ٦٤٦ هـ.

تقول لك الدنيا في كل زمان : انتظ وانتصح ولا تغتر
ألم تر الدنيا كيف لعبت بالإسكندر، وتركته بلا روح
وكيف أهدت قصة عشق الملك دارا المحبة واللف؟
ألم تر الدنيا تتقلب وتتلون كل ساعة؟
فكم من الأعيب ونكبات وقعن في حبالها؟

ذكر أحوال أوغول غايمش خاتون وأولادها

حين أصابت كيوك خان الحالة التي لا مفر منها والتي لا بد أن يتنوقها المخلوقات، وكما هو معترف به ومعهود، أن الملك إذا أصيب بمكروه تغلق الطرق، وطبقت قوانين الياسا التي تنص على أن يقف كل شخص في موضعه وما وصل إليه في العمار أو الخراب.

وبعد أن هدأت الأمور وخبث نار الواقعة بعثت الرسل إلى "سرقويتي بيكي" و"باتو" مخبرين بما وقع من فاجعة، ثم قدحت فكرها واستشارت المقربين من الملك: هل تعود إلى معسكر القا أن أم تسارع إلى "قوناق" و"إيميل" حيث معسكر كيوك خان القديم. وتحركت حسب هواها إلى ناحية "إيميل"، وحسب العادة فإن سرقويتي "بيكي" أرسلت إليها ما يلزم من النصائح وثوبًا و"بغتًاغًا"^(١) وكذلك فعل "باتو" محاولاً التخفيف عنها لما أصابها. وأشار عليها أن تباشر مصالح الملك بنفسها كما كان يفعل "أوغول غايمش" يعاونها رجال البلاط. وذهب "باتو" بنفسه إلى "الأقماق" وأخبر الأمراء والأبناء طالبا حضورهم جميعا، للتشاور في أمور الخانية وتفويض "بيكي" في أمور الخانية حتى تعود إلى نسقها الذي كانت عليه سابقا حتى لا يصيبها خلل، وعلى "خواجة" و"ناقو" أن يأتيا، وأنه لا حاجة إلى وصول "قداق" فأسرع خواجة وناقو تخو باتو في الأقماق، أما قداق حين أصابه الغرور وعلا نجمه فقد أخذ يهذى هذيانا لا حد له، ويصدر عن لسانه حماقات وجهالات وأقوالا حتمت إبعاده، حتى إن "أوغول غايمش" وولديها نفروا من تصرفاته، وما إن وصل خواجة وباتو إلى الأقماق، حتى سارعا إلى مغادرة المكان سريعا خلال يوم

(١) بغتًاغ : ضفائر حريرية مغولية تعلقها النساء المتزوجات على شعورهن توضع على الشعر بقلنسوة.

أو يومين، وقبل أن يصل الأمراء الآخرون، بسبب حظهما التمس، وأوكلا
تيمور نوين ليقوم مقامهما، يوقع عوضا عنهما على كل ما يتفق عليه الأمراء
والملوك.

ولما وافق الجميع على تعيين منكو قان ملكا وقع معهم تيمور نوين،
وقد راعى الأخوان أن يبقى الحكم في أيديهما إلى حين انعقاد المؤتمر الثانى
الكبير. وأرسلوا إليهم رسولا يقول : لما كان جينقاى منذ عهد بعيد وحتى
الآن موضع الثقة ومحل الاعتماد، ويتصدى لمعضلات الأمور، وقد ألهمه
الحق تعالى السداد فى تسيير الأحداث والمصالح، فقد بقى يسوس أمور
الدولة، ويكتب المرسوم الذى اتفقوا عليه.

ومن هناك عاد الأمراء إلى مواقعهم استعدادا للاجتماع الرسمى الكبير،
وعاد كذلك تيمور لخدمة "خواجه" و"ناقو" وأعلمهما عن اتفاق الأمراء على
تعيين منكو قان، وأنه وقع باسميهما على هذا مع هؤلاء القوم، ولكن
الأخوين خططا للغدر بـ "منكو قان" لذا أعدا كميناً فى طريقه بنبل الغدر،
ولكن الحظ اليقظ ووجود المحبين والإقبال السعيد وفضل البارئ، جأت
نعمائه وكثرت آلاؤه، كان قرينه. وكانت جميع الخلائق ناصرة له ومعينه.
أقلع الأخوان عن سوء قصدهما وخرجا من مكانهما، واتجه الجميع إلى
العمل لمصلحة البلاد، وهدأت الأمور ، واتجهوا إلى الانشغال بأمور التجار،
وبإرسال الرسل إلى سائر النواحي والأمصار ومعاقبة المحصلين المغالين.
كانت "غايمش" تختلى فى أكثر الأوقات مع رجال الدين "القامان" وتسرح فى
تجلياتها مع خرافاتهم، وكان ابناها "خواجه وناقو" على خلاف مستمر معها.
وهكذا جلس على العرش ثلاثة فى منزلة حاكم واحد فى حين كان الأمراء
يسيرون فى إدارة أمور البلاد حسب مشيئة الرعية.

أما الكبراء وأعيان النواحي فإنهم يسيرون وفق هوى كل شخص منهم
يميلون إليه، واضطربت الأمور واستعصت على الحل لما كان بين غايمش
وولديها من خلافات ومشاحنات بين الأقرباء، فتكبت جادة الطريق وابتعدت

عن اتخاذ التدبير الصواب. وأصبح الأمير جينقاي عاجزا عن معالجة الأمور وضل الطريق التي تساعد على تهدئة الأمور لعدم انصياعهم إلى نصائحه. فقد استبد الولدان بأرائهما الفجة، وتمادت غايمش فى ردع أهل الرأى والصواب مسائرة لهواها :

شينان يعجز ذو الرياضة عنهما رأى النساء وإمرة الصبيان

أما النساء فميلهن إلى الهوى وأخو الصبا يجرى بغير عنان

وعلى هذا فقد كتبوا إلى باتو يخبرونه بعدم موافقتهم على ملك آخر :

فضاء جرى وكتاب سبق فهل ينفعن جَزَعٌ أو قلق؟

قضى الله ما شاء فى حكمه فقيم اضطرابك والأمر حق؟

كما أرسلوا أمثال هذه الرسائل إلى "ييسو". وكان كثيرا ما يكتب إليهم داعيا إلى التصافى والتوافق، ويأمر الولدين بضرورة الإشفاق على أمهما. كما لم يقصر بيكى وباتو فى إسداء النصائح. وهكذا أصبحت الحاجة ماسة إلى عقد الاجتماع الرسمى العام مرة أخرى ويجتمع الإخوة الكبار والصغار ويتشاوروا.

وأرسل الثلاثة إلى "باتو" رسالة أعربوا فيها عن رأيهم القائل :

إن تثبيت حكم "منكو قا آن" سيعود بالخير عليك حتما

ولما كان الاثنان ينظران إلى الأمور بمنظار البطر والصبيانية، ولم تعركهما صروف الزمان ولم تصقلهما التجارب، فقد أصرا على رأيهما. ووافقهما قداق خوفا من حدوث ما لا تحمد عقباه من أقوال وأفكار، فقد سعيا إلى تثبيت الهمم لعقد الاجتماع الرسمى العام، محاولين تأجيله قدر استطاعتهما، ساعين إلى بث الخلاف بشأن هذا الاجتماع. ولكن وصل فى نهاية الأمر رسول أفاد وصول الأمراء. فمضى ناقد على الفور، وتبعه خوجة ومن بعدهما غايمش.

وسياتى ذكر جلوس ملك العالم، وكيفية تردى الأوضاع بسبب قصر النظر والاستبداد بالرأى، فقد حار العقلاء فى إيجاد السبيل لتسوية الوضع وتعذر الخروج منه.

ذكر توشى^(١) وأحواله وجلوس باتو خلفا له

حين وصل توشى الابن الأكبر^(٢) إلى حدود "قلان ناشى" للقاء أبيه وعاد من هناك، وافاه الأجل المحتوم. استقل كل واحد من أبنائه السبعة بمكانه الذى كان فيه وهم : بمخل^(٣) وهردو وباتو وشيبقان وتنكوت وبركة وبركجار، فحل باو محل أبيه، وخلفه على الحكم مع إخوته. وحين تقلد قا آن أمور المملكة استعاد سيطرته على تلك الحدود من الققجاق وآلان وآس والروس، وبلاد أخرى كالبلغار ومكس وغيرها. وحدد لباتو مقامه من حدود "إيتيل" [نهر الفولجا كما ذكره ياقوت]. وبنى باتو هناك مدينة أسماها "سراى" وسيطر سيطرة تامة على جميع الممالك. وكان ملكا لا يدين بدين ولا يميل إلى أية ملة ولا يعترف بإله، ولم يكن متعصبا لأى دين أو عقيدة، كان كريما يدفع بلا حساب سخيا إلى أقصى حد، يهب القاصى والدانى. وفد عليه ملوك الأطراف والأكناف المختلفة فى سائر الأنحاء وقدموا له الهدايا الثمينة.

وإذا وصلت إليه التحف والأموال وزعها على من كان موجودا فى حضرته من المغول والمسلمين قبل أن تدخل إلى الخزانة ولم يلتفت إليها قلت أو كثرت. وكان التجار يأتون إليه حاملين بضائعهم ومتاعهم، فكان يدفع إليهم أضعاف قيمة بضائعهم. وينعم على سلاطين الروم والشام وغيرهم. ولم يرجع أحد من عنده خائبا دون أن تتحقق رغبته فكان يأمر لهم بالمراسم والبراءات.

(١) يذكر اسم توشى فى جامع التواريخ باسم "جوجى".

(٢) الابن الأكبر لجنكيز خان.

(٣) ورد اسمه فى جامع التواريخ "بوقال" ويرى بلوشيه أن الكلمة فى الأصل "بمخل" والقف والغين فى لغة المغول تختلطان دائما، وقد حرفها للتساخ وهذا رأى قريب إلى الصواب.

وحين جلس كيوك خان على العرش استدعاه إليه فلبى باتو دعوته،
وحين وصل إلى "الأفماق" بلغه موت كيوك خان فتوقف في هذه البلدة
واستدعى أبناء الملوك إليه، فلبوا دعوته، وقرروا تنصيب منكوقا آن،
وسيصل تفاصيل ذلك عند الحديث عن منكوقا آن والحديث عن أحوال
تنصيبه. وعاد من هناك وانشغل بأمور بلاده ومعيشتة الهينة . وكان حين
إعداد الجيوش يرسل حسب الاقتضاء، يرسل إلى الأقرباء والأنساب
والأمراء. حتى إذا حلت شهور سنة ثلاث وخمسين وستمئة طلب منكوقا آن
عقد اجتماع رسمي موسع آخر. فأرسل باتو إلى منكوقا ابنه سرتاق، الذي كان
يدين بالنصرانية، وقبل أن يصل سرتاق إلى منكوقا بلغه أن أباه توفي فجأة في
شهور سنة... (١)

وحين وصل سرتاق لخدمة منكوقا آن لقي منه كل إعزاز وتكريم،
وحباه برعاية أبوية خاصة، وأغدق عليه الكثير من الأموال اللائق بالملوك.
ولكنه قبل أن يرجع إلى بلاده، توفي ولحق أباه. فأرسل منكوقا آن الأمراء
أمرا بتخفيف الحدث عن النساء والإخوة. وأشار إلى أن تتولى براقجين
خاتون، وهي أكبر نساء باتو، تتولى زمام الأمور في البلاد. وتتعهد بتربية
أولاد غجي بن سرتاق، حتى إذا كبر واشتد عوده حل محل أبيه. ولكن
القدر لم يمهل له لتحقيق ذلك، فقد توفي "أولاد غجي" في نفس العام.

(١) بياض في الأصل.

ذكر استخلاص البلغار وحدود آس والروس

حين عقد القا أن الاجتماع الرسمي الكبير للمرة الثانية، تشاور مع الأمراء حول ضرورة استئصال الطغاة وقمع بقاياهم. واستقر الرأي على بسط سلطانهم إلى حدود البلغار وآس والروس المتاخمة لحدود حكم "باتو" والذين لم يكن قد تم استئصال شأفتهم بعد، وكانوا مغرورين بكثرة رعيّتهم ولذا اختار الأمراء لمعاضدته (باتو). واستعد منكوا قا أن وأخوه "بوجك"^(١) ومن أولاده كيوك خان وقدغان والأمراء الآخرون مثل : كولكان بورى، وبايدار، ومن إخوة باتو : هردو وتكوت، وعدد آخر من الأمراء. ومن الأمراء المعتبرين : سبنای بهادر. فقد خرج كل واحد من الأمراء من معسكره يقود ما تم إعداده من الجيوش فى مطلع الربيع، متجهين نحو حدود البلغار، وأخذت جمهوع تتوافد حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وامتأل الجو بالصراخ والهيّاج وذهلت الوحوش من كثرة ما رأت من جيوش. واستطاعوا فى البداية الاستيلاء على مدينة البلغار التى اشتهرت بكثرة جندها ومناعة موقعها، وقتلوا من أهلها خلقا كثيرا حتى تكون عبرة لغيرها. كما أسروا أعدادا كثيرة منهم. ومن هناك اتجهوا إلى بلاد الروس فأخذوا فى الاستيلاء عليها جزءا جزءا، وتم لهم ذلك حتى وصلوا إلى مدينة "مكس" فصادفوا منها خلقا كالنمل والجراد متجمعين فى الغياض وغابات القصب، حتى إن الثعابين لا تستطيع أن تفرسهم. واتفق الأمراء على أن يقفوا بجانب الغابات، ويختاروا ساحات شاسعة يؤلفون فيها حلقات متباعدة، وينصبون فى وسطها المنجنيقات، ويقذفون بها السكان... وخلال بضعة أيام لم يبق من المدينة إلا اسمها، وغنموا منها مغنم شتى. وأمروا أن تقطع الأذن اليمنى بكل من كانوا فيها فكان عدد ما جمعوا من أذن مائتى ألف وسبعين ألفا من الأذن. عندئذ عزم الأمراء على العودة والرحيل .

(١) الأخ غير الشقيق.

ذكر خيل كلار وباشيفرد

ولم تكن بلاد الروس والقفجاق والاق قد خضعت بعد، وكانت "كلار" و"باشفرد" يدين أغلب أهلها بالنصرانية ويصفونهم بأنهم على صلة بالفرنجة، لذا عزم باتو على سحقهم وأعد الجيوش لتحقيق ذلك، وحين أهل العام الجديد بدأ حملته، وكانت تلك الجماعة مغرورة بكثرة عددها وشوكتها وعددها إلا أنهم ما إن سمعوا بقدوم باتو حتى هبوا استعدادًا لاستقباله بأربعمائة ألف فارس مغوار. وقد أرسل باتو أخاه "شيبقان" في طليعة الجيش ومعه عشرة آلاف من الرجال الأشداء، ليكتشف قوة العدو وقوته. سار أخوه بطلائعه تنفيذًا لأمره، وعاد بعد أسبوع مخبرًا بأن عددهم أضعاف جنود المغول، وكلهم رجال حرب أشداء.

واستمر باتو في طريقه حتى اقترب الجيشان، فصعد "باتو" إلى أعلى التل وحيدا ذات ليلة وبقي يوما وليلة صامتا متضرعا نائحا، وأمر من معه من المسلمين أن يجتمعوا ويبتهلوا إلى ربهم بصوت عال. وبدأت المعركة في اليوم التالي، وهناك أب كبير (نهر سايو) فعبره جيش باتو بينما التحم جيش شيبقان بجيش العدو وشن عليه حملات متتاليات، ولما كان جيش الخصم قويا فلم يتحرك من مكانه أرسل إليهم جيشا من خلفهم ومن أمامهم، وحملوا عليهم حملة واحدة وقطعوا أوتاد خيامهم بسيوفهم. وهكذا انهزم جيش "كلار" فاستطاع المغول السيطرة على البلاد. وكان هذا الانتصار من الأعمال العظيمة والحروب الكبيرة التي حققوها.

ذكر جغتای

كان جغتای خان معروفا بالتهور والغلبة والسياسة والخشونة. وحين فتح بلاد ما وراء النهر وتركستان، اتخذ من سمرقند حتى بيش باليغ مقرا له ولأولاده وجنده. وقد أحسن اختياره للمكان، فهو مكان متنزّه، ولائق بالملوك. وكان مصيفه "الماليغ" و"قوناس"، وهو في الربيع والصيف أشبه بجنان إرم، يتألف من أودية عظيمة يدعونها "كول"، تجتمع فيها أسراب البط المائي، وبنى في هذا المكان قرية أسماها "قنلغ"، وكان يمضي خريفه وشتاءه في "مراوريل إيلا". وكان يُعد مخازن أطعمته وشرابه منذ البداية حتى النهاية، وكان يشغل أوقاته في معايشة الحسنات صبيحات الوجوه. وكان حشمة في غاية الانضباط خوفا من عقابات الياسا. ولم يجرؤ أحد في عهده على التعرض لجيشه. ولم تكن أية طرق في حاجة إلى حراسة، ومبالغة في وصف الأمن والخوف قالوا : إن المرأة كانت تمشي وحيدة حاملة طشتا من الذهب فوق رأسها بلا خوف. فقد كان يسن القوانين الصارمة والدقيقة ويطبقها على التازيك وعلى الناس جميعا تطبيقا حازما، ومن ذلك عدم الذبح على الطريقة الإسلامية وعدم الجلوس نهارا في المياه الجارية. وكانت قوانينه هذه، لا سيما الذبح الشرعي للخراف، موزعة على الأمصار، كانت القوانين تطبق بدقة، حتى إنه لم يعرف أن شخصا ما في خراسان ذبح خروفا بشكل علني، كما أمر المسلمين بأكل لحم الميتة. وحين توفي القا أن أضحي هو مرجع الخلائق، يأخذون رأيه من قريب ومن بعيد. ولم يطل به الأمر حتى أصابه مرض عضال استعصى علاجه وكان له وزير تركي يدعى هجير كان قد استدعاه في أخريات أيامه، وتولى غالب الأمور في الدولة في أخريات عمر جغتای حين هدّه المرض. وكان يعالجه الطبيب مجد الدين، ويخلص في علاجه ويأسى لما آل إليه حاله. وحين حَمَّ القضاء أمرت

زوجته الكبرى "يسلون" أن يقتل هجير ومجد الدين (كلاهما) مع أولادهما. وقد استطاع الأمير حبش العميد الذى فتح بلاد ما وراء النهر، واستمر صديقا مخلصا لجغتاي، أن يحظى بمنصب الوزارة، وقد علا شأنه فى عهد الملكة، وقال أحد الشعراء ويدعى سديد الأعور عدة أبيات فى يوم العيد فى الأمير حبش العميد :

غدا واضحا أن ظلام هذه الدنيا مصيدة البلاء

ووضح أن الدنيا تظهر الدلال وهدفها الغدر^(١)

ماذا استفاد قرجى وكيول^(٢) والجيش الجرار؟

أنت الدنيا بالآجال وحصدت يمينا وشمالا

من كان فى الماء لا يغوص فيه خوفا منه

والغرق يكون فى البحر المحيط لعمقه واتساعه

خلف جغتاي كثيرا من الأولاد والأحفاد، ولكن ابنه الأكبر "ماتيكان" هو الذى كان يرد اسمه كثيرا وقتل فى "باميان". وله كذلك قرا^(٣) الذى مات فى حياة جنكيز خان. وتسلم ولاية العهد بعده قا آن وجغتاي. وعين بعده اثنان، فبعد موته أشرفت على الحكم زوجته "يسلون" فى حين أن جيش عميد الملك وأركان الدولة أقبلوا على قرا.

وحين تولى كيوك خان الحكم ولصداقته مع ييسو فقد اجلسوا ييسو على العرش، وفوضوه فى أمور الحل والعقد. وكان ييسو ثملا مشغولا دائما بالشراب من الصباح حتى المساء. فحين تولى السلطة فقد غضب على جيش عميد بتعصيده لقرا وجعله هدفا لإيذائه له. فى بداية الأمر كان جيش عميد قد سلم أولاده لأبناء جغتاي واختار لكل واحد من أولاده أميرا من أبناء جغتاي.

(١) هذان البيتان لأبى الفرج بن أبى حصين القاضى الحلبي (تتمة اليتيمة، الورقة ٥٢٠).

(٢) يرى بلوشيه أن هذه الكلمة يجب أن يكون أصلها "كوتوال" بمعنى حارس القلعة.

(٣) يعنى قرا هولوكو، والمعروف بقرا أوغول.

وكان قد ألحق بهاء الدين المرغيناني لما كان ينعم به من علم وفضل إلى ييسو مرة ثانية. ونظرًا إلى قدم خدمته (بهاء الدين) وكفاءته فقد تَبَوَّأ منصب الوزارة في عهد ييسو، وأنهى خدمة جيش العميد. ومع أن الأمير بهاء الدين كان يؤدي مراسم الملك والخدمة خير قيام، وتوسط مرارًا لدى ييسو للعفو عن حبس العميد ومنعه من إيدأته، فإن ما جُبِّل عليه حبس العميد من ضغينة في قلبه كان يتحين الفرصة للتشفيّ."

وكما كان معلوما فإن منكو قا آن حين جلس على العرش لم يكن ييسو موافقًا أو راضيا عن ذلك، لهذا فإن منكو خلع ييسو وعين "قرا" مكانه حيث أعاد كل شيء إلى ما كان عليه حسب ما ورد في الوصية. وأولاه العناية واللفظ الأمين، ومات في الطريق فقد وقع القدر المحتوم. فقرر أن يخلفه ابنه (ابن قرا) وسلم مقاليد الأمور إلى زوجته التي كانت تسمى أوركينة، لحدائثة سن ابنه.

وحين وصل إلى معسكرها وكان ييسو قريبًا من تلك البلاد استأنن باتو الذي كان قد وصل إلى مقره في أن يقيم مخيما في أراضيه. ولكن الأجل لم يمهل. وتمكن الأمير حبش العميد وابنه ناصر الدين وعلت منزلتهما في بلاط الخاتون مرة أخرى. وفي تلك الأثناء عاد قرا مرة أخرى، فانتقم من بهاء الدين المرغيناني وسلم أمواله لحبش العميد وقبض عليه وقيده بفلكة ذات فرعين فقال بهاء الدين هذه الرباعية :

إن من حبسوا عمري، أنقذوني من محن الدنيا والآمها

تكسر جسدي من ذنوبي، وبهذا أعادوا إلى جسمي وصله

ثم أرسل الرباعية التالية مستعظفا :

خذ أيها الملك لحمة نسيجى وسداها، وإن احتجت إلى روحى فخذها

لقد بلغت الروح التراقى وأضحى صدرى خاليا، فلا فائدة

من التضرع والتوجع.

كما كتب هذين البيتين وبعث بهما إلى حبش العميد :
 عملتُ مع العدو ومع الصديق بإخلاص ومشيت
 وهكذا تمضى حياتنا مسرعة
 سلمنى أجلى المحتوم الحب المسهل لانتشال الروح
 وأرسلت منه لعنة نقدا لحبش ومضيت
 فأمر حبش أن يلفوه داخل لباد، ويُشدوا عليه ألف حتى تتكسر عظامه
 حتى يموت.
 وفى شهور سنة تسع وأربعين وستمائة وفى أثناء العودة من عاصمة
 غامبش ذهبت إلى ييسو، وكان آنذاك فى خدمة أرغون، وحين تشرفت بلقاء
 الأمير الإمام بهاء الدين خاطبنى بهذا البيت قبل أن يبادرنى بالحديث:
 إن السرى إذا سرى فبنفسه وابن السرى إذا سرى أسراهما
 ورعانى وأولانى كل الإعزاز والإكرام، وهو ذو نسب عال وشرف
 مكتسب، جمع بينهما فأحسن، فهو من ناحية أبائه يرجع إلى شيخ الإسلام فى
 فرغانه، واستمر المنصب فى عقبهم أبا عن جد. وأما والدته فيعود نسبها إلى
 طغان خان، أما شرف الاكتساب فهو فى علو مقامه فى الوزارة، وفى
 تحصيله لأنواع العلوم الدينية والدنيوية معاً.
 والحق أننى رأيت فيه مجمع بقية فضلاء العالم، ومرجع صدور
 الآفاق، له فضل على كل إنسان، يمنح البرّ والشفقة، وذكر مناقبه وفضائله
 كثيرة لا تُعد ولا تحصى، وليس هنا مقامه، ومتى أعطى الزمان كل ذى حق
 حقه حتى يستثنيه؟
 متى أعطى الزمان العلو لإمام أو زعيم فإنه لا ينحنى أو يطأطئ
 الرأس أمام الأوجاع .

يا دهر ما لك طول عهدك ترتقى روض المكارم ضاربا وجميما
يا دهر ما لك والكرام ذوى العلى ماذا يضرك لو تركت كريما^(١)
وبقى للأمير بهاء الدين أولاد وأطفال، وكم كان يود الأمير حبش
العميد أن يلحق أبناءه الذكور به .

تم الجزء الأول من تاريخ جهان گشای
ويليه الجزء الثانى بإذن الله.

(١) البيهقي لأبى الفرج بن أبى حصين القاضى الحلبي (تتمة البيهقي، ورقة ٥٢).

المؤلف فى سطور :

هو: علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد بن شمس الدين الجوينى، ولد فى العاشر من ربيع الأول عام ٦٢٣هـ/١٢٢٦م ، وتوفى فى أواخر عام ٦٨٣هـ أو أوائل ٦٨٤هـ تقريباً .

احتلت أسرة الجوينيين مكاناً بارزاً فى التاريخ الإسلامى ، فهى واحدة من أشهر الأسر التى أنجبتها إيران. اضطلعوا بالمناصب المهمة فى حكومات سلاجقة إيران والخوارزمشاهيين والمغول .

أسندت إلى عدد من أفراد الأسرة بداية من والده بهاء الدين منصب "صاحب الديوان" وتعاذل وزير المالية . ولهذا عرف معظم أفراد هذه الأسرة بهذا اللقب . وشغل بعضهم مناصب أكبر مثل أخيه شمس الدين محمد الجوينى حيث كان الوزير العظيم فى عصر أباقا بن هولاكو - ٦٦٣هـ إلى ٦٨٠هـ، ومع هذا عُرف فى التاريخ بلقب "صاحب الديوان".

ظل علاء الدين حاكماً للعراق طوال ثلاث وعشرين سنة، ومع هذا فقد اشتهر بهذا اللقب أى "صاحب الديوان".

فقد ظل حاكماً للعراق طوال حكم هولاكو منذ ولاءه حكم العراق فى عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م حتى وفاة هولاكو فى ١٩ من ربيع الآخر ٦٦٣هـ/١٢٦٥م ، وطوال حكم أباقا الذى استمر سبعة عشر عاماً من ٦٦٣ إلى ٨٦٠هـ/١٢٦٥ إلى ١٢٨٢م .

المحقق فى سطور:

محمد بن عبد الوهاب القزوينى

عالم محقق يرانى ولد فى طهران عام ١٢٩٣ هـ ق (هجري قمرى).
وتوفى فى طهران ١٣٦٨ هـ ق. الموافق ١٩٤٩ م.

تلقى العلم فى المرحلة الأولى على يد كل من الشيخ فضل الله نورى
أستاذ الفقه والشيخ على نورى أستاذ الفلسفة.

سافر إلى لندن عام ١٣٢٢ هـ ق بدعوة من أخيه ليرزا أحمد خان،
حيث بقى بها فترة توجه بعدها إلى باريس دارسا ومحقق للنصوص والمتون
الفارسية المختلفة أمضى فترة الحرب العالمية الأولى فى "برلين" ثم عاد إلى
باريس وأقام بها وظل طوال فترة وجوده فى أوروبا على صلة وثيقة
بالمستشرقين والمهتمين بتاريخ إيران وحضارتها.

عاد إلى طهران بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية حيث أمضى العشر
سنوات الأخيرة من عمره بها.

اشتهر فى إيران بدعوته المستمرة إلى انتهاج المنهج الغربى فى
الدرس والتحقيق ودراسة النصوص المتون المختلفة.

ألف العديد من المؤلفات منها:

- ١- رسالة فى أحوال سعود سعد سلمان (الشاعر الفارسى).
- ٢- مقدمة تذكرة الأولياء (فن التصوف) لفريد الدين العطار.
- ٣- ترجمة أحوال "أبو الفتوح الرازى".
- ٤- بيت مقالة قزوينى من مجلدين: أى عشرو مقالة للقزوينى.

ب- تحقیق وتصحيح المتن التالية:

- ١- لباب الألباب د. محمد عوفى المجلد الأول.
- ٢- المعجم فى معايير أشعار العجم شمس بن قيس الرازى.
- ٣- چهار مقالة (المقالات الأربع) نظامى عروض السمرقندى.
- ٤- جهان گشای جوینى أى فاتح العالم للجوینى موضوع عملنا.
- ٥- دیوان حافظ الشیرازى.

المتّرجم فى سطور :

- وُلِدَ فى ١٩٤١/٨/٨ بالمحلة الكبرى - محافظة الغربية .
- حصل على ليسانس الآداب عام ١٩٦٣ بتقدير جيد جدًا مع مرتبة الشرف من كلية الآداب - قسم اللغات الشرقية - فرع لغات الأمم الإسلامية .
- حصل على الماجستير فى عام ١٩٨٦م بتقدير جيد جدًا فى موضوع " جلال الدين الرومى وكتابه فيه ما فيه " .
- حصل على الدكتوراه عام ١٩٧٢م بمرتبة الشرف الأولى فى موضوع " عطا ملك الجوينى وكتابه تاريخ جهان گشای " .
- شغل منصب رئيس قسم اللغات الشرقية من سنة ١٩٨٣م إلى ١٩٨٩م وفى نفس الوقت شغل منصب وكيل كلية الآداب بنى سويف .
- عين عميدًا لكلية الآداب جامعة القاهرة فرع بنى سويف من ١٩٨٦م إلى ١٩٨٩م .
- عين خبيرًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة للغتين الفارسية والتركية اعتبارًا من ١٩٩٢م وحتى الآن .
- رئيس تحرير مجلة "الدراسات الشرقية" التى تصدر عن جمعية خريجي أقسام اللغات الشرقية لمدة ثلاثة أعوام .
- رئيس تحرير مجلة "رسالة المشرق" التى تصدر عن مركز الدراسات الشرقية منذ عام ١٩٩٢ حتى ١٩٩٧م .

الإنتاج والأعمال العلمية :

أولاً الكتب :

- ١- اللغة الفارسية (نحو وصرف وتعبير) ، عام ١٩٧٥-
٢٠٠٠/٢٠٠١ م .
- ٢- النثر الفارسي منذ نشأته حتى نهاية العصر القاجاري في إيران ، عام
١٩٧٨ م .
- ٣- الثورة الإسلامية في إيران من وجهة النظر الإيرانية ، عام ٢٠٠٠ م ،
الموسوعة العامة، مقاتل من الصحراء [المملكة العربية السعودية] .
- ٤- عبد الوهاب عزام ، رائدًا ومفكرًا ، القاهرة ، الكتاب المصري اللبناني،
يناير ٢٠٠٥ .

ثانيًا الترجمات :

- ١- " تاريخ إيران القديم " تأليف حسن بيريا والترجمة بالاشتراك مع د.
محمد نور الدين عبد المنعم ومراجعة د. يحيى الخشاب .
- ٢- " الإسلام في إيران " تقديم وترجمة " الكتاب عن الفارسية " لمؤلفه
الروسي بطرشوفسكي ، الطبعة الرابعة ، مارس ٢٠٠٥ م .
- ٣- " من الفكر الصوفي الإيراني المعاصر " تأليف صادق عنقا مع كتابة
مقدمة وافية، والترجمة بالاشتراك مع د. إبراهيم الدسوقي شتا .
- ٤- ترجمات لمواد خاصة بإيران وتركيا وتاريخ آسيا الوسطى في
الدوريات المختلفة .
- ٥- كتابة ترجمة عدد من أعلام الفكر والتاريخ الإسلامي ورواد الدراسات
الشرقية لليونسكو .
- ٦- مراجعة المعجم الذهبي : " فرهنك ثلاثي - المعجم الفارسي العربي -
تأليف الدكتور النونجي - مراجعة الدكتور السباعي ، لونغمان ١٩٩٦ ،
القاهرة .

التصحيح اللغوى : محمود عبد الرازق

الإشراف الفنى : حسن كامل